أحاديث الإيمان

تأليف

عبد الرزّاق بن عبد المحسن البدر

مركز سطور للبحث العلمي

دار الإمام مسلم

أحاديث الإيمان

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع
طباعة - نشر - توزيع
المملكة العربية السعودية - المدينة المنورة
شارع الفيصليَّة - خلف الجامعة الإسلاميَّة
00966532627111
00966590960002
daremslm@gmail.com
daremslm

مركز سطور للبحث العلمي
Sutor.center@gmail.com
بحث علمي - صفّ - تنسيق - تصميم

أحاديث الإيمان

تأليف

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

مركز سطور للبحث العلمي

دار الإمام مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

فهذا مجموع نافعٌ في بيان الإيمان الذي هو أجل المقاصد وأعظم المطالب وأنبل الغايات، والذي حاجة الناس إليه وضرورتهم إلى العلم به وتطبيقه أعظم الضرورات، بل ليس للناس حاجة في هذه الحياة مثل حاجتهم إلى الإيمان بالله وبما أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عباده بالإيمان به؛ لأنه حياة العباد الحقيقية، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فالحياة الحقيقية لا تكون ولا تتحقق إلا بالإيمان.

وقد جمعت في هذا الكتاب طائفة من أحاديث الإيمان مع شرحٍ لمعانيها وبيانٍ لمضامينها واستخلاصٍ لفوائدها، وهو في الأصل حلقات يومية قدمتها في شهر رمضان المبارك لعام (١٤٤٣ هـ)؛ عبر قناة السنة النبوية -جزى الله القائمين عليها خير الجزاء وأوفاه-، وقد لقيت بحمد الله قبولًا، ورغب الكثير في طبعه ونشره لتتنوع مجالات الإفادة منه.

وأسأل الله -جل في علاه- بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يوفقنا أجمعين لما يحبه ويرضاه من سديد الأقوال وصالح الأعمال، وأن يزيننا بزينة الإيمان، وأن يجعلنا هداة مهتدين.

وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله -نبيِّنا محمَّد- وآله وصحبه أجمعين.

١
حديث: (أيُّ العمل أفضل؟)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «**إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ**». قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**». قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**حَجٌّ مَبْرُورٌ**»(١).

إنَّ أهمَّ ما يجب على العبد العناية به في هذه الحياة الإيمان؛ فهو أفضل ما اكتسبته النُّفوس، وحصَّلته القلوب، ونال به العبد الرِّفعةَ في الدُّنيا والآخرة، بل إنَّ كلَّ خيرٍ في الدُّنيا والآخرة متوقِّف على الإيمان الصَّحيح؛ فهو أعظمُ المطالب، وأجَلُّ المقاصد، وأنبلُ الأهداف.

ومباحث الإيمان ومسائله هي أهمُّ المسائل على الإطلاق؛ لأنَّها أهمُّ مباحث الدِّين، وأعظم أصول الحقِّ واليقين، وكم للإيمان الصَّحيح من الفوائد المُغدَقة، والثِّمار اليانعة، والجنى اللَّذيذ، والأُكُل الدَّائم، والخير المستمرِّ! أمورٌ لا تحصى، وفوائدُ لا تُستقصَى؛ عاجلة وآجله.

فبالإيمان يحيى العبدُ حياةً طيبةً في الدَّارين، وينجو من المكارهِ والشُّرورِ والشَّدائدِ، ويدركُ جميع الغايات والمطالب، وينالُ ثواب الآخرة؛ فيَدخُلُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٦) و(١٥١٩) واللَّفظ له، ومسلم (١٣٥).

جنَّةً عرضُها كعرضِ السَّماءِ والأرضِ، فيها من النَّعيم ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وينجو من نارٍ عذابُها شديد، وقعرُها بعيد، **وأعظم من ذلك كلِّه**: أن يفوز برضى الرَّبِّ سبحانه فلا يسخط عليه أبدًا، ويتلذَّذ بالنَّظر إلى وجهه الكريم، في غير ضرَّاءَ مُضِرَّة، ولا فتنةٍ مُضِلَّة.

وبالإيمان يطمئنُّ القلب، وتسكُن النَّفس، ويُسَرُّ الفؤاد، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرَّعد: ٢٨].

وكم للإيمان من الفوائد العظيمة، والآثار المباركة، والثِّمار اليانعة، والخير المستمرِّ في الدُّنيا والآخرة ما لا يحصيه ولا يحيط به إلَّا الله! ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السَّجدة: ١٧].

وبالجملة؛ فالخير كلُّه فرعٌ عن الإيمان ومترتِّبٌ عليه، والهلاك والشَّرُّ كلُّه إنَّما يكون بفقد الإيمان ونقصه.

فلا غَروَ إذن أن تكون مباحثُه أهمَّ المباحث وأعظمَها وأَولاها بالعناية والاهتمام، وأجدرَها بصرف الهمم والأوقات، **وشرَفُ العلم مِن شَرَف معلومه**، وليس هناك أشرف من الإيمان وعُلومه الَّتي يتحقَّق بتحقُّقها كلُّ خير، ويُصرَف كلُّ شرٍّ، بل لا صلاح للعباد، ولا فلاح، ولا حياة طيِّبة، ولا سعادة في الدَّارين، ولا نجاة من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة؛ إلَّا بالإيمان الصَّحيحِ علمًا وتطبيقًا؛ فالعلمُ والإيمانُ هما أفضل هبَاتِ الرَّحمنِ، وأجَلُّ عطيَّاته.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أفضل ما اكتسبته النُّفوس، وحصَّلته القلوب، ونال

به العبدُ الرِّفعة في الدُّنيا والآخرة: هو العلم والإيمان؛ ولهذا قرَن بينهما سبحانه في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الرُّوم: ٥٦]، وقوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وهؤلاء هم خلاصةُ الوجود ولبُّه، والمؤهَّلون للمراتب العالية»[(١)].

إنَّ الإيمان شجرةٌ مباركةٌ، عظيمة النَّفع، غزيرة الفائدة، كثيرة الثَّمر، لها مكانٌ تغرَس فيه، ولها سقيٌ خاصٌّ، ولها أصل وفرع وثمار:

أمَّا مكانها: فهو قلب المؤمن، فيه توضع بذورها وأصولها، ومنه تنشأُ أغصانها وفروعها.

وأمَّا سقْيها: فهو الوحي المبيِّن كتابَ الله وسنةَ رسوله ﷺ؛ فبه تُسقى هذه الشَّجرة المباركة، ولا حياة لها ولا نماء إلَّا به.

وأمَّا أصلها: فهو أصول الإيمان السِّتَّة؛ الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشرِّه، **وأعلى هذه الأصول الإيمان بالله**؛ فهو أصل أصول هذه الشَّجرة المباركة.

وأمَّا فروعها: فهي الأعمال الصَّالحة، والطَّاعات المُتَنَوِّعة، والقربات العديدة الَّتِي يقوم بها المؤمن؛ من صلاةٍ، وزكاةٍ، وحجٍّ، وصيامٍ، وبرٍّ، وإحسانٍ، وغير ذلك.

وأمَّا ثمارُها: فكلُّ خيرٍ وسعادةٍ ينالها المؤمن في الدُّنيا والآخرة، فهو ثمرة

---

(١) الفوائد لابن القيِّم (ص١٥١).

من ثمار الإيمان، ونتيجة من نتائجه، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النَّحل: ٩٧].

هذا **وأهمِّيَّة الإيمان تظهر بمعرفة فوائده وثماره**، وفي هذا يقول الشَّيخ السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أنَّ خير الدُّنيا والآخرة من ثمرات الإيمان الصَّحيح، وبه يحيا العبد حياة طيِّبة في الدَّارين، وبه ينجو من المكاره والشُّرور، وبه تخفُّ الشَّدائد، وتُدرَك جميع المطالب، ولنُشر إلى هذه الثَّمرات على وجه التَّفصيل؛ فإنَّ معرفة فوائد الإيمان وثمراته من أكبر الدَّواعي إلى التَّزوُّد منه»[1].

ثمَّ شرَعَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر تفاصيل ثمرات الإيمان وفوائده؛ وفيما يلي تلخيص لها؛ **فمن ثمرات الإيمان وفوائده:**

أوَّلًا: أنَّه سبب رضا الله؛ الَّذِي هو أكبر شيء.

ثانيًا: أنَّ ثوابَ الآخرة، ودخولَ الجنَّة، والتَّنعُّم بنعيمها، والنَّجاةَ من النَّار وعقابها؛ إنَّما يكون بالإيمان.

ثالثًا: أنَّ الله تعالى يدافع عن الَّذِين آمنوا، ويدفع عنهم شرور الدُّنيا والآخرة.

رابعًا: أنَّ الله وعد المؤمنين القائمين بالإيمان حقيقةً بالنَّصر والتَّأييد.

خامسًا: أنَّ الهداية من الله للعلم والعمل ولمعرفة الحقِّ وسلوكه؛ هي بحسب الإيمان والقيام بحقوقه.

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن للسِّعديِّ (١/ ٤٧-٤٨).

سادسًا: أنَّ الإيمان يدعو إلى الزِّيادة من علومه وأعماله الظَّاهرة والباطنة.

سابعًا: أنَّ المؤمنَ بالله وبكماله وعظمته وكبريائه ومجده؛ أعظمُ النَّاس يقينًا وطمأنينةً وتوكُّلًا على الله، وثقةً به.

ثامنًا: أنَّه لا يمكن العبد أن يقوم بالإخلاص لله ولعباد الله ونصيحتهم على وجه الكمال إلَّا بالإيمان.

تاسعًا: أنَّ المعاملات بين الخلق لا تتمُّ وتقوم إلَّا على الصِّدق والنُّصح وعدم الغشِّ؛ ولا يقوم بذلك حقيقةً إلَّا المؤمنون.

عاشرًا: أنَّ الإيمان أكبر عون على تحمُّل المشقَّات، والقيام بأعباء الطَّاعات، وترك الفواحش الَّتِي في النُّفوس داعٍ قويٌّ إلى فعلها؛ فلا تتمُّ هذه الأمور إلَّا بقُوَّة الإيمان.

حاديَ عشر: أنَّ العبد لا بُدَّ أن يصاب بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثَّمرات، والإيمان أكبر عون على تحمُّل هذه المصائب.

ثانيَ عشر: أنَّ الإيمان يوجب للعبد قُوَّة التَّوكُّل على الله؛ لعِلمه وإيمانه أنَّ الأمور كُلَّها راجعةٌ إلى الله، ومندرجةٌ في قضائه وقدره.

ثالثَ عشر: أنَّ الإيمان يُشَجِّعُ العبدَ، ويزيدُ الشُّجاعَ شجاعةً؛ فإنَّه لاعتماده على الله العزيز الحكيم، ولقُوَّة رجائه وطمعه فيما عنده؛ تهُونُ عليه المشقَّات، ويُقدِمُ على المخاوف واثقًا بربِّه، راجيًا له، راهبًا من نزوله من عينه؛ لخوفه من المخلوقين.

رابعَ عشر: أنَّ الإيمان هو السَّبب الأعظم لتعلُّق القلب بالله في جميع مطالبه الدِّينيَّة والدُّنيويَّة.

خامسَ عشر: أنَّ الإيمان يدعو إلى حسن الخلق مع جميع طبقات النَّاس، وإذا ضعُف الإيمان أو نقَص أوِ انحرَف؛ أثَّر ذلك في أخلاق العبد انحرافًا، بحسب بعده عن الإيمان.

سادسَ عشر: أنَّ الإيمانَ الكاملَ يمنع من دخول النَّار بالكلِّيَّة؛ كما منع صاحبه في الدُّنيا من فعل المعاصي، والإيمانَ النَّاقصَ يمنع الخلود في النَّار.

سابعَ عشر: أنَّ الإيمان يوجب لصاحبه أن يكون معتبَرًا عند الخلق أمينًا، ويوجب للعبد العِفَّة عن دماء النَّاس وأموالهم وأعراضهم.

ثامنَ عشر: أنَّ قويَّ الإيمان يجد في قلبه من ذوقِ حلاوته، ولذَّةِ طعمه، واستحلاءِ آثاره، والتَّلذُّذِ بخدمة ربِّه، وأداءِ حقوقه وحقوق عباده الَّتِي هي موجبُ الإيمان وأثرُه؛ فالمؤمن يتقلَّب في لذَّات الإيمان وحلاوته المُتَنَوِّعة.

تاسعَ عشر: أنَّ الإيمان هو السَّبب الوحيد للقيام بذِروة سَنام الدِّين؛ وهو الجهاد البدنِيُّ، والماليُّ، والقوليُّ؛ في سبيل الله.

فهذا كلُّه من ثمرات الإيمان، ومن تمامه وكماله، وكلُّ خيرِ الدُّنيا والآخرة فرعٌ عن الإيمان، ومترتِّب عليه.

فإنَّ الله رتَّب على الإيمان في كتابه من الفوائد والثَّمرات ما لا يقلُّ عن مِائة فائدة، كلُّ واحدة منها خيرٌ من الدُّنيا وما فيها.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وهو نحو مِائة خصلة، كلُّ خصلةٍ منها خيرٌ من الدُّنيا وما فيها:**

فمنها: الأجر العظيم: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء: ١٤٦].

ومنها: الدَّفع عنهم شرورَ الدُّنيا والآخرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

ومنها: استغفار حملة العرش لهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧].

ومنها: موالاة الله لهم، ولا يذلُّ مَن والاه الله؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ومنها: أمرُهُ ملائكتَه بتثبيتهم: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال: ١٢].

ومنها: أنَّ لهم الدَّرجات عند ربِّهم، والمغفرة والرِّزق الكريم.

ومنها: العِزَّة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

ومنها: معيَّةُ الله لأهل الإيمان: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

ومنها: الرِّفعةُ في الدُّنيا والآخرة: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ومنها: إعطاؤهم كِفلَين من رحمته، وإعطاؤهم نورًا يمشون به، ومغفرة ذنوبهم.

ومنها: الوُدُّ الَّذِي يجعله سبحانه لهم؛ وهو أنَّه يحبُّهم ويحبِّبُهم إلى ملائكته وأنبيائه وعباده الصَّالحين.

ومنها: أمانهم من الخوف يوم يشتدُّ الخوف: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

ومنها: أنَّهم المنعَم عليهم؛ الَّذِين أُمِرنا أن نسألَه أن يهديَنا إلى صراطهم في كُلِّ يوم وليلة سبعَ عشرة مرَّة[١].

ومنها: أنَّ القرآن إنَّما هو هدًى لهم وشفاءٌ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فُصِّلت: ٤٤].

والمقصودُ: أنَّ الإيمان سببٌ جالبٌ لكلِّ خير، وكلُّ خير في الدُّنيا والآخرة فسببه الإيمان، وكُلُّ شرٍّ في الدُّنيا والآخرة فسببه عدم الإيمان»[٢].

فالإيمان أكبر وسيلة للقرب من الله، والقرب من رحمته، ونيل ثوابه، وأكبر وسيلة لمغفرة الذُّنوب، وإزالة الشَّدائد أو تخفيفها، ورُتِّبَ عليه في الدُّنيا الحياةُ الطَّيِّبة، وتيسيرُ العبد لليسرى، وتجنيبُه للعسرى، وطمأنينةُ القلوب، وراحةُ النُّفوس، والقناعةُ التَّامَّة، وصلاحُ الأحوال، وصلاحُ الذُّرِّيَّة، إلى غير ذلك من الثِّمار والآثار العظيمة المترتِّبة على الإيمان، الدَّالَّة على عظيم فضله، وجلالة شأنه.

---

(١) ذلك أنَّ قراءة الفاتحة في الصَّلوات الخمس، مرَّة في كلِّ ركعة، وعدد الرَّكعات سبعة عشر ركعة.

(٢) الدَّاء والدَّواء لابن القيِّم (ص١٧٥-١٧٧).

٢

حديث جبريل

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ الله ذَاتَ يَوْمٍ؛ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلَامِ، فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ: «**الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ، قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، قَالَ: صَدَقْتَ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ، قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «**مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «**أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**».

قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «**يَا عُمَرُ! أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟**» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»[(١)].

هذا حديث عظيم، اشتُهِر عند أهل العلم بـ«حديث جبريل»؛ وذلك لأنَّ جبريلَ الرُّوحَ الأمين عَلَيْهِ السَّلَامُ أفضلُ الملائكة، وهو الملَك الَّذي ينزل بالوحي على النَّبيِّ ﷺ، جاء هذه المرَّة إلى النَّبيِّ ﷺ بصورة أعرابيٍّ؛ فجلس إلى النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذه الجلسة اللَّطيفة، وسأله هذه الأسئلة العظيمة؛ وهو في الحقيقة معلِّمٌ؛ لكنَّه في صورة سائل مُتعَلِّم.

ومن فوائد هذا: أنَّ السَّائل أحيانًا يستطيع أن يكون معلِّمًا للنَّاس؛ كأن يكون في مجلس عالمٍ ويجد أنَّ في الحاضرين مَن يحتاج أن تُبيَّن لهم بعضُ المسائل؛ فيطرحها وهو يعرف الجواب؛ قاصدًا أن يفيدهم؛ فيكون في الواقع سائلًا، وهو في الحقيقة معلِّمٌ يريد أن يعلِّم النَّاس، وله أجره على إحسانه وحرصه ونصحه.

ومن هذه السُّؤالات: سؤال عن الإيمان، **والإيمان في اللُّغة**: هو الإقرار؛ لأنَّه مشتقٌّ من الأمن؛ الَّذي هو ضدُّ الخوف[(٢)]؛ أمنُ القلبِ، وقرارُه، وسكونُه، وثقتُه.

وأمَّا شرعًا: فهو اعتقادٌ وقولٌ وعملٌ؛ **اعتقادٌ** جازمٌ بكُلِّ ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ باعتقاده من إيمانٍ به، وبملائكته، وكتبه، ورسله، وغير ذلك.

(١) أخرجه مسلم (٨).
(٢) انظر: «الصّحاح» للجوهريِّ (٥/ ٢٠٧١)، و«لسان العرب» لابن منظور (١٣/ ٢١).
قال الرَّاغب الأصفهانِيُّ في «مفرداته» (٩٠): «أصل الأمن: طمأنينة النَّفس، وزوال الخوف».

والقول هو: التَّلفُّظ بالشَّهادتين، ويكون هذا التَّلفُّظ مستنِدًا إلى اعتقاد القلب الجازم بما تلفَّظ به اللِّسان، ثمَّ **عمل الجوارح** في طاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فليس الإيمان ما كان في القلب فقط، وليس الإيمان ما كان في اللِّسان فقط، وليس الإيمان ما كان في الجوارح فقط؛ **بل الإيمان مشتمل على هذه الأمور كلِّها**؛ فهو اعتقادٌ بالقلب، وقولٌ باللِّسان، وعملٌ بالجوارح، كلُّ هذه؛ تعمل، وتخضع، وتستكين، وتستسلم، وتنقاد؛ لأوامر الله جَلَّوَعَلَا.

وهو يقوم على أصول عظيمة، جاء بيانها أتمَّ بيان في هذا الحديث؛ قال جبريل: «أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ؟ فقَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حُلْوِهِ وَمُرِّهِ**»(١).

فهذه ستَّة أصول يقوم عليها الإيمان بيَّنها النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وجمعها في هذا الحديث، فواجبٌ على كُلِّ مسلم أن يؤمن بها إيمانًا جازمًا لا يخالطه أدنى شكٍّ ولا ريب.

وهي أصولٌ متلازمةٌ مترابطةٌ لا ينفكُّ أحدها عن الآخر؛ الإيمان ببعضها يقتضي الإيمان بها جميعًا.

ولعِظَم مكانة هذه الأصول، ورفعة شأنها؛ جاء بيانها في القرآن الكريم في مواضع عديدة؛ **ففي سورة البقرة جاء ذكر هذه الأصول؛ في أوَّلها، وفي وسطها، وفي آخرها:**

---

(١) أخرجه بلفظ «حلوه ومرِّه»: ابن منده في «الإيمان» (٣/ ٧١)، واللَّالكائيُّ في «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة» (٣١٤).

ففي أوَّلها: يقول الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في أوصاف المُتَّقين: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٢-٥].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أبي العالية، وعن غيره من السَّلف في معناها، قال: «أي: الَّذِين يؤمنون بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والجنَّة والنَّار ولقاء الله، كلُّ ذلك من الإيمان بالغيب»[(١)].

وفي وسطها: يقول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي خاتمتها: يقول الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال الله تعالى في سورة النِّساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النِّساء: ١٣٦].

وممَّا يبيِّن عِظَم شأن هذه الأصول: أنَّ شرائعَ الأنبياء جميعِهِم مُتَّفقةٌ عليها، لا يختلِف فيها نبيٌّ عن نبيٍّ؛ بل كلُّهم متَّفقون عليها، يَدْعون إليها،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٥٧).

ويأمرون بها، ويخبرون بفضل مَن آمن بها، وعِظَم أجره، وجزيل ثوابه، بِدءًا من نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وخَتمًا بمحمَّد ﷺ، كلُّهم مُتَّفقون على هذه الأصول.

وأعظم هذه الأصول وأجلُّها: هو الإيمان بالله؛ فهو أصل الأصول، وباقي الأصول تبَعٌ له.

وهو الإيمان بوحدانيَّته سبحانه؛ في ربوبيَّته، وفي أسمائه وصفاته، وفي ألوهيَّته.

والإيمان بوحدانيَّة الله في ربوبيَّته: هو أن يُوَحَّد الله جَلَّ وَعَلَا في ربوبيَّته، بالاعتقاد الجازم أنَّ الله وحده هو الخالق، الرَّازق، المنعِم، المُتَصَرِّف، المُدَبِّر لشؤون خلقه كلِّها لا شريك له.

والإيمان بوحدانيَّة الله في أسمائه وصفاته: بالإقرار بأسمائه الحسنى وصفاته العلا الواردة في الكتاب والسُّنَّة؛ فإذا أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن نفسه باسم أو صفة فنؤمن به على مراده سبحانه؛ كما قال غير واحد من أهل العلم: «آمنت بالله، وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله ﷺ»(١)، وكما قال الإمام الزُّهريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مِنَ الله الرِّسالة، وعلى الرَّسول البلاغ، وعلينا التَّسليم»(٢).

والإيمان بوحدانيَّة الله في ألوهيَّته: هو إفراده وحده بجميع أنواع العبادة،

(١) أخرجه أبو زكريَّا السَّلمانِيُّ عن الإمام الشَّافعيِّ في «منازل الأئمَّة الأربعة» (١٤٦).
(٢) ذكره البخاريُّ في «الصَّحيح» مُعَلَّقًا قبل حديث (٧٥٣٠)، ووصله ابن حجر في «تغليق التَّعليق» (٥/ ٣٦٥).

فكما أنَّه لا خالق غيره؛ فلا معبود حقٌّ سواه؛ فيُفرَد وحدَه بالذُّلِّ، والخضوع، والانقياد، والطَّاعة، والتَّسليم.

والإيمان بالملائكة: هو الإقرار بكُلِّ ما جاء عنهم في كتاب الله وفي سُنَّة رسول الله ﷺ؛ من أسمائهم، وأعمالهم، وأوصافهم، وأعدادهم؛ **ما جاء من ذلك مجملًا**: نؤمن به على وجه الإجمال، **وما جاء مفصَّلًا**: نؤمن به على وجه التَّفصيل.

فالملائكة عددهم لا يعلمه إلَّا الله سبحانه: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر: ٣١]، وممَّا يبيِّن كثرة الملائكة، وعظم عددهم: ما جاء في حديث الإسراء لمَّا أسري بالنَّبيِّ ﷺ قال: «**رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ! مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ؛ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ**»[(١)]، وممَّا يُبَيِّن كثرتهم قول النَّبيِّ ﷺ: «**أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ؛ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ**»[(٢)].

وممَّا يُبَيِّن عظم خلقهم ما جاء عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قال: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ؛ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ**»[(٣)]، وقد رأى النَّبِيُّ ﷺ جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وقد سدَّ الأفق

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) واللَّفظ له.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، والتِّرمذيُّ (٢٣١٢)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٢٧)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

وله ستمِائة جناح(١).

قد اختارهم الله سبحانه، واصطفاهم لعبادته وتنفيذ أوامره، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

والإيمان بالأنبياء: هو الإقرار الجازم بأنَّ الله تعالى بعث في كلِّ أُمَّة رسولًا يدعوهم إلى عبادةِ الله وحده لا شريك له، والكفرِ بما يُعبَد من دونه، وأنَّ جميعَهم صادقون مصدَّقون، بارُّون، راشدون، كرامٌ، بررةٌ، أتقياءُ، أُمَناءُ، هُداةٌ، مهتدون، وبالبراهين الظَّاهرة والآيات الباهرة من ربِّهم مؤيَّدون، وأنَّهم بلَّغوا جميع ما أرسلهم الله به، لم يكتُموا منه حرفًا، ولم يغيِّروه، ولم يزيدوا فيه من عند أنفسهم حرفًا، ولم ينقصوه، فهل على الرُّسل إلَّا البلاغ المبين؟

وأنَّهم كلَّهم كانوا على الحقِّ المبين، والهدى المستبين، وأنَّ الله تعالى اتَّخذ إبراهيم خليلًا، واتَّخذ محمَّدًا ﷺ خليلًا، وكلَّم موسى تكليمًا، ورفع إدريس مكانًا عليًّا، وأنَّ عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، وأنَّ الله تعالى فضَّل بعضهم على بعض، ورفع بعضهم على بعض درجات.

وقد اتَّفقت دعوتهم من أوَّلهم إلى آخرهم في أصل الدِّين، وأمَّا فروع الشَّرائع من الفرائض والحلال والحرام فقد تختلف؛ فيفرض على هؤلاء ما لا يفرض على هؤلاء؛ لحكمة بالغة.

والإيمان بالكتب: هو الإقرار بكتب الله المُنَزَّلة على رسله الكرام، المُطَهَّرة

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٢٣٢)، ومسلم (٣٨٠).

من الكذب والزُّور ومن كُلِّ باطل، ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشُّورى: ١٥]، أي: بكلِّ كتابٍ أنزله الله على أيِّ رسول، **فنقول كما أمرنا ربُّنا** عَزَّوَجَلَّ: آمنَّا بما أنزل الله من كتاب، وما أرسل من رسول، ونعتقد أنَّ ما فيها من الشَّرائع كلَّه حقٌّ، وأنَّه كان واجبًا على الأمم الَّذين نزلت عليهم تلك الكتب الانقيادُ لها، والحكمُ بما فيها، وأنَّ جميعَها يُصدِّق بعضها بعضًا؛ كما قال تعالى في الإنجيل: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٦]، وقال في القرآن: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائد: ٤٨].

والإيمان باليوم الآخر: هو الإيمان بكُلِّ ما أخبر الله به ممَّا يكون بعد الموت؛ من حين دخول القبر، أوَّل منازل الآخرة، إلى افتراق النَّاس إلى فريقين؛ فريق في الجنَّة، وفريق في السَّعير؛ فنؤمن بفتنة القبر، وعذابه، ونعيمه، ونزول الملكين في القبر، وسؤال مَن في القبر عن ربِّه، ودينه، ونبيِّه ﷺ، ثمَّ النَّفخ في الصُّور، والبعث والنُّشور، وحشر النَّاس، ومجيء الله للقضاء بين العباد، والميزان، ودواوين الأعمال، وتتطاير الصُّحف، والصِّراط الَّذي يُنصب على متن جهنَّم، وجهنَّم وما فيها من عذاب متنوِّع، والجنَّة وما فيها من نعيم مقيم.

والإيمان بالقدر: هو الإيمان بأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قدَّر مقادير الخلائق، وعَلِم سبحانه ما هو كائن في الأزل، وكتب ذلك في اللَّوح المحفوظ، ولا يقع شيء إلَّا بمشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو الخالق لكُلِّ شيء.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ

ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحجُّ: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢-٥٣].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

٣
حديث وفد عبد القيس (١)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ لَمَّا أَتَوُا النَّبِيَّ قَالَ: «**مَنِ الْقَوْمُ -أَوْ- مَنِ الْوَفْدُ؟**» قَالُوا: رَبِيعَةُ، قَالَ: «**مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ -أَوْ- بِالْوَفْدِ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى**»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلَّا فِي شَهْرِ الْحَرَامِ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا وَنَدْخُلْ بِهِ الْجَنَّةَ، وَسَأَلُوهُ عَنِ الأَشْرِبَةِ؛ فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ؛ أَمَرَهُمْ بِالإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ، قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ**»، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ؛ عَنِ «**الْحَنْتَمِ، وَالدُّبَّاءِ، وَالنَّقِيرِ، وَالْمُزَفَّتِ**»، وَرُبَّمَا قَالَ: «**الْمُقَيَّرِ**»، وَقَالَ: «**احْفَظُوهُنَّ، وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ**»[(١)].

الإيمان حقيقة شرعيَّة لا سبيل إلى العلم بها إلَّا من خلال كتاب الله، وسُنَّة نبيِّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كما هو شأن جميع الحقائق الشَّرعيَّة، لا يجوز للمرء أن يُفسِّر الإيمان بمُجَرَّد دلالة اللُّغة؛ مثل الصَّلاة لا يجوز أن تُفَسَّر بمُجَرَّد دلالة

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٣) واللَّفظ له، ومسلم (١٧).

اللُّغة بمعنى الدُّعاء؛ **فالحقائق الشَّرعيَّة**: تُفسَّر بالدَّلائل من كتاب الله، وسُنَّة نبيِّه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشُّورى:٥٢]، وقال: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ أي: تفاصيلُ الإيمان، وحقائقُ الإيمان، وأمورُ الإيمان؛ لا سبيل إلى العلم بها إلَّا من خلال الوحي؛ كتاب الله، وسُنَّة نبيِّه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وفي قِصَّة وفد عبد القيس الَّتِي في «الصَّحيحين» لمَّا قال لهم النَّبِيُّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ؟**» مع أنَّهم عربٌ يعرفون معنى الإيمان، ودلالته اللُّغويَّة، قالوا: «اللهُ ورسولُه أعلَم»؛ لأنَّ القوم يدركون أنَّ الإيمان وحيُ الله وتنزيلُه، فلا سبيل إلى العلم به من خلال رأيٍ، أو عقلٍ، أو ذوقٍ، أو درايةٍ باللُّغة، أو نحو ذلك، بل لا سبيل إلى العلم به إلَّا بالوحي؛ قالوا: «اللهُ ورسولُه أعلَم»، وكانوا أهل لسانٍ عربيٍّ، يعرفون معنى الإيمان من حيث اللُّغة، ولا ينقصهم ذكاء؛ لكنَّ الله حماهم، ووقاهم، وهداهم، وبصَّرهم، ووفَّقهم لِلُزُوم الوحي، والتَّقيُّد بما جاء به؛ فقالوا: «اللهُ ورسولُه أعلَم».

ففسَّر لهم النَّبِيُّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الإيمان بالله، وشرَحَه في الحديث؛ بأن ذَكَرَ لهم أعمال الدِّين الظَّاهرة؛ كما أنَّه في حديث جبريل فسَّر الإيمان بعقائد الدِّين الباطنة: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ...**» إلخ؛ فالإيمان، ومعرفته، وعقائده، وتفاصيلها هذه؛ لا سبيل إلى العلم بها إلَّا بوحيٍ نازلٍ من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ربِّ

العالمين؛ فالدِّين لله، قال الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩]، والآيات عديدة.

ولهذا كان أهل السُّنَّة والجماعة في هذا الباب وفي عموم أبواب الدِّين ملازمين لكتاب الله، وسُنَّة رسوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، معتصمين بالوحي النَّازل من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فكان ذلك سببُ نجاتِهم، وفلاحِهم، وسعادتِهم في الدُّنيا والآخرة، ومَن كان مستمسكًا بالوحي؛ لن يَضِلَّ ولن يزيغ؛ كما قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَمْ تَضِلُّوا: كِتَابَ اللهِ وسنتي**»(١).

وهذا الوفد وفد عبد القيس، وفدٌ مبارَكٌ، من خير وفود الإسلام، ومن أوائل وفود الإسلام.

ويَظهَر في هذا الحديث: عِظمُ رغبتهم، وشدَّةُ حرصهم، وعظيمُ اهتمامِهم ومكابدتِهم الشَّديدة في سبيل العلم والتَّعلُّم، ويظهرُ أدبُهم في السُّؤال، وصلاحُ نيَّتهم، وتمامُ حرصِهم على الخير، إلى غير ذلك من المعاني الجليلة الَّتِي تظهر للمتأمِّل في هذا الحديث العظيم.

وهو حديثٌ كثيرةٌ فوائده، مشتملٌ على معانٍ عظيمةٍ، ودِلالاتٍ مباركةٍ، وهداياتٍ مُتَنَوِّعةٍ ينبغي تأمُّلها، كما ينبغي أن تكون عودةً صادقةً لكلام الله عَزَّوَجَلَّ، وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه لِأَخذِ الإيمان، وفَهمِ الدِّين،

(١) أخرجه مالك (١٧١٨)، والبيهقيُّ في «السُّنن الكبرى» (٢٠٣٦٢).

ولتحقُّق الهداية؛ إذ لا هداية إلَّا بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وسُنَّة رسوله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ولنتأمَّل في هذا السُّؤال الكبير الَّذِي هو في الحقيقة أكبر سؤال: «مُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا وَنَدْخُلْ بِهِ الجَنَّةَ»؛ فما أجلَّه من سؤال، وما أعظمَه من مقصد، وما أجلَّه من مطلب، أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ، وأخبروه عن حالهم، وعن مكابدتهم، وعن عظيم رغبتهم، وكانوا صفوةً من قومهم أوفدوهم إلى النَّبِيِّ ﷺ، وكان الغرض من تلك المكابدة والمشقَّة هو هذا السُّؤال.

وقد اشتمل هذا الحديث على فوائدَ عظيمة، وهداياتٍ مباركة؛ وفيما يلي إشارة إلى بعضها:

فمن فوائد هذا الحديث: استحباب سؤال الزَّائر والوافد عن حاله وبلده حتَّى يُعرف مَن هو، وما مكانتُه، وما منزلتُه؛ لكي يُنزَل كلُّ إنسانٍ منزلتَه اللَّائقة به؛ فالنَّبِيُّ ﷺ قال لهم: «**مَنِ القَوْمُ؟ -أَوْ- مَنِ الوَفْدُ؟**»، وهو سؤال ينبني عليه ما ينبني؛ من معرفةٍ بالوافد، ومعرفةٍ بمكانته، حتَّى يُتَمَكَّن من إنزاله منزلتَه.

ومن فوائد هذا الحديث: التَّعبير عن البعض بالكُلِّ؛ لمَّا قال لهم النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنِ القَوْمُ؟ -أَوْ- مَنِ الوَفْدُ؟**» قَالُوا: «رَبِيعَةُ»، وهم ليسو كُلَّ ربيعة؛ بل هم بعض رجال ربيعة.

ومن فوائد هذا الحديث: استحباب تأنيس القادم؛ ليأنس ويرتاح، وليزول عنه الاستيحاش؛ وذلك بالتَّرحيب به، والدُّعاء له، وحسن ملاقاته، ونحو

ذلك من المعاني؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ آنسهم، ولاطفهم، وحيَّاهم، ورحَّب بهم، ودعا لهم، صلوات الله وسلامه عليه.

ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ مَن سلك طريق الحقِّ والهدى؛ فإنَّه لا يصيبُه خِزيٌ، ولا ندامةٌ؛ وذلك أنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بعد أن رحَّب بهم قَالَ: «**غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى**»، و«**غَيْرَ**» كما ذكر أهل العلم: منصوبة على الحال؛ أي: مرحبًا بالقوم، والحال: أنَّكم غير خزايا ولا ندامى؛ وذلك أنَّ هؤلاء القوم جاءوا يَنشُدون الخير، ويطلبون الحقَّ والهدى، ويريدون القول الفصل البيِّن الجامع؛ فطابت نيَّتهم، وصَلُح مقصدهم، وعظُمَت همَّتهم، وقويت رغبتهم في الخير، وساروا في دربه وسبيله؛ فكانوا بهذا الشَّأن كما أخبر عنهم نبيُّنا صلوات الله وسلامه عليه بقوله: «**غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى**»؛ **فيستفاد من ذلك**: أنَّ مَن سلك جادَّة الحقِّ، وسبيل الهدى، وأخذ بنفسه في طريق العلم وطلبه وتحصيله، وفي سبيل العبادة والطَّاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإنَّه لا يَخزَى ولا يَندَم؛ بل يكون مآلُه الفلاح والعاقبة الحميدة في الدُّنيا والآخرة.

ومن فوائد هذا الحديث: جواز الثَّناء على الإنسان في وجهه إذا أُمِن عليه من الفتنة، أمَّا إذا خُشي عليه منها فإنَّه لا يُمدَح، وفي الحديث: «**الْمَدْحُ ذَبْحٌ**»[(١)]، لكن إذا أُمن على الشَّخص الفتنة، وكان مدحُه والثَّناءُ عليه فيه اعتدال، وليس فيه مغالاةٌ ومجاوزةٌ للحدِّ؛ فلا بأس بذلك؛ ولهذا قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

(١) أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٣٣٦) عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ موقوفًا، وصحَّحه الألبانِيُّ.

لهؤلاء: «**غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى**»، وهذا وصفٌ لحالهم، وهو متضمِّنٌ الثَّناء العاطر عليهم.

ومن فوائد هذا الحديث: تقدُّم إسلام هذا الوفد المبارَك، وهو من خير وفود الإسلام وأوائلهم.

ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ أمْرَ الهداية بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يهدي جَلَّ وَعَلَا مَن يشاء، ويضلُّ مَن يشاء، الأمر بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وتأمَّل قول هذا الوفد للنَّبِيِّ صلوات الله وسلامه عليه: «إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ»، معنى ذلك: أنَّ مُضَرَ من حيث المكان أقربُ إلى بلد الهداية وبلد الإسلام، وهؤلاء أبعد، جاؤوا من شُقَّة بعيدة، واختاروا لأنفسهم وقتًا للمجيء الشَّهرَ الحرام؛ الَّذي يعظِّمه الكُفَّار فلا يقاتلون أحدًا فيه؛ فكان هذا الحيُّ بينهم وبين النَّبِيِّ ﷺ؛ أي: في طريقهم إلى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومعنى ذلك: أنَّ كُفَّارَ مُضَر أقربُ مسكنًا، وأقربُ مكانًا إلى منبع الإسلام ومَأرِزِ الإيمان، والهداية نزلت إلى بلدٍ أبعد منهم!!

وعِلْم المرء بهذا المعنى، وتحقُّق إيمانه به؛ يقوِّي إيمانه بالله، وتوكُّلَه على الله، وحسن التجائه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في تحصيله الهداية والثَّبات عليها؛ فلا يغترُّ الإنسان بنفسه إن كان مثلًا في بلد إيمان، وأيضًا لا يقنط من الهداية إن كان بعيدًا عن بلد الإيمان؛ ولهذا قد تَعجَبُ حيث ترى أشخاصًا نشأوا في بلاد كفرٍ وضلالٍ، تنزل على قلوبهم هدايةُ الله سبحانه، ويشرح صدورهم للإسلام،

ورُبَّمَا أصبح بعضُهم في قوَّة إسلامه وإيمانه وحرصه على دينه أقوى من كثيرٍ ممَّن نشأوا في بلاد الإسلام؛ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزُّمر: ٢٢]؛ فالأمر لله، وبيده سبحانه.

ومن فوائد هذا الحديث: أهمِّيَّة صلاح النِّيَّة في السُّؤال؛ وهذا أمرٌ مهمٌّ للغاية؛ **لأنَّ النَّاس في سؤالاتهم الَّتِي يطرحونها تتفاوت نيَّاتهم ومقاصدهم**؛ فمنهم مَن يسأل بنيَّةٍ صالحة، وقصدٍ طيِّب، يريد أن يتعلَّم دينَه وأن يتفقَّه، ويرفعَ الجهل عن نفسه وعن غيره، يريد صلاحًا وهدايةً، يريد دخول الجنَّة، والنَّجاة من النَّار، والفوز برضا الله سبحانه، **ومن النَّاس** مَن يستغلُّ المجالس العلميَّة لطرح بعض الأسئلة الَّتِي يشوِّش بها على الآخرين، أو يثير بها الشُّبهات، أو يلفِت فيها أنظار النَّاس إليه و«**مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ العُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ**»(١).

وانظر هذا الصَّلاح العظيم في نيَّاتهم في قولهم: «مُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ» ما الغرض من ذلك؟ وما المقصد؟ قالوا: «نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلْ بِهِ الجَنَّةَ»؛ أي: ننتفع نحن به، ونعمل به، نواظب عليه، وندخل به الجنَّة، وأيضًا نخبر الآخرين به، وندعوهم إليه ليدخلوا الجنَّة.

ولهذا ينبغي أن يكون هذا هو غرض الإنسان في التعلُّم؛ يتعلَّم ليدخل الجنَّة، «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا؛ سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**»(٢).

ومن فوائد هذا الحديث: إبداء العذر عند العجز عن توفية الحقِّ؛ سواء

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٦٥٤)، وحسَّنه الألبانِيُّ. (٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

كان هذا الحقُّ مستحبًّا أو واجبًا، وانظر هذا الأدب الجميل في هذا الوفد المبارك لمَّا أتوا النَّبِيَّ ﷺ؛ أوَّل ما بدؤوا به قبل السُّؤال تقديم العذر؛ قالوا: «إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ».

ومن فوائد هذا الحديث: البدء بالسُّؤال عن الأهمِّ ثمِّ المهمِّ؛ وهذا من آداب العلم والتَّعلُّم والسُّؤال؛ أن يبدأ بالأهمِّ ثمَّ المهمِّ، وهذا ظاهر في خبر هذا الوفد؛ بدؤوا بالأهمِّ، قالوا: «فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلْ بِهِ الجَنَّةَ، وَسَأَلُوهُ عَنِ الأَشْرِبَةِ»، فبدؤوا أوَّلًا بالسُّؤال عن أمرٍ فَصلٍ يخبرون به مَن وراءهم، ويدخلون به الجنَّة، ثمَّ انتقلوا إلى سؤالٍ أقلَّ أهمِّيَّة منه؛ وهو السُّؤال عن الأشربة.

٤
حديث وفد عبد القيس (٢)

عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ لَمَّا أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنِ الْقَوْمُ** -أَوْ- **مَنِ الْوَفْدُ؟**» قَالُوا: رَبِيعَةُ، قَالَ: «**مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ** -أَوْ- **بِالْوَفْدِ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى**»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلَّا فِي شَهْرِ الْحَرَامِ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا وَنَدْخُلْ بِهِ الْجَنَّةَ، وَسَأَلُوهُ عَنِ الأَشْرِبَةِ، فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ؛ أَمَرَهُمْ بِالإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ، قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ**»، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ؛ عَنِ «**الْحَنْتَمِ، وَالدُّبَّاءِ، وَالنَّقِيرِ، وَالْمُزَفَّتِ**»، وَرُبَّمَا قَالَ: «**الْمُقَيَّرِ**»، وَقَالَ: «**احْفَظُوهُنَّ، وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ**». رواه البخاريُّ ومسلم[(١)].

لا نزال مع الفوائد المستفادة من هذا الحديث العظيم:

فمن فوائد هذا الحديث: أهمِّيَّةُ الدعوة إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وعِظَمُ شأنها،

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٣) واللَّفظ له، ومسلم (١٧).

وشدَّةُ الحاجة إليها؛ لأنَّها سبيلٌ لانتشار دين الله سبحانه؛ فهذا الوفد جاءوا يحملون هذه الهمَّة؛ همَّة الدَّعوة والنُّصح والبيان؛ وواضحٌ هذا في مُرادِهم بمَقدمِهم ومَجيئِهم إلى رسول الله ﷺ؛ ولهذا قالوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا»؛ ولهذا: فإنَّ المسلم عليه أن يتعلَّم العلم الشَّرعيَّ، ويتفقَّه في دين الله سبحانه بنيَّة إصلاح نفسه وهدايتها، وأيضًا بنيَّة إيصال الخير للآخرين وتعدِيَتِه للنَّاس؛ قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]، فوصفهم بأنَّهم صلحوا في أنفسهم بالإيمان والعمل الصَّالح، ثمَّ عمِلوا على إيصال هذا الصَّلاح إلى الآخرين، ونَشرِه بين النَّاس، ودعوة النَّاس إليه؛ وينبغي أن تكون الدَّعوة همًّا للعبد؛ فيتعلَّم لينتفع هو، ويتعلَّم لينفع الآخرين؛ قال تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧].

ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ الأعمال الصَّالحة تُدخِل العبد الجنَّة إن تقبَّلها الله سبحانه؛ قالوا: «مُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ» أي: دُلَّنا على عمل يدخلنا الجنَّة؛ كما جاء في بعض الأحاديث: «دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ»(١)؛ أي: دُلَّنا على أعمال، وطاعات، وعبادات، نقوم بها، نحافظ عليها، وندخل بها الجنَّة.

فهذا يدلُّ على أنَّ الأعمال الصَّالحة يَدخُل بها المرء الجنَّة إذا تقبَّلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد كان نبيُّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول كلَّ يوم إذا أصبح بعد أن يسلِّم من صلاة الفجر كما في حديث أمِّ سلمة في «السُّنن»: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا**

(١) أخرجه البخاريُّ (١٣٩٧)، ومسلم (١٤).

نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا صَالِحًا»(١) وفي رواية: «**وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا**»(٢).

والعمل الصَّالح المتقبَّل: هو الَّذِي قام على الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرَّسول، اجتمع فيه هذان الشَّرطان، وبهما يكون قبول الأعمال، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يقبل العمل إلَّا إذا كان خالصًا لوجهه، موافقًا لهدي نبيِّه ﷺ، **فإذا افتُقد الإخلاص**: رُدَّ ولم يُقبَل، قال الله تعالى في الحديث القدسيِّ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي؛ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(٣)، وإذا افتقدت المتابعة للرَّسول ﷺ: رُدَّ ولم يُقبل؛ قال ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٤)، ومعنى «**فَهُوَ رَدٌّ**» أي: مردود على صاحبه، غير مقبول منه.

ومن فوائد هذا الحديث: أهمِّيَّة الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وذلك أنَّ هذا الوفد لمَّا طلبوا من النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يأمرهم بأمرٍ فَصلٍ يدخلون به الجنَّة، ويخبرون به مَن وراءهم؛ قال: «**آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ**»؛ فهذا هو القول الفصل الجامع.

والإيمان بالله هو أصل أصول الإيمان وأعظم أسس الدِّين، وجميع أصول الإيمان تبع له، فعليه قيام دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولا يُقْبَل أيُّ عملٍ من الأعمال، ولا أيُّ طاعةٍ من الطَّاعات؛ إلَّا إذا أقيم على هذا الأصل؛ قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾

(١) أخرجه الطَّبرانِيُّ في «الدُّعاء» (٦٧١).
(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٦٥٢١)، وابن ماجه (٩٢٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٣) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).
(٤) أخرجه مسلم (١٧١٨).

[الإسراء: ١٩]، وفي القرآن آيات عديدة في هذا المعنى؛ كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النَّحل: ٩٧]، وقال الله سبحانه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التَّوبة: ٥٤].

فالإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو أصل أصول الإيمان وأعظم أسس الدِّين، ولا قبول لأيِّ عملٍ ولا عبادةٍ إلَّا به، وهو إيمانٌ بوحدانيَّة الله، وتفرُّده سبحانه؛ ولهذا قال في الحديث: «**آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ**»؛ فهو إيمانٌ بوحدانيَّة الله تعالى؛ وحدانيَّتُه في ربوبيَّته، ووحدانيَّتُه في أسمائه وصفاته، ووحدانيَّتُه في ألوهيَّته؛ بأنَّه هو المعبود بحقٍّ، ولا معبودَ بحقٍّ سواه.

ومن فوائد هذا الحديث: أهمِّيَّة التَّشويق؛ وهو أسلوبٌ نافعٌ في التَّعليم، ويأتي كثيرًا في أحاديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وانظر ذلك في قوله لهؤلاء: «**آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ؛ أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ؟**»؛ فما أجملَ هذا التَّشويقَ، وما أعظمَ أثرَه في جَعلِ القلوب تتشوَّفُ، وتُقبِلُ، وتستعدُّ، وتتهيَّأُ؛ لأنَّه يُحرِّك الرَّغبة في القلوب، ويحقِّق حُسن الانتفاع والاستفادة.

ومن فوائد هذا الحديث العظيمة: أنَّه لا سبيل إلى معرفة الإيمان إلَّا من خلال الوحي؛ كلام الله، وكلامِ رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فلا يمكن للمرء أن يعرف الإيمانَ وحقيقتَه بمعرفته مثلًا للُّغة العربيَّة ولو كان بحرًا في اللُّغة، ولا يمكن أن يعرف الإيمان من خلال رأيه وفكره وعقله، ولا يمكن أن يعرف

الإيمان من خلال ذوقه ووَجْدِه؛ بل **معرفة الإيمان لا سبيل إليها إلَّا من خلال كلام الله، وكلام رسوله** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وانظر ذلك في جواب هذا الوفد لمَّا قال لهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ؟**» قَالُوا: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»، وهم أهل لسانٍ عربيٍّ فصحاء، وأهل لغةٍ يَعرِفون معاني الألفاظ، ودلالاتها، يعرفون معنى كلمة إيمان، ويعرفون مدلولها اللُّغويَّ، فما أجابوا بما يعرفونه من مدلول الإيمان لغة؛ بل قالوا: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»؛ لأنَّ القوم يدركون أنَّ الإيمان حقيقةٌ عظيمةٌ لا سبيل إلى تحصيلها، ولا طريق إلى فَهمِها ومعرفتِها إلَّا من خلال وحي الله، قالوا: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»، والرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو المبلِّغ عن الله، ما ينطق عن الهوى ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ**﴾ [النَّجم: ٣-٤]، ﴿**وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ**﴾ [النُّور: ٥٤].

فهذه فائدةٌ عظيمةٌ، وفيها ردٌّ على الَّذِين خاضوا في بيان الإيمان بالعقول المجرَّدة، أو بالفهم للُّغة، أو نحو ذلك، ولم يلتفتوا إلى مَورِد الإيمان، ومنبعِه؛ كلامِ الله، وكلامِ رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فجاءوا بأمور مصادمة للإيمان في حقيقته ومدلوله؛ ولهذا نشأت فِرَقٌ كثيرةٌ خاضت في الإيمان والكلام على حقيقته، فجانبت الحقَّ والصَّواب؛ لِكَونها لم تعوِّل على منبع الإيمان ومَورِدِه؛ الَّذِي هو كلام الله، وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وقد قال الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في أواخر سورة الشُّورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ

تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشُّورى: ٥٢-٥٣]؛ فالإيمان حقيقةٌ عظيمةٌ لا يمكن أن تُعرَف وأن يُهتدى إلى حقيقتها ومعناها إلَّا من خلال كلام الله وكلام رسوله ﷺ، نظير الصَّلاة والصِّيام والحجِّ، وغير ذلك من الطَّاعات؛ فلو أنَّ شخصًا مُتَضَلِّعًا في اللُّغة لا يمكنه أن يَعرِف الصَّلاة الشَّرعيَّة بمُجَرَّد معرفته باللُّغة؟ أو أن يعرف الزَّكاة الشَّرعيَّة؟ أو أن يعرف الصِّيام الشَّرعيَّ؟ كُلُّ هذه أمور وحقائق لا يمكن أن تُعرَف إلَّا من الوحي؛ ولهذا **فإنَّ السَّلف** رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ **جادَّتهم وطريقتُهم في الدِّين: قال الله، قال رسوله**؛ ترى الواحد منهم يقول: نعتقد كذا لقول الله كذا، ونؤمن بكذا لقول رسول الله ﷺ كذا، بخلاف مَن سواهم من أهل البدع الَّذِين جعلوا لأنفسهم مصادر للتَّلقِّي غير الكتاب والسُّنَّة، فضلُّوا عن الجادَّة السَّويَّة، ومَن لم يعتصم بكلام الله وكلام رسوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ضلَّ عن سواء السَّبيل، يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان شيخ الإسلام ابن تيميَّة كثيرًا ما يقول: مَن فارَق الدَّليل ضلَّ السَّبيل، ولا دليل إلَّا بما جاء به الرَّسول صلوات الله وسلامه وبركاته عليه»(١).

ومن فوائد هذا الحديث: اقتران الشَّهادتين: «**شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**»؛ **وشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**: هي شهادةٌ لله بالوحدانيَّة، **وَشَهَادَةُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**: شهادةٌ له ﷺ بالرِّسالة، ولكلٍّ منهما مقتضى؛ **فشهادة أن لا إله إلَّا الله**: تقتضي أن يُخلِصَ هذا الشَّاهد في هذه الكلمة العظيمة التَّوحيدَ لله، وأن يُفرِدَه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالعبادة؛ ولهذا: لو قالها دون أن يحقِّق ما دلَّت عليه

(١) مفتاح دار السَّعادة لابن القيِّم (١/ ٢٢٩).

من التَّوحيد؛ لا يكون بمجرَّد قولها من أهلها، **وكذلك الشَّهادة للنَّبِيِّ ﷺ بالرِّسالة**، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [النِّساء: ٦٤]، **فشهادة أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**: هي طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، والانتهاء عمَّا نهى عنه وزجر، والشَّهادتان هما رأس الأمر، فالدِّين قائم على الشَّهادتين: «شَهَادَة أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» الَّتِي تعني إخلاص الدِّين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإفراده جَلَّ وَعَلَا بالعبادة، و«شَهَادَة أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ» الَّتِي تعني تجريد المتابعة للرَّسول الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ومن فوائد هذا الحديث: دخول العمل في مسمَّى الإيمان، وأنَّ الإيمان ليس مجرَّد اعتقادٍ أو تصديقٍ في القلب فقط؛ بل الإيمانُ كما قال السَّلف رحمهم الله تعالى: قول واعتقاد وعمل، **الإيمان يتكوَّن من هذه الأركان: اعتقاد في القلب، وقول باللِّسان، وعمل بالجوارح**؛ فالأعمال داخلةٌ في مسمَّى الإيمان؛ فالصَّلاة إيمانٌ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمۡ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ أي: صلاتكم، والصِّيام إيمانٌ، وإيتاء الزَّكاة إيمانٌ، وجميع الطَّاعات الَّتِي أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها إيمانٌ؛ فقد فسَّر النَّبِيُّ ﷺ الإيمان في هذا الحديث بالأعمال.

ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ من سُئل عمَّا لا يعلم: عليه أن يكِلَ العلم إلى عالِمه؛ ولهذا لمَّا قال لهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟**» قَالُوا: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»، فوَكَلوا العلم إلى عالمه؛ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإلى رسوله المبلِّغ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان بين أيديهم، ويسألونه، ويتعلَّمون منه.

ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ من حُسنِ التَّعليم: الإجمالُ في العدد قبل التَّفصيل والبيان؛ ولهذا قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**آمَرَكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنَهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ**»، **وهذا الإجمال بذكر العدد يجمع فوائدَ عظيمة؛ أهمُّها فائدتان**:

الأولى: التَّشوُّف للعلم، والتَّشويق له.

والثَّانية: أنَّ ذلك أمكَنُ في الحفظ والضَّبط؛ إذا قيل لك أربعٌ كذا، أو ستٌّ كذا، وعرَفتَ أنَّها ستٌّ، لو عددْتَها فيما بعدُ، وفاتَكَ واحدٌ منها: تذْكُر أنَّه بقي واحد.

قال: «**آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنَهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ**»، **الأربع الَّتِي أمرهم**: الشَّهادتان، والصَّلاة، والزَّكاة، والصِّيام، ولم يذكر في هذا الحديث الحجَّ؛ لأنَّه لم يُفرَض وقتَ مجيء هذا الوفد.

وإعطاءُ الخُمُسِ من المغنم: على الصَّحيح ليس من الأربع؛ ولكنَّه نبَّههم عليه؛ لحاجتهم إلى بيان هذا الأمر لهم؛ ولهذا ذكره بهذه الصِّيغة: «**وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ المَغْنَمِ الخُمُسَ**».

ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ مَن حضر مجالس العلم: عليه أن يحرص على حفظ الفوائد وتثبيتها، ثمَّ إيصالها للآخرين؛ من زوجٍ، وأهلٍ، وجارٍ، وقريبٍ؛ حتَّى يكون بإذن الله سبحانه هاديًا مهديًّا؛ قال لهم: «**احْفَظُوهُنَّ، وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ**».

٥
حديث: «إنَّما الأعمال بالنِّيَّات»

عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»(١).

هذا حديثٌ عظيم الشَّأن، جليل القَدْر؛ يبيِّن مكانة النِّيَّة من الإيمان، ومنزلتها العليَّة في دين الله عَزَّ وَجَلَّ.

عن الحسن البصريِّ قال: «لا يصحُّ القول إلَّا بعمل، ولا يصحُّ قولٌ وعملٌ إلَّا بنيَّة، ولا يصح قولٌ وعملٌ ونيَّةٌ إلَّا بالسُّنَّة»(٢).

وعن سعيد بن جبير قال: «لا يُقبَل قولٌ إلَّا بعمل، ولا يُقبَل عملٌ إلَّا بقول، ولا يُقبَل قولٌ وعملٌ إلَّا بنيَّة، ولا يُقبَل قولٌ وعملٌ ونيَّةٌ إلَّا بنيَّةٍ موافقةٍ للسُّنَّة»(٣).

وعن سفيان الثَّوري قال: «الإيمان قولٌ وعملٌ ونيَّةٌ، يزيد وينقص؛ يزيد

(١) أخرجه البخاريُّ (١)، ومسلم (١٩٠٧).
(٢) أخرجه اللالَكائيُّ في «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة» (١٨).
(٣) أخرجه اللالَكائيُّ في «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة» (٢٠).

بالطَّاعة، وينقص بالمعصية، ولا يجوز القول إلَّا بالعمل، ولا يجوز القول والعمل إلَّا بالنِّيَّة، ولا يجوز القول والعمل والنِّيَّة إلَّا بموافقة السُّنَّة»(١).

وعن الإمام أحمد قال: «الإيمان قولٌ، وعملٌ، ونيَّةٌ صادقةٌ»(٢).

وسئل سهل بن عبد الله التُّستَريُّ عن الإيمان ما هو؟ فقال: «هو قولٌ ونيَّةٌ وعملٌ وسنَّةٌ؛ لأنَّ الإيمانَ إذا كان قولًا بلا عملٍ فهو كفرٌ، وإذا كان قولًا وعملًا بلا نيَّةٍ فهو نفاقٌ، وإذا كان قولًا وعملًا ونيةً بلا سنَّةٍ فهو بدعةٌ»(٣).

قال ابن بطَّة العكبريُّ: «وحَسبُكَ من ذلك: ما أخبرك عنه مولاك الكريم بقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البيِّنة: ٥]؛ فإنَّ هذه الآية جمعت القول والعمل والنِّيَّة؛ فإنَّ عبادة الله لا تكون إلَّا من بعد الإقرار به، وإقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة لا يكون إلَّا بالعمل، والإخلاص لا يكون إلَّا بعزم القلب، والنِّيَّة»(٤).

وقد روى البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **حديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» في مواضع عديدة من الصَّحيح بإسناده** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **إلى علقمة بن وقَّاص اللَّيثيِّ:**

ففي الموضع الأوَّل منها: قال علقمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سمعت عمر بن الخطَّاب

---

(١) أخرجه اللالَكائيُّ في «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة» (٣١٤).

(٢) رواه ابن هانئ في «مسائل الإمام أحمد» (١٨٩٤) بلفظ: «وسمعته يقول -أي: الإمام-: أدركنا النَّاس وهم يقولون: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ونيَّة صادقة».
وانظر «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة» (١٧٩٨).

(٣) «الإبانة» لابن بطَّة (٢/ ٨١٣). (٤) «الإبانة» لابن بطَّة (٢/ ٨١٣).

يقول على المنبر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ...**»، وذكر الحديث(١).

وفي موضع آخر: قال علقمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سمعت عمر بن الخطَّاب يخطب قال: سمعت النَّبِيَّ ﷺ يقول: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ...**»، وذكر الحديث(٢).

فهاتان الرِّوايتان تفيدان أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قد ذكر هذا الحديث في خطبته العامَّة على منبره ﷺ تذكيرًا بمقام النِّيَّة العظيم وقيام دين الله عليها. وتأسَّى به في ذلك الخليفة الرَّاشد: عمر بن الخطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فخطب به على المنبر مذكِّراً بمقام النِّيَّة ومنزلتها العليَّة؛ ولا يزال دعاة الخير وأئمَّة الصَّلاح والنَّاصحون لعباد الله يذكِّرون في كُلِّ مقام على المنبر، وغيره بأهمِّيَّة النِّيَّة، ومكانتها العظيمة.

وقد صدَّر البخاريُّ كتابه الصَّحيح بهذا الحديث، وأقامه مقام الخطبة له؛ إشارة منه إلى أنَّ كلَّ عمل لا يراد به وجهُ الله فهو باطلٌ لا ثمرة له في الدُّنيا ولا في الآخرة، ونحسب أنَّ البخاريَّ قد أخلص النِّيَّة في تأليفه هذا المصنَّف العظيم؛ فعظُمت بركته، فلمَّا أخلص رَحِمَهُ ٱللَّهُ النِّيَّة، وصفَّى الطَّويَّة؛ نفع الله بكتابه البريَّة.

وهكذا صنع عدد من أهل العلم مثل صنيعه؛ صدَّروا مُصَنَّفاتهم بهذا الحديث؛ فقد صدَّر به البغويُّ كتابيه «مصابيح السُّنَّة»، و«شرح السُّنَّة»، وكذا النَّوويُّ في كتابه «الأربعين»، وعبد الغني المقدسيُّ في كتابه «عمدة الأحكام»،

(١) أخرجه البخاريُّ (١).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٩٥٣).

والسُّيوطيُّ في كتابه «الجامع الصَّغير»، وغيرهم من أهل العلم.

قال عبد الرَّحمن بن مهدي: «لو صنَّفت كتابًا في الأبواب لجعلت حديث عمر بن الخطَّاب في: «**الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**» في كُلِّ باب»، وعنه أنَّه قال: «مَن أراد أن يُصَنِّف كتابًا فليبدأ بحديث: «**الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّات**»»[١].

وهذا الحديث أحد الأحاديث الَّتِي يدور الدِّين عليها:

فرُوِي عن الشَّافعيِّ أنَّه قال: «هذا الحديث ثلث العلم، ويدخل في سبعين بابًا من الفقه»[٢].

وعن الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث:**

حديث عمر: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**».

وحديث عائشة: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[٣].

وحديث النُّعمان بن بشير: «**الْحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ**»[٤]»[٥].

وقال الحاكم: «حدَّثونا عن عبد الله بن أحمد، عن أبيه: أنَّه ذكر قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**».

---

(١) ذكرهما النَّوويُّ عنه في «المجموع» (١/ ١٦).
(٢) أخرجه البيهقيُّ في «السُّنن الكبير» (٣٢٢-٣٣٣) إلى قوله: «ثلث العلم»، وذكره النَّوويُّ عنه في «المجموع» (١/ ٣٦).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٢٦٩٧).
(٤) أخرجه البخاريُّ (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).
(٥) «طبقات الحنابلة» للقاضي أبي يعلى (١/ ١٠٨).

وقوله: «**إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا**».

وقوله: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي دِينِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»: فقال: «ينبغي أن يُبتَدأ بهذه الأحاديث في كلِّ تصنيفٍ؛ فإنَّها أصول الأحاديث».

وعن إسحاق بن راهويه قال: «**أربعة أحاديث هي من أصول الدِّين:** حديث عمر: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**».

وحديث: «**الْحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ**».

وحديث: «**إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا**».

وحديث: «**مَنْ صَنَعَ فِي أَمْرِنَا شَيْئًا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**».

ورَوى عثمان بن سعيد عن أبي عبيد قال: «جمع النَّبيُّ ﷺ جميع أمرِ الآخرة في كلمةٍ واحدة: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»، وجمع أمرَ الدُّنيا كلَّه في كلمةٍ واحدة: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**» يدخلان في كلِّ باب».

وعن أبي داود قال: «نظرت في الحديث المسند؛ فإذا هو أربعة آلاف حديث، **ثمَّ نظرت فإذا مدار أربعة آلاف الحديث على أربعة أحاديث:**

حديث النُّعمان بن بشير: «**الْحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ**».

وحديث عمر: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**».

وحديث أبي هريرة: «**إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ...**»[١] الحديث.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥).

وحديث: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»(١).

قال: فكلُّ حديثٍ من هذه الأربعةِ رُبع العِلم».

وعن أبي داود رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا قال: «كتبت عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث، انتخبت منها ما تضمَّنه هذا الكتاب؛ يعني: «كتاب السُّنن»؛ جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث، **ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعةُ أحاديث:**

أحدهما: قوله ﷺ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**».

والثَّاني: قوله ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»(٢).

والثَّالث: قوله ﷺ: «**لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ مُؤْمِنًا حَتَّى لَا يَرْضَى لِأَخِيهِ إِلَّا مَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ**»(٣).

والرَّابع: قوله ﷺ: «**الْحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ**».

وفي رواية أخرى عنه أنَّه قال: «**الفقه يدور على خمسة أحاديث:**

«**الْحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ**».

وقوله ﷺ: «**لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ**»(٤).

وقوله: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**».

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٣) أخرج البخاريُّ (١٣)، ومسلم (٤٥) عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**».
(٤) أخرجه أحمد (٢٨٦٥)، وابن ماجه (٢٣٤١)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

وقوله: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»(١).

وقوله: «**مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَائْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»(٢).

وفي رواية عنه قال: «**أصول السُّنن في كُلِّ فنٍّ أربعة أحاديث:**

حديث عمر: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**».

وحديث: «**الْحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ**».

وحديث: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»(٣).

وحديث: «**ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ**»(٤).

وللحافظ أبي الحسن طاهر بن مفوِّز المُعافريِّ الأندلسيِّ:

«**عُمدة الدِّين عندنا كلماتٌ ... أربعٌ من كلام خَير البَريَّة**

اتَّق الشُّبُهاتِ وازَهد ودَع ما ... لَيس يَعنيك واعملَنْ بِنِيَّة»(٥).

وقد أراد هؤلاء الأئمَّة التَّنبيه على عظم شأن النِّيَّة، ومسيس حاجة المسلم إليها في طلبه للعلم وفي عباداته كلِّها؛ فإنَّ الأعمال معتبَرةٌ بنيَّاتها؛ فلا صلاةَ معتبَرةٌ عند الله، ولا صيامَ، ولا حجَّ، ولا صدقةَ، ولا برَّ، ولا أيَّ قربةٍ؛ إلَّا إذا قامت على نيَّة صالحة؛ **بحيث يكون قد ابتُغيَ بالعمل وجه الله تعالى.**

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٣) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٥) انظر: جامع العلوم والحكم (٢٧-٣٠).

فقوله: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»؛ أي: إنَّما الأعمال معتبَرةٌ عند الله جَلَّوَعَلَا بنيَّاتها؛ **فإذا كانت النِّيَّة لله خالصة، ويُبتغى بالعمل وجهُ الله** جَلَّوَعَلَا؛ قَبِل الله من العامل عمله.

وإن لم يكن العمل كذلك: رُدَّ على عامله وإن كثُر وتعدَّد وتنوَّع، وقد قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ﴾ [البيِّنة: ٥]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزُّمر: ٣]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فما أحوج المرء إلى إصلاح نيَّته، ومعالجة قصده، وتصحيح إرادته في جميع أعماله؛ في صلاته وصيامه وحجِّه وجميع طاعاته؛ بأن لا يبتغي بشيء من ذلك إلَّا وجه الله؛ **لأنَّه ليس شيء من ذلك يكون مقبولًا مرضيًّا مشكورًا عند الله تعالى إلَّا إذا كان لله خالصًا**.

و لن يدخل معه في قبره في صالحِ عملِه وسديدِ قولِه إلَّا ما قصد به وجهَ الله، أمَّا الأعمال الَّتِي يعملها العامل يريد بها شهرةً، أو رياءً، وسمعةً، أو دنيا فانية، أو غير ذلك من الحظوظ والمبتغَيات؛ فكلُّ ذلك لا يكون عند الله مقبولًا ولا يكون عنده جَلَّوَعَلَا مرضيًّا؛ **لأنَّ من شرط العمل المقبول: أن يكون قد ابتُغي به وجه الله**.

عن يحيى بن أبي كثير قال: «تعلَّموا النِّيَّة؛ فإنَّها أبلغُ من العَمَلِ»[(١)].

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٧٠).

وعن زُبَيدٍ اليامِيِّ قال: «إنِّي لأحبُّ أن تكونَ لي نيَّةٌ في كلِّ شيءٍ، حتَّى في الطَّعام والشَّراب»(١).

وعن يوسُفَ بن أسباط قال: «تخليصُ النِّيةِ مِن فسادِها؛ أشدُّ على العاملينَ مِن طُولِ الاجتهاد»(٢).

وعن مطرِّف بن عبدِ الله قال: «صلاحُ القلب بصلاحِ العملِ، وصلاحُ العملِ بصلاحِ النيَّةِ»(٣).

وعن بعض السَّلَف قال: «مَن سرَّه أن يَكمُلَ له عملُه؛ فليُحسِن نيَّته؛ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يأجُرُ العبدَ إذا حَسُنَت نيَّته، حتى باللُّقمة».

وعن ابن المبارك قال: «رُبَّ عملٍ صغيرٍ تعظِّمهُ النيَّةُ، وربَّ عمل كبيرٍ تُصَغِّره النِّيَّةُ»(٤).

وقال سفيان الثَّوريُّ: «ما عالجت شيئًا أشد عليَّ من نيَّتي؛ لأنَّها تتقلَّبُ عليَّ»(٥).

لأنَّ النِّيَّة تتفلَّت، والصَّوارف الَّتِي تصدُّ العبد عن الإخلاص في الدُّنيا كثيرة، والمقام مقامٌ عظيمٌ للمجاهدة، والله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزُّهد» (١٩٥).
(٢) أخرجه الدِّينوريُّ في «المجالسة» (١٩٤٦) و (٣٤٢٤).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٩٩).
(٤) ذكره الذَّهبيُّ عنه في «السِّير» (٨/ ٤٠٠).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٥ و٦٢) بلفظ: «نفسي» بدل: «نيَّتي».

ولهذا؛ فإنَّ معالجة النِّيَّة ومجاهدة النَّفس على الإخلاص لله جَلَّ وَعَلَا أمرٌ مطلوبٌ من المسلم إلى آخر نفَس وإلى آخر لحظة من الحياة؛ لأنَّه لا يزال تأتيه الصَّوارف والصَّوادُّ عن الإخلاص من هنا وهناك؛ فيحتاج كلَّ وقتٍ وكلَّ حينٍ إلى معالجة نيَّته، وإصلاح مقصده، وإطابة إرادته.

وقوله: «**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ**»؛ أي: مَن كانت هجرته إلى الله ورسوله نيَّة وقصدًا، فهجرته إلى الله ورسوله ثوابًا وأجرًا.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لمَّا ذَكر ﷺ أنَّ الأعمالَ بحسب النِّيَّات، وأنَّ حظَّ العامل من عمله نيَّته من خير أو شرٍّ، وهاتان كلمتان جامعتان، وقاعدتان كُلِّيَّتان، لا يخرج عنهما شيء؛ ذكر بعد ذلك مثالًا من أمثال الأعمال الَّتِي صورتُها واحدة، ويختلف صلاحُها وفسادُها باختلاف النِّيَّات، وكأنَّه يقول: سائر الأعمال على حذو هذا المثال...

فأخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ هذه الهجرةَ تختلفُ باختلافِ النِّيَّات والمقاصدِ بها؛ فمَن هاجَرَ إلى دار الإسلام حُبًّا لله ورسولِهِ، ورغبةً في تعلُّم دينِ الإسلام، وإظهارِ دينِه، حيث كان يعجزُ عنه في دارِ الشِّركِ؛ فهذا هو المهاجرُ إلى الله ورسوله حقًّا، وكفاه شرفًا وفخرًا أنَّه حصَل له ما نواه من هجرتِهِ إلى الله ورسوله.

ولهذا المعنى اقتصرَ في جوابِ هذا الشَّرط على إعادتِهِ بلفظه؛ لأنَّ حُصولَ ما نواه بهجرته: نهايةُ المطلوب في الدُّنيا والآخرة.

ومَن كانت هجرتُهُ من دارِ الشِّرك إلى دارِ الإسلام لطلبِ دُنيا يُصيبها، أو امرأةٍ ينكِحُها في دارِ الإسلام؛ فهجرتُهُ إلى ما هاجرَ إليه مِن ذلكَ؛ فالأوَّل: تاجرٌ، والثَّاني: خاطب، وليسَ واحدٌ منهما بمهاجرٍ»[١].

وسائر الأعمال كالهجرة في هذا المعنى؛ فصلاحها وفسادها بحسب النِّيَّة الباعثة عليها؛ كالصَّلاة والحجِّ والصَّدقة وغيرها من الأعمال.

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبليّ (٣٨-٣٩).

٦
حديث شعب الإيمان

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً؛ فَأَفْضَلُهَا: قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا: إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»(١).

هذا الحديث من أَجمَع الأحاديث تعريفًا بالإيمان وبيانًا له، وأنَّه شُعَب كثيرة، وهو يُعرَف عند أهل العلم بـ«حديث الشُّعَب» أو بـ«حديث شُعَب الإيمان»، ومنهم من أفرده بالتَّصنيف؛ بل منهم مَن أفرد فيه مجلَّدات كبارًا.

وقد أفاد هذا الحديث: أنَّ للإيمان شُعَبًا وأجزاءَ عديدة، وليس منحصرًا في جانب معيَّن؛ بل يتناول ما يكون بالقلب، وما يكون باللِّسان، وما يكون بالجوارح؛ فقد ذكر النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذا الحديث المختصر في ألفاظه، الجامع في معانيه ودلالاته؛ ممَّا يتعلَّق بالقلب، وما يتعلَّق باللِّسان، وما يتعلَّق بالجوارح على وجه التَّنبيه؛ لنعرِف شموله، وتعدُّد شُعَبه، وتنوُّع خصاله، فقال: «**أعلاها: قول: لا إله إلَّا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطَّريق، والحياء شعبة من شعب الإيمان**».

(١) أخرجه البخاريُّ (٩)، ومسلم (٣٥)، واللَّفظ له.

والحياء: مكانه القلب، **وإماطة الأذى عن الطَّريق**: فعلٌ بالجوارح، **وقول لا إله إلَّا الله**: نطقٌ باللِّسان وعقيدةٌ في القلب، ولنعرِف أنَّ هذه الشُّعَب للإيمان ليست على مستوى واحد، ولا على مرتبة واحدة؛ بل لها أعلى ولها أدنى، **وأعلى شيء في الإيمان: لا إله إلَّا الله**، فهي الرُّتبة العليَّة، والدَّرجة المُنِيفَة، والمنزلة الرَّفيعة، ثمَّ أمور الدِّين تأتي دونه على تفاوت عظيم بينها.

«**وأدناها: إماطة الأذى عن الطَّريق**»، وبين هاتين الشُّعبتين -شعبة «**لا إله إلَّا الله**» الَّتِي هي أعلى الشُّعب، وشعبة «**إماطة الأذى عن الطَّريق**» الَّتِي هي أدنى الشُّعَب- شُعَبٌ كثيرةٌ، منها ما هو أقرب للأعلى، ومنها ما هو أقرب للأدنى.

ولنعرف أيضًا أنَّ أهل الإيمان يتفاضلون فيه، أليس من الواضح المتقرِّر تفاوتُ أهلِه في قيامهم بهذه الشُّعَب؟ بل إنَّ المسلم يجد من نفسه في بعض أيَّامه زيادةً واستكثارًا من هذه الشُّعَب، وفي بعضها قصورًا وتقصيرًا، **وهذا من أبْيَن الأدلَّة على أنَّ الإيمان يزيد وينقص**، وأنَّ أهله متفاضلون فيه؛ ولهذا قال الصَّحابِيُّ عمير بن حبيب الخَطْميُّ: «الإيمان يزيد وينقص، قيل: وما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وسبَّحناه وحمدناه زاد، وإذا غفلنا نقص»[١]، فالإيمان يزيد وينقص، وهذا يحسُّ به كلُّ أحد من نفسه.

وقد اشتمل هذا الحديث العظيم على فوائد كثيرة تتعلَّق بالإيمان:

فمن فوائده: أنَّ الإيمان شُعَب كثيرة، وخصال عديدة؛ قال «بِضْعٌ

(١) أخرجه ابن سعد في «الطَّبقات» (٤/ ٣٨١)، وابن أبي شيبة في «المُصَنَّف» (٣٢٣٣٩).

وَسَبْعُونَ»، ومن أهل العلم من يرى أنَّ العدد لا مفهوم له؛ وإنَّما المراد به: التكثير؛ فالإيمان شُعَبٌ كثيرة، وخصالٌ مُتَعَدِّدة، وأعمالٌ مُتَنَوِّعة.

ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ الأعمال داخلةٌ في مسمَّى الإيمان؛ سواء منها أعمال الجوارح؛ كإماطة الأذى عن الطَّريق، أو أعمال القلوب؛ كالحياء.

ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ خصال الإيمان ليست على درجة واحدة في الفضل؛ بل هي خصالٌ متفاوتة، وأعمالٌ متفاضلة، وشُعَبٌ بعضها أفضلُ من بعض؛ ولهذا قال: «**أعلاها**» و«**أدناها**»؛ فهذا دالٌّ على التَّفاوت بين شُعَب الإيمان.

ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ الإيمان يزيد وينقص، ويقوى ويضعُف، وأنَّ أهله ليسوا فيه على درجة واحدة؛ **بل بينهم تفاوتٌ عظيم؛ وذلك بحسب حظِّهم من شُعَب الإيمان زيادةً ونقصًا، قُوَّةً وضعفًا.**

ومن المعلوم: أنَّ أهل الإيمان في قيامهم بهذه الشُّعَبِ -شُعبِ الإيمان وخصالِهِ- بينهم تفاوتٌ كبير، وهم -في الجملة- في هذا التَّفاوت ينقسمون إلى أقسام ثلاثة ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

ومن فوائد هذا الحديث: أهمِّيَّة التَّوحيد، وعِظَم شأنه، وأنَّه أوَّلُ الأمر وأساسُه، وعليه قيام دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والتَّوحيد هو مدلول لا إله إلَّا الله؛ فهي كلمة التَّوحيد، وهي -كما في هذا الحديث- أعلى شعب الإيمان؛ فإنَّ

أعلى شعب الإيمان «**قول لا إله إلَّا الله**»، والمراد بـ(قولها) أي: بالقلب عقيدةً، وباللِّسان نطقًا وتلفُّظًا؛ **لأنَّ الأصل في القول إذا أُطلق أن يشملَ قولَ القلب وقولَ اللِّسان**؛ كقوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]؛ ليس المراد: قولوها بألسنتكم قولًا مجرَّدًا؛ بل: قولوها بقلوبكم إيمانًا واعتقادًا، وبألسنتكم نطقًا وتلفُّظًا، ومثله قول النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ**»[(١)].

«**فَأَعْلَاهَا: قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» أي: أعلى شعب الإيمان أن يقول: «**لا إله إلَّا الله**» عن عقيدة وإيمان وتوحيد، أمَّا إذا قال: «**لا إله إلَّا الله**» قولًا مجرَّدًا، ولم يحقِّق التَّوحيد الَّذِي دلَّت عليه؛ فإنَّها لا تنفعه.

ومن فوائد هذا الحديث: فضل «**لا إله إلَّا الله**» وعِظَم شأن هذه الكلمة المباركة، حتَّى إنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»[(٢)]؛ فهي أفضل الذِّكر وهي أعلى شعب الإيمان، وهي أعظم مباني الإسلام كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ...**»[(٣)]، الحديث، وهي مفتاح دعوة الرُّسل، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ التَّوحيد والعناية به أمرٌ مقدَّمٌ على كلِّ أمر؛ فإنَّ التَّقديم يدلُّ على الاهتمام والتَّعظيم؛ فالنَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قدَّم هذه الكلمة

(١) أخرجه مسلم (٣٨)، وأحمد (١٥٤١٦) واللَّفظ له.
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، وحسَّنه الألبانِيُّ.
(٣) أخرجه البخاريُّ (٨)، ومسلم (١٦).

على كلِّ شُعَبِ الإيمان وجميعِ خصال الدِّين؛ فيُستفادُ من ذلك: أنَّ الواجب على كلِّ إنسان أن تكون عنايته بأمر التَّوحيد تفقُّهًا وفهمًا وعملًا؛ مقدَّمةً على العناية بأمور الدِّين الأخرى، كيف لا؟!! والتَّوحيد هو الأساس الَّذِي يبنى عليه الدِّين؛ فإنَّ مَثَلَ كلمة التَّوحيد في الدِّين كَمَثَلِ الأصول للأشجار، والأساس للبنيان، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

ومن فوائد هذا الحديث: أهمِّيَّة الإحسان إلى عباد الله بجميع وجوه الإحسان المهيَّأة والمتيسِّرة للمرء، وأنَّ هذا باب من أبواب الرِّفعة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن ذلك: إماطة الأذى عن الطَّريق؛ أي: عن طريق المسلمين.

وإماطة الأذى عن طريق المسلمين عملٌ يسير؛ لكنَّ ثوابه عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ثوابٌ عظيم، وهي صدقة من مُمِيط الأذى عن الطَّريق على إخوانه المسلمين، فإماطة الأذى عن الطَّريق صدقة.

وهذه الخصلة هي أيضًا من الدَّلائل على تفاوت النَّاس في الإيمان وشُعَبِه وخصالِه؛ **لأنَّك إن نظرت إلى حال النَّاس مع هذه الشُّعبة من شُعَبِ الإيمان؛ تجد أنَّهم في الجملة ثلاثة أقسام:**

١- قسم يضَع الأذى في الطَّريق.

٢- وقسم يدَع الأذى في الطَّريق.

٣- وقسم يُمِيط الأذى عن الطَّريق؛ وهو من خير النَّاس، وأفضلهم، وأنفعهم لعباد الله، وقد جاء في الحديث عن نبيِّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أَنَّ رَجُلًا مَرَّ**

بِغُصْنِ شَجَرَةٍ ذِي شَوْكٍ فِي طَرِيقِ المُسْلِمِينَ، فَقَالَ: وَاللهِ لَا أَدَعُ هَذَا فِي طَرِيقِ المُسْلِمِينَ فَيُؤْذِيهِمْ؛ فَنَحَّاهُ عَنِ الطَّرِيقِ فَشَكَرَ اللهُ عَمَلَهُ فَأَدْخَلَهُ الجَنَّةَ»(١).

ومن فوائد هذا الحديث: أن لا يَتَقَالَّ المسلم من أعمال البِرِّ والإحسان شيئًا؛ فقد تقوم بعمل تراه قليلًا، وتظنُّ أنَّ مثوبته عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قليلة، ويكون هذا العمل الَّذِي تراه قليلًا سببًا لدخولك الجنَّة؛ مثل ما حصل في قصَّة هذا الرَّجل الَّذِي ذكر النَّبِيُّ ﷺ خبره.

ومن فوائد هذا الحديث: أهمِّيَّة الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الأعمال، بما فيها الأعمال الَّتِي يُقصد بها نفع النَّاس؛ كإماطة الأذى عن الطَّريق؛ فإنَّ هذه الأعمال لا تدخل في صالح عملِ المَرء إلَّا إذا ابتغى بها وجهَ الله، فمَن فعل هذه الأعمال من أجل ثناء النَّاس ومدحهم، ولم يقصد التَّقرُّب بها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإنَّه لا تدخل في صالحِ عمله؛ إذ لا يدخل في صالحِ العمل إلَّا ما قُصِد به التَّقرُّبُ، وأُرِيدَ به وجهُ الله ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

ومن فوائد هذا الحديث: عِظَم شأن الحياء وهو من أعمال القلوب، وأنَّ الحياء من الإيمان وداخلٌ في شُعَبه، والحياء خُلَّة مباركة، وخصلة عظيمة؛ إذا قامت في قلب العبد حَجَزَتهُ عن الرَّذائل، ودفَعَته للإقبال على الفضائل، ومَن نُزِع من قلبه الحياء؛ لم يُبالِ بما وقع فيه من شرٍّ أو فسادٍ، وفي الحديث: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد بنحوه (٨٤٩٨).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦١٢٠).

ومن فوائد هذا الحديث: الحثُّ على العلم الشَّرعيِّ، والتَّفقُّه في دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لمَّا ذَكَر أنَّ شُعَب الإيمان كثيرة، وأنَّ لها أعلى ولها أدنى؛ تضمَّن هذا الذِّكر حثًّا للعباد على تعلُّم هذا الإيمان بشُعَبِه،؛ سواء منها ما كان قريبًا من الأعلى، أو كان قريبًا من الأدنى؛ ولهذا: العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ بذلوا جهودًا كبيرة في التَّفقُّه في هذا الحديث نفسِه، حتَّى إنَّ بعضهم أفرد فيه السَّبع، والثَّمان، والتِّسع مجلَّدات؛ تفقُّهًا في هذا الحديث العظيم، ومنهم مَن أمضى في هذا الحديث -تفقُّهًا- السَّنوات، ومن الأخبار العجيبة: قصَّة ابن حبَّان رَحِمَهُ اللَّهُ مع هذا الحديث الَّتِي أخبر هو بها عن نفسه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد تتبَّعتُ معنى الخبر مدَّة؛ وذلك أنَّ مذهبنا: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يتكلَّم قطُّ إلَّا بفائدة، ولا من سنَّته شيءٌ لا يُعلَم معناه؛ فجعلت أعُدُّ الطَّاعات من الإيمان؛ فإذا هي تزيد على هذا العدد شيئًا كثيرًا؛ فرَجَعت إلى السُّنن؛ فعدَدتُ كلَّ طاعة عدَّها رسول الله ﷺ من الإيمان؛ فإذا هي تَنقُص من البضع والسَّبعين، فرجعت إلى ما بين الدَّفَّتين من كلام ربِّنا وتلوتُه آيةً آيةً بالتَّدبُّر، وعددتُ كلَّ طاعة عدَّها الله جَلَّ وَعَلَا من الإيمان؛ فإذا هي تَنقُص عن البضع والسَّبعين، فضَممتُ الكتاب إلى السُّنن، وأسقطت المعاد منها؛ فإذا كلُّ شيء عدَّه الله جَلَّ وَعَلَا من الإيمان في كتابه، وكلُّ طاعة جعلها الله ورسول الله ﷺ من الإيمان في سننه تسعٌ وسبعون شعبة، لا يزيد عليها ولا ينقص منها شيء؛ فعَلِمتُ أنَّ مراد النَّبِيِّ ﷺ كان في الخبر أنَّ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة**» في الكتاب والسُّنن؛ فذكرت هذه المسألة بكمالها؛ بذكر شُعَبِه في كتاب «وصف الإيمان وشُعَبه» بما أرجو أنَّ فيها الغُنية للمتأمِّل إذا تأمَّلها، فأغنى

ذلك عن تكرارها في هذا الكتاب»[١].

الحاصل: أنَّ من فوائد هذا الحديث: الحثُّ على العلم، والتَّرغيبُ فيه، وأهمِّيَّة العناية بمعرفة الإيمان، ومعرفة شُعَبه، وخصاله المُتَنَوِّعة.

ومن فوائد هذا الحديث: أنَّ من الإيمان ما يكون في القلب، ومنه ما يكون باللِّسان، ومنه ما يكون بالجوارح؛ كإماطة الأذى عن الطَّريق؛ فليس الإيمان شيءٌ يكون في القلب فقط؛ بل الإيمان -كما قال أهل السُّنَّة-: قولٌ واعتقادٌ وعملٌ؛ قولُ باللِّسان، واعتقادُ بالقلب، وعملُ بالجوارح، وأيضًا عملٌ بالقلب، القلب له أعمالٌ كثيرةٌ؛ منها: الحياء؛ كما في هذا الحديث.

هذا ومَن كَثُرت عليه شُعَبُ الإيمان، وأراد ما يُعِينه على القيام بها، والإكثار منها؛ فليُكثر من ذكر الله؛ فعَن عبد الله بن بسرٍ: أنَّ رجلًا قال: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ**». رواه التِّرمذيُّ وغيره[٢]، فدلَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على شيءٍ يعينه على شرائع الإسلام والاستكثار منها؛ وهو ذكر الله.

فمَن واظب على ذكر الله سبحانه سَهُلَت عليه الشَّرائع ولانت؛ فإنَّ الذِّكر من أكبر العون على الطَّاعة؛ فهو يحبِّب إلى العبد الطَّاعة، ويسهِّلها عليه، ويلذِّذها له؛ بحيث لا يجد لها كُلفةً ومشقَّةً.

(١) «صحيح ابن حبَّان» (١/ ١٢٤-١٢٥).
(٢) أخرجه أحمد (١٧٦٨٠)، والتِّرمذيُّ (٢٣٢٩)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

٧

حديث:
«مَن قال: أشهد أن لا إله إلَّا اللّه»

عن عُبَادَة بْن الصَّامِتِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَابْنُ أَمَتِهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ**»[١].

هذا الحديث حديثٌ عظيم في بيان أمور الإيمان والعقيدة والتَّوحيد؛ بل قال النَّوويُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «هذا حديثٌ عظيم الموقع، وهو أَجمَعُ أو مِن أَجمَعِ الأحاديث المشتملة على العقائد»[٢]؛ لأنَّه اشتمل على أصول العقائد، وأساس الدِّين، وتضمَّن أصولًا عظيمةً، وأُسُسًا مباركةً توجِبُ لمَن قام بها وحقَّقها دخول الجنَّة من أيِّ أبوابها الثَّمانية شاء؛ كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في تمام هذا الحديث؛ ولهذا: جديرٌ بالمسلم أن يُعنى بهذا الحديث عنايةً عظميةً؛ حفظًا، وفهمًا، وتطبيقًا؛ حتَّى يفوز بهذا الثَّواب العظيم.

بدأ ﷺ هذه الأصول بأصل الأصول وأعظمها على الإطلاق؛ وهو توحيد

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).
(٢) انظر: شرح النَّوويِّ على مسلم (٢/ ١٧٥).

الله عَزَّوَجَلَّ قال: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وبدأ به لأنَّه هو المُقَدَّم، وبه يُبدأ، وهو أوَّل الأمر، وبقيَّة الأصول تَبَعٌ له.

والشَّهادة لله بالوحدانيَّة لا بدَّ فيها من علمٍ بالمشهود به، ولا بدَّ فيها من اعتقاد ذلك، ولا بدَّ فيها من نطقٍ وإخبارٍ وإعلامٍ، فهذه كلُّها من معاني الشَّهادة، فلو نطقَ بدون علمٍ لا يكون شهادةً، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّخرف: ٨٦]، قال غير واحدٍ من المُفَسِّرين: «إلَّا مَن شهد بلا إله إلَّا الله»، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: أي: معنى ما شهدوا به، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمَّد: ١٩]، وعَنْ عُثْمَانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[1]، فلا بدَّ من علمٍ بالمشهود به حتَّى تستقيم الشَّهادة.

ولا بدَّ من الاعتقاد؛ لا أن تكون الشَّهادةُ مُجَرَّدَ تلفُّظٍ باللِّسان؛ بل لا بدَّ من عقيدة مستقِرَّة في القلب، ولا بدَّ من نطق؛ نطقٍ بهذه الشَّهادة، وإخبار، وإعلام؛ فكُلُّ ذلك لا بدَّ منه في الشَّهادة.

و«لا إله إلَّا الله» أعظم الكلمات على الإطلاق؛ كما قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وقال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، وهي الكلمة الطَّيِّبة؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وهي كلمة الحقِّ؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ

(١) أخرجه مسلم (٢٦).

بِٱلْحَقِّ ﴾ [الزُّخرف: ٨٦]، وهي دعوة الحقِّ؛ كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرَّعد: ١٤]، وهي العروة الوثقى، وهي كلمة التَّقوى، وهي أعظم أركان الدِّين، وأهمُّ شعب الإيمان، وهي سبيل الفوز بالجنَّة والنَّجاة من النَّار، وهي كلمة الشَّهادة، ومفتاح دار السَّعادة، وأصل الدِّين، وأساسه، ورأس أمره.

وفضائل هذه الكلمة وموقعها من الدِّين: فوق ما يصفُه الواصفون ويعرفه العارفون، ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

وهي دالَّة على توحيد الله، ووجوب إفراده وحده بالعبادة، ودلالتُها على التَّوحيد: بالنَّفي والإثبات، وهما ركنان لهذه الكلمة ولا توحيد إلَّا بهما؛ النَّفي في قوله: «**لا إله**»، والإثبات في قوله: «**إلَّا الله**»، ولا يكون المرءُ موحِّدًا إلَّا بالنَّفي والإثبات الَّذين جاء في هذه الكلمة؛ نفيِ العبادة عن كُلِّ مَن سوى الله، وإثباتِ العبادة بكُلِّ معانيها لله وحده.

وقوله: «**وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**»: هذا تأكيد للتَّوحيد، واهتمام بمقامه العظيم؛ فقوله: «**وَحْدَهُ**» تأكيد للإثبات، وقوله: «**لَا شَرِيكَ لَهُ**» تأكيد للنَّفي.

ولا بدَّ من أداء حقِّ هذه الكلمة، وفَرضِها، واستيفاء شروطها الواردة في الكتاب والسُّنَّة، وكلُّ مسلمٍ يعلم أنَّ كلَّ طاعةٍ يتقرَّب بها إلى الله لا تُقبل منه إلَّا إذا أتى بشروطها؛ فالصَّلاة لا تُقبل إلَّا بشروطها المعلومة، والحجُّ لا يُقبل إلَّا بشروطه، وجميع العبادات كذلك لا تُقبل إلَّا بشروطها المعلومة من الكتاب

والسُّنَّة، وهكذا الشَّأن في «**لا إله إلَّا الله**»؛ لا تُقبل إلَّا إذا قام العبد بشروطها المعلومة في الكتاب والسُّنَّة.

وقد أشار سلفُنا الصَّالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ إلى أهمِّيَّة العناية بشروط «لا إله إلَّا الله» ووجوب الالتزام بها، وأنَّها لا تُقبل إلَّا بذلك؛ ومن ذلك ما جاء عن الحسن البصريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّه قيل له: إنَّ ناسًا يقولون: «مَن قال: لا إله إلَّا الله دخل الجنَّة»، فقال: «مَن قال: لا إله إلَّا الله فأدَّى حقَّها وفرضَها دخل الجنَّة»(١).

وقال وهب بن مُنبِّه لمَن سأله: «أليس مفتاح الجَنَّة: لا إله إلَّا الله؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلَّا له أسنان، فإن أتيت بمفتاح له أسنان فُتح لك، وإلَّا لم يُفتح»(٢)؛ يشير بـ(الأسنان) إلى شروط لا إله إلَّا الله.

قوله: «**وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**»: هذه شهادة للنَّبِيِّ ﷺ بالعبوديَّة وبالرِّسالة، وقد كمَّل نبيُّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مقام العبوديَّة أتمَّ تكميل؛ فعبَد اللهَ حتَّى أتاه اليقين صلوات الله وسلامه عليه، وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في عباداته قدوةً المؤمنين، وأسوة للمُتَّقين ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وما من مقامٍ من مقامات العبادة إلا وتمَّمه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأتى به على الوفاء والتَّمام؛ فكان في كلِّ عبادةٍ قدوةً، وفي كلِّ طاعةٍ أسوةً.

وبلَّغ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الرِّسالة أَوْفَى بلاغ، وأدَّى الأمانة، ونصح الأُمَّة،

(١) ذكره النَّوويُّ عنه في «شرح صحيح مسلم» (٢/ ١٦١).
(٢) أخرجه البيهقيُّ في «الأسماء والصِّفات» (٢١٠).

وجاهد في الله حقَّ جهاده حتَّى أتاه اليقين، وما ترك خيرًا إلَّا دلَّ الأُمَّة عليه، ولا شرًّا إلَّا حذَّرها منه، بعثه الله عَزَّوَجَلَّ رحمة للعالمين بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

والشَّهادة له بالرِّسالة: تستوجب طاعته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وامتثال أمره، والرُّسلُ إنَّما أُرسِلوا ليُطاعوا ولتُمتثل أوامرُهم، وليُتَّبعوا ويُقتدَى بهَدْيِهم، ويُسار على نهجهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [النِّساء: ٦٤].

فمَن شهد أنَّه رسول الله ﷺ: لزمه أن يطيعه فيما أمر، وأن يصدِّقه فيما أخبر، وأن ينتهي عمَّا نهى عنه وزجر، وأن لا يُعبدَ الله إلَّا بما شرع.

وهاتان الشَّهادتان لهما شأن عظيم، ومكانة عليَّة؛ فعليهما قيام دين الله، وهما مفتاح السَّعادة، ولا نجاةَ للعبد ولا فوزَ برضا الله ولا دخولَ لجنَّته؛ إلَّا بهذا المفتاح العظيم: «شهادةِ أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله»؛ ولهذا فإنَّه في يوم القيامة لا تزول قدمَا عبدٍ بين يدي الله جَلَّ وَعَلَا حتَّى يُسأل عن مسألتين عظيمتين: «ماذا كنتم تعبدون؟»، و«ماذا أجبتم المرسلين؟» وجواب الأوَّل: «شهادة لا إله إلَّا الله» معرفةً وتحقيقًا وإخلاصًا، وجواب السُّؤال الثَّاني: «شهادة أنَّ محمَّدًا رسول الله» معرفةً وتحقيقًا وانقيادًا.

ومَن لم يكن دينه قائمًا على هذين الأصلين العظيمين: لم يقبل الله منه عملًا، ولم ينتفع بطاعة، وقد قال الله جَلَّ وَعَلَا في الحديث القدسيِّ: «**أَنَا أَغْنَى**

الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١)، وقال ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٢).

فدلَّ الحديث الأول: أنَّ الأعمال أيًّا كانت؛ لا قبول لها إلَّا بالإخلاص، **ودلَّ الحديث الثَّاني:** أنَّ الأعمال لا قَبول لها إلَّا بالاتِّباع.

والإخلاص: هو تحقيق «شهادة أن لا إله إلَّا الله»، **والاتِّباع**: هو تحقيق «شهادة أنَّ محمَّدًا رسول الله ﷺ».

ولهذا قال الإمام الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ٢]: «أخلصه وأصوبه»، قيل: يا أبا عليٍّ! وما أخلصه وأصوبه؟ قال: «إنَّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل؛ حتَّى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: ما كان لله، والصَّواب: ما كان على السُّنَّة»(٣).

قوله: «**وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ**»: ذُكر عيسى دون غيره من الأنبياء هنا؛ لأنَّ أهل الضَّلال تجاذبوا فيه تجاذبًا عجيبًا؛ فمنهم مَن جعله إلهًا، أو ابنًا للإله، أو ثالث ثلاثة، ومنهم مَن حَطَّ من قدره حطًّا سيِّئًا للغاية.

والحقُّ وسَطٌ بين الغلوِّ والجفاء، وبين الإفراط والتَّفريط؛ ولهذا جاءت هذه الشَّهادة عند أهل الإسلام معتدلةً مُتَوَسِّطةً لا غلوَّ ولا جفاء، «**وَأَنَّ عِيسَى**

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥). (٢) أخرجه مسلم (١٧١٨).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٥).

عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»، والعبد لا يُعبَد ولا يُؤَلَّه، والرَّسول لا يُجفَى ويُكذَّب؛ بل يُطاعُ ويُتَّبع.

قوله: «**وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ**»: عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كلمة الله، **ومعنى أنَّ عيسى كلمة الله**: أي أنَّه أَثَرُ الكلمة، لا أنَّه نفس الكلمة، وقيل له: كلمة الله؛ لأنَّه بالكلمة كان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]؛ فليس عيسى هو كلمةُ (كن)؛ ولكنَّه بهذه الكلمة كان، قال الله: كن؛ فكان؛ ولهذا قيل له كلمة الله.

قوله: «رُوحٌ مِّنْهُ» أي: من الأرواح الَّتِي خلقها الله عَزَّ وَجَلَّ، ولكُلِّ واحد من بني آدم روحٌ مخلوقة خلقها الله عَزَّ وَجَلَّ، وروح عيسى هي كذلك من الأرواح المخلوقة الَّتِي خلقها الله جَلَّ وَعَلَا، وأضافها الله إليه تشريفًا لروح عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإلَّا؛ فهي روحٌ من الأرواح المخلوقة، «رُوحٌ مِّنْهُ» أي: خلقًا، كما في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]؛ ﴿مِّنْهُ﴾ أي: خلقًا.

فهذه العقيدة القويمة في شأن هذا الرَّسول العظيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لا غلوَّ ولا جفاء؛ وإنَّما توسُّطٌ واعتدال.

«**وَالجَنَّة حَقٌّ**» أي: وشهد أنَّ الجنَّة حقٌّ، **ويدخل تحت الإيمان بأنَّ الجنَّة حقٌّ**: الإيمان بأنَّ الجنَّة مخلوقة، وأنَّها موجودة، أعدَّها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للمُتَّقين، وأنَّ فيها من النَّعيم المقيم، والثَّواب العظيم ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، والإيمان بكُلِّ صنوف النَّعيم وأنواع المنن الَّتِي أعدَّها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأهل الجنَّة في الجنَّة.

«**وَالنَّارُ حَقٌّ**» أي: وشهد أنَّ النَّار حقٌّ، **ويدخل تحت هذه الشَّهادة**: الإيمان بأنَّها مخلوقة، وأنَّها موجودة، وأنَّها أُعدَّت لأهلها، وأنَّ فيها من صنوف العذاب وأنواع النَّكال ما أعدَّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للكافرين المعرضين.

فمَن شَهِدَ هذه الشَّهادة؛ شَهِدَ لله بالوحدانيَّة، ولنبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالعبوديَّة والرِّسالة، ولعيسى بالعبوديَّة والرِّسالة، وأنَّه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، وأنَّ الجنَّة حقٌّ، والنَّار حقٌّ؛ أدخله الله الجنَّة على ما كان من العمل.

وقوله: «**أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ**»: يدلُّ على فضيلةٍ عظيمةٍ من فضائل التَّوحيد والإيمان؛ وأنَّه موجب لدخول الجنَّة، ثمَّ تكون درجاتهم في الجنَّة على حسب أعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف: ١٩]؛ فهُم يتفاوتون في الجنَّة تفاوتًا عظيمًا بحسب تفاوتهم في الإيمان والأعمال الصَّالحة والطَّاعات المقرِّبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فمنهم مَن هو في أعلى الجنَّة، ومنهم من هو دون ذلك؛ فأهل الجنَّة يتفاضلون في منازلهم، والجنَّة درجات، بعضها فوق بعض، وفي الجنَّة مائة درجة، بين كُلِّ درجتين كما بين السَّماء والأرض.

٨
حديث: «إنَّ الله لا ينام»

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»(١).

هذا الحديث من أَجمَعِ الأحاديث في الإيمان والاعتقاد، وخاصَّة الاعتقاد في الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ إيمانًا به سبحانه، وبصفاته العظيمة، ونُعُوته الجليلة، وما من شكٍّ أنَّ هذه المعرفة بالله عَزَّوَجَلَّ هي أساس الهداية والفلاح في الدُّنيا والآخرة؛ فإنَّ العبد كُلَّما كان بالله أَعرَفَ؛ كان منه أَخْوَفَ، ولعبادته أَطْلَبَ، وعن معصيته أَبْعَدَ، **فلا غَرْوَ أن يكون من أعظم الرَّكائز الَّتِي تبنى عليها دعوات النَّبيِّين عليهم صلوات الله وسلامه: التَّعريف بالرَّبِّ العظيم**؛ تعريفًا بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، ونعوته العظيمة.

وهذه المعرفة هي بوابة الهداية والإقبال على الله عَزَّوَجَلَّ؛ طاعةً، وخضوعًا، وتذلُّلًا، وانقيادًا لأمره سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

(١) أخرجه مسلم (١٧٩).

ولنتأمَّل قول أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في هذا الحديث الجامع: «قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ»؛ أي قام فينا خطيبًا واعظًا ومُبيِّنًا ومُعَلِّمًا صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

وفيه: أنَّ هذا القيام الَّذِي قامه النَّبِيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ -أي: على قدميه ناصحًا للعباد- انحصر في الإيمان بالله معرفةً به وبأسمائه -سبحانه- وصفاته، فلم يزد في قيامه هذا على ذلك شيئًا آخر من أمور الدِّين وعلومه العظيمة؛ **فيستفاد من هذا:** حاجة العباد إلى مثل هذا القيام نصحًا لهم بتعليم الاعتقاد، وتعريفهم بالله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العظيمة، الدَّالَّة على كماله وجلاله وعظمته؛ وذلك أنَّ القلوب إذا ضعُفت فيها هذه المعرفة بالله عَزَّوَجَلَّ؛ ضعُفَ فيها الدِّين، والإقبال على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والفرار إليه، والخوف من عقابه وسخطه جلَّ في علاه.

ويعدُّ هذا الحديث أصلًا عظيمًا في إفراد الاعتقاد بالتَّعليم والتَّدريس؛ بأن يُفرد له دروسًا خاصَّةً، وأن يُفرد لبيانه مؤلَّفات خاصَّة، ومجالس خاصَّة، اهتداءًا بهدي النَّبِيِّ الكريم عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، واقتداءًا بسُنَّته؛ كما في هذا الحديث العظيم الجامع وغيره من أحاديثه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ الَّتِي إنَّما قامت على بيان هذا الأمر الَّذِي هو أعظم الأمور، وأجلُّها، وأرفَعُها شأنًا.

ويعدُّ أيضًا جامعًا في بابه -أعني: باب المعرفة بالله عَزَّوَجَلَّ، والتَّعريف بالرَّبِّ العظيم سبحانه-؛ فهو حديث أُخلِصَ لذلك؛ كما أنَّ آية الكرسيِّ الَّتِي هي أعظم آية في كتاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أُخلِصَت للتَّعريف بالرَّبِّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ

والدَّعوة إلى توحيده، فذُكر فيها من أسماء الله الحسنى خمسةَ أسماء، ومن صفاته ما يزيد على العشرين صفة، وما اجتمع فيها من التَّعريف بالرَّبِّ لم يأت مثلُه في آية أخرى من القرآن؛ وإنَّما جاء في آياتٍ مُتفَرِّقاتٍ؛ ولهذا جاء في صحيح مسلم في قصَّة أبيٍّ بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لمَّا قال له النَّبيُّ ﷺ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ؛ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ؛ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: اللهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوم، قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «**وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**»[(١)]؛ أي: هنيئًا لك هذا العلم العظيم الَّذي ساقه الله لك وأكرمك به؛ حيث أَدرَكَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ هذه الآية الَّتي أُخلِصَت لبيان توحيد الله، وذِكرِ براهينه؛ أعظمُ آي القرآن.

وهذا الحديث شأنه كذلك؛ حيث أُخلِصَ لبيان هذا الأمر، حتَّى قال بعض أهل العلم: «هذا الحديث معناه مسبوكٌ من معنى آية الكرسيِّ؛ فهو سيِّد الأحاديث؛ كما أنَّها سيِّدة الآيات»[(٢)]؛ تنبيهًا على عِظَم شأن هذا الحديث، وعِظَم المضامين الَّتي اشتمل عليها، وعندما نتأمَّل في هذه الصِّفات الَّتي جُمعت في هذا الحديث العظيم؛ نجد أنَّها تلتقي مع ما جاء في آية الكرسيِّ وما جاء في آي القرآن الأخرى في هذا الباب الشَّريف العظيم؛ باب التَّعريف بالرَّبِّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وفي هذا المقام يَجدُر التَّنبيه إلى أمرٍ جليلِ القَدر؛ ألا وهو: أثر صحَّة

(١) أخرجه مسلم (٨١٠).

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح (١/ ١٦٦).

الاعتقاد على استقامة العمل وصلاح السُّلوك؛ فإنَّ المعتقِد كلَّما صحَّ معرفةً بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإيمانًا به، وأوصافه العظيمة، وصفاته الجليلة؛ كان في ذلك أكبر معونة للعبد على إقامة نفسه على طاعة الرَّبِّ امتثالًا لأمره واجتنابًا لنهيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد انتظم هذا الحديث خمسَ جمل؛ نصفَ جمل آية الكرسي، وهي جُمَلٌ تامَّةٌ وافيةٌ بالتَّعريف بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

الجملة الأولى: قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ** عَزَّوَجَلَّ **لَا يَنَامُ**»؛ أي: أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عن النَّوم وعن مقدِّماته؛ لأنَّ النَّوم نقصٌ، وإنَّما ينام مَن هو محتاجٌ للرَّاحة والخلاص من العناء والتَّعب، والنَّومُ موتةٌ صغرى؛ ولهذا فإنَّ مَن نام يقولُ بعد قيامه من نومه: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا**»، وهو دليلٌ على نقص هذا الإنسان، وضعفه، وفقره، وحاجته، وأمَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإنَّه غنيٌّ غِنًى ذاتيًّا من كلِّ وجهٍ، ولا يلحقه في شيءٍ من صفاته أيَّ نقصٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي قول النَّبِيِّ ﷺ عن الله «**لَا يَنَامُ**»: إثباتُ كمالِ حياةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإثباتُ كمالِ قيُّوميَّته عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال الله في آية الكرسيِّ -أعظم آية في القرآن-: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

والسِّنَة: هي بدايات النَّوم ومقدِّماته -وهو النُّعاس-، والله مُنَزَّهٌ عن ذلك كلِّه؛ لكمال حياته، وكمال قيُّوميَّته؛ فهو الحيُّ الحياة الكاملة الَّتِي لم يسبقها عدم، ولا يلحقها فناء، ولا يعتريها نقص، ولا تلحقها آفة من الآفات.

والقيُّوم: أي القائم بنفسه، المقيم لخلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذه المعرفة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تدعو العبد إلى أنواع كثيرة من العبوديَّات وحسن الإقبال على الله:

ومن ذلك: التَّوكُّل، وتفويض الأمور إليه، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

ومن ذلك: المراقبة، وإصلاح العمل؛ لأنَّ الدَّيَّان لا ينام، قال أبو الدَّرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «البِرُّ لا يبلى، والإثم لا يُنسَى، والدَّيَّان لا ينام؛ فكن كما شئتَ؛ كما تدين تدان»[(١)]، **والدَّيَّان**: هو المجازي المحاسب، وهو شهيد، رقيب، عليم، خبير، مطَّلع على العباد في كلِّ وقت وحين.

الجملة الثَّانية: قوله ﷺ: «**وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ**»؛ أي: كما أنَّ النَّوم لا يقعُ والرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عنه؛ فهو أيضًا في حقِّه ممتنعٌ ومستحيلٌ؛ لأنَّ كلمة: «**لا ينبغي**» كما أنَّها تأتي في الممنوع والمحظور شرعًا؛ فإنَّها تأتي أيضًا في الممتنع المستحيل؛ كقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أواخر سورة مريم: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢]؛ أي: هذا ممتنعٌ في حقِّه، ومِثلُهُ قول نبيِّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في هذا الحديث: «**وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ**»؛ أي: أنَّ هذا ممتنعٌ في حقِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ففيه تأكيدٌ للمعنى الأوَّل في هذه المعرفة العظيمة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنَّ الواجب على العباد أن يعرفوا ربَّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّه لا ينام، ولا ينبغي أن ينام؛ فالنَّوم مستحيلٌ وممتنعٌ في حقِّه، وهو مُنَزَّهٌ عن ذلك.

الجملة الثَّالثة: قول النَّبيِّ ﷺ: «**يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ**»؛ وهذه الجملة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «الزُّهد» (٧٦٩).

فيها إثباتُ كمالِ عدلِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكمالِ تدبيرِه، وأنَّ كلَّ شيءٍ عنده بميزان، وكلُّ أمر يُدَبِّره بمقدار، يُدَبِّر أمور الخلق بالعدل؛ فلا ظلم، ولا حَيف، ولا هضم.

والقسط: هو الميزان والعدل؛ فهو عدلٌ لا يظلم.

والأمور كُلُّها بميزان **فيما يتعلَّق بأعمال العباد وما يُرفع إليه منها** -كما سيأتي في الجملة الَّتِي بعده-، **وفيما يتعلَّق بما هو نازلٌ منه للعباد**؛ من أرزاق ونِعم ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، فأرزاقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمقدار، وتدبيره بمقدار، وأموره كلُّها قائمةٌ على العدل في أحكامه وجزائه وتدبيره.

فوجب على العبد أن يكون على معرفةٍ بربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يدرك في هذا الباب أنَّ هذه الحياة هي ميدانُ امتحانٍ، ودارُ ابتلاءٍ؛ يبتلي الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العباد فيعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويقبض ويبسط، ويُعِزُّ ويُذِلُّ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرَّحمن: ٢٩] تدبيرًا؛ لكنَّه لا يظلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أحدًا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فُصِّلت: ٤٦]؛ فأموره كلُّها قائمةٌ على العدل، وكلُّها بميزانٍ وبمقدارٍ.

ولهذا ينبغي على العبد أن يكون مُعَظِّمًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مقبلًا عليه في شدَّته ورخائه، وفي عُسره ويسره، مؤمنًا بربِّه سبحانه، وهذه حال المؤمن صادق الإيمان؛ كما قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ**» أي: في رخائه وشدَّته؛ ولهذا قال: «**إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(١).

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

الجملة الرَّابعة: قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ**»؛ لأنَّ الرَّفع إنَّما يكون إلى أعلى، وفيه عرْض الأعمال على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أعمال النَّهار تُرفَع إلى الله وتُعرَض عليه قبل اللَّيل، وأعمال اللَّيل تُرفَع إلى الله وتُعرَض عليه قبل النَّهار، **وممَّا يُوَضِّح هذا المعنى في هذا الحديث:** ما جاء في «الصَّحيحين» عن نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّه قال: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ وَصَلَاةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ -أَيْ إِلَى اللهِ- فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **بِهِمْ وَأَعْلَمُ مِنْهُمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**»(١).

وهذا يدعو العبد إلى الإصلاح من شأن نفسه وأعماله؛ فإذا أمسيتَ لا تنتظرِ الصَّباح، وإذا أصبحتَ لا تنتظرِ المساء، وكن مسارعًا في العمل ومسابقًا إلى الخيرات؛ لأنَّ عمل اللَّيل يُرفَع قبل النَّهار، وعمل النَّهار يُرفَع قبل اللَّيل؛ ترفعه الملائكة.

الجملة الخامسة: قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**حِجَابُهُ النُّورُ؛ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»؛ وهذا فيه إثبات الوجه صفةً لله، وإثبات البصر صفةً لله عَزَّوَجَلَّ، وإثبات السُّبُحات للوجه صفةً للوجه، وسُبُحات الوجه: أي بهاؤه وجمالُه.

قال: «**حِجَابُهُ النُّورُ**»؛ والضَّمير عائد إلى الله، وهذا فيه إثبات الحجاب

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

وذكر الحكمة منه؛ قال: «**لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»، وبصره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ محيطٌ بجميع المخلوقات العُلْويَّة والسُّفليَّة؛ فلو كُشف الحجاب لأحرق العالم العُلويَّ والسُّفليَّ؛ لكن حجابه النُّور.

ويوم القيامة يعطي سبحانه المؤمنين حياةً وقوَّةً أكمل من هذه الحياة؛ يتمكَّنون بها من نيل شرف رؤية الله؛ ولهذا جاء في صحيح مسلم أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ؛ يَقُولُ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: «**تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟**» **فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ** عَزَّوَجَلَّ»[(١)].

الحاصل: أنَّ هذا حديثٌ عظيمٌ جليلُ القدر، كبير الفائدة، ينبغي على المسلم أن يُعنى بفهمه فهمًا صحيحًا؛ يثمر عملًا رشيدًا، وطاعة زاكية، وحسنَ تقرُّبٍ لله سبحانه.

(١) أخرجه مسلم (١٨١).

٩
حديث: «إنَّ للّه تسعة وتسعين اسمًا»

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ لِلهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا؛ مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا؛ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[١].

إنَّ من مقامات الدِّين العظيمة، ومنازله العالية الرَّفيعة: معرفةَ الرَّبِّ العظيم، والخالق الجليل؛ بمعرفة أسمائه الحسنى، وصفاته العُلا، وما تعرَّف به إلى عباده في كتابه، وسُنَّة رسوله ﷺ، بل إنَّ هذا أساسٌ من أسس الدِّين العظيمة، وأصلٌ من أصول الإيمان المتينة، وقِوام الاعتقاد وأصلُه وأساسُه.

وحينما يعرف المخلوق خالقه، وربَّه، وسيِّده، وبارئه، ومولاه؛ فيتعَرَّف على عظمته، وجلاله، وجماله، وكبريائه، ويتعَرَّف على أسمائه الحسنى، وصفاته العُلا في ضوء كتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ؛ **يُحَقِّق بذلك إيمانه.**

وفي القران آياتٌ متكاثرة، ونصوصٌ متضافرة، فيها الدَّعوة إلى معرفة الله، ومعرفة أسمائه الحسنى، وصفاته العُلا، وبيان ما يترتَّب على هذه المعرفة من الآثار الحميدة، والعواقب الرَّشيدة، والمآلات الطَّيِّبة؛ يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

[الأعراف: ١٨٠]، ويقول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، ويقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]، ويقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٣ - ٢٤].

بل جاء في القرآن الكريم آياتٌ صريحة فيها الدَّعوة إلى تعلُّم الأسماء والصِّفات ومعرفتها، ومعرفة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بها، وفي القرآن الكريم قرابة الثَّلاثين آية فيها الدَّعوة إلى العلم بأسماء الله وصفاته؛ كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤]، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمَّد: ١٩]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطَّلاق: ١٢]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

إنَّ معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العظيمة؛ بابٌ شريفٌ من العلم، له الأثر البالغُ على مَن اعتنى به وفَهِمَه، وهو من أعظم أسباب دخول الجنَّة كما تقدَّم في الحديث: «**مَنْ أَحْصَاهَا؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ**».

ولا ريب أنَّ هذا الفضل العظيم المترتِّب على إحصاء هذا العدد من

أسماء الله؛ يحرِّك في النَّفس الجِدَّ في نيل هذا المطلب العظيم، والسَّعي في تكميله، والحرص الشَّديد على تحقيقه.

ولقد نبَّه العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: أنَّه ليس المرادُ بإحصاء أسماء الله عَدَّ حروفها فقط، بلا فقهٍ لها أو عملٍ بها؛ بل لا بدَّ في ذلك من فهم معناها والمراد بها فهمًا صحيحًا سليمًا، ثمَّ العمل بما تقتضيه.

قال أبو عمر الطّلمنكيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «من تمامِ المعرفةِ بأسماء الله تعالى وصفاتِه الَّتِي يستحقُّ بها الدَّاعي والحافظ ما قال رسول الله ﷺ: المعرفة بالأسماء والصِّفات وما تتضمَّن من الفوائد، وما تدلُّ عليه من الحقائق، ومَن لم يعلم ذلك؛ لم يكن عالمًا لمعاني الأسماء، ولا مستفيدًا بذكرها ما تدلُّ عليه من المعاني»[(١)].

فنبَّه رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أنَّ تمام المعرفة بالأسماء الحسنى، والَّتِي ينال الدَّاعي بها لله بها هذا الثَّواب العظيم الوارد في الحديث: إنَّما يكون بالمعرفة بالأسماء، وبما تتضمَّنه من الفوائد، وما تدلُّ عليه من الحقائق، لا عدُّها فقط دون فهمٍ لها، أو علم بما تدلُّ عليه.

وذكر ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ لإحصاء أسماء الله الحسنى ثلاثَ مراتبَ، بتكميلها وتحقيقها ينال العبدُ ثوابَ الله العظيم المذكور في حديث رسول الله ﷺ المتقدِّم:

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

(١) انظر: التَّوضيح والبيان لابن سعديٍّ (ص٢٦).

المرتبة الثَّانية: فهم معانيها ومدلولاتها.

المرتبة الثَّالثة: دعاء الله بها، وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة.

فبتحقيق هذه المراتب الثَّلاثة العظيمة يكون الإحصاء الصَّحيح لهذا القدر من أسماء الله الحسنى.

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لمَّا كان هذا النَّوع هو أصلُ الإيمان بالغيب، وأعظمُه وأجلُّه؛ قال النَّبِيُّ ﷺ في الحديث الصَّحيح: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِئَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»؛ أي: ضَبَطَ ألفاظها، وأحصى معانيها، وتعقَّلها في قلبه، وتعبَّد الله بها، وتقرَّب بمعرفتها إلى ربِّ العالمين»[(١)].

وعليه؛ فإنَّ من أنفع ما يكون للعبد في هذا الباب: مطالعةُ مُقتَضَيَات الأسماء الحسنى، والتَّأمُّل في موجبَاتِها؛ فإنَّ كلَّ اسمٍ من أسماء الله الحسنى يقتضي آثارَه من الخلق والتَّكوين.

فاسمه «الحميد المجيد»: يمنع تركَ الإنسان سدًى مهمَلًا معطَّلًا، لا يُؤمر ولا يُنهَى، ولا يُثاب ولا يُعاقب، **وكذلك اسمه «الحكيم»**: يأبى ذلك، **وكذلك اسمه «الملك»، واسمه «الحيُّ»**: يمنع أن يكون مُعطَّلًا من الفعل، بل حقيقة الحياة الفعل، فكُلُّ حيٍّ فعَّال، وكونه سبحانه خالقًا قيُّومًا من مُوجبَات حياته ومُقْتَضَيَاتها، **واسمه «السَّميع البصير»**: يوجب مسموعًا ومَرئيًّا، **واسمه «الخالق»**: يقتضي مخلوقًا، **وكذلك «الرَّزَّاق»، واسمه «الملك»**: يقتضي مملكةً،

(١) انظر: التَّوضيح والبيان لابن سعديٍّ (ص٢٦).

وتصرُّفًا، وتدبيرًا، وإعطاءً، ومنعًا، وإحسانًا، وعدلًا، وثوابًا، وعقابًا، **واسم «البَرُّ المحسن المعطي المنَّان»** ونحوها: تقتضي آثارَها وموجَبَاتِها، **واسم «الغفَّار التَّوَّاب العفُوُّ»**: يقتضي وجودَ جناية من الأمم تُغفَر، وتوبةً تُقبَل، وذنوبا يُعفَى عنها، وهكذا الشَّأن في جميع أسمائه الحسنى.

ومن تأمَّل في سريان آثار الأسماء والصِّفات في الأمر والعالم؛ هداه إلى الإيمان بكمال الرَّبِّ سبحانه في أسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وأفعاله الحميدة، وأنَّه سبحانه له في كلِّ ما قضاه وقدَّره الحكمةُ البالغةُ، والآياتُ الباهرةُ، والتَّعرُّفات إلى عباده بأسمائه وصفاته، واستدعاءُ محبَّتهم له وذكرهم له، وشكرِهم له، وتعبُّدهم له بأسمائه الحسنى.

فكلُّ اسمٍ له تعبُّدٌ مُختَصٌّ به علمًا ومعرفةً وحالًا، ولا يتحقَّق شيءٌ من هذا إلَّا بمثل هذا النَّظر والتَّدبُّر النَّافع في كلِّ اسمٍ وما يقتضيه، وأكملُ النَّاس عبوديَّةً: المُتعبِّد بجميع الأسماء والصِّفات، الَّتي يطَّلِعُ عليها البشر، فلا تحجُبُه عبوديَّةُ اسمٍ عن عبوديَّةِ اسمٍ آخر؛ كمَن يحجبه التَّعبُّد باسمه القدير عن التَّعبُّد باسمه الحليم الرَّحيم، أو يحجبُه عبوديَّة اسمِه المعطي عن عبوديَّة اسمه المانع، أو التَّعبُّد بأسماء التَّودُّد والبِرِّ واللُّطف والإحسان عن أسماء العدل والجبروت والعظمة والكبرياء ونحو ذلك.

وهذه طريقة الكُمَّل من السَّائرين إلى الله، وهي طريقة مُشتقَّة من القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والدُّعاء بها يتناول دعاءَ المسألة، ودعاءَ الثَّناء، ودعاءَ التَّعبُّد، وهو سبحانه يدعو عباده

إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويُثنُوا عليه بها، ويأخذوا بحظِّهم من عبوديَّتها، وهو جَلَّوَعَلَا يحبُّ أسماءه وصفاته، ويحبُّ ظهورَ آثارها في خلقه؛ فإنَّ ذلك من لوازم كماله، وفتح سبحانه لعباده أبواب معرفته، والتَّبصُّر بأسمائه وصفاته.

وكلُّ اسمٍ من أسماء الله وكلَّ صفة من صفاته له عبوديَّةٌ خاصَّةٌ هي من مُقتَضَيَاتِها، ومن موجبات العلم بها، والتَّحقُّق بمعرفتها، وهذا مُطَّرِدٌ في جميع أنواع العبوديَّة الَّتي على القلب والجوارح، **وبيان ذلك**: أنَّ العبد إذا علم بتفرُّد الرَّبِّ تعالى بالضُّرِّ، والنَّفع، والعطاء، والمنع، والخلق، والرِّزق، والإحياء، والإماتة؛ فإنَّ ذلك يثمرُ له عبوديَّةَ التَّوكُّل على الله باطنًا، ولوازم التَّوكُّل وثمراته ظاهرًا.

قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشُّعراء: ٢١٧]، وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النِّساء: ٨١].

وإذا علم العبد بأنَّ الله سميعٌ بصيرٌ عليمٌ، لا يخفى عليه مثقالُ ذرَّة في السَّموات والأرض، وأنَّه يعلم السِّرَّ وأخفى، ويعلم خائنةَ الأعين وما تُخفي الصُّدور، وأنَّه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا، وأحصى كلَّ شيءٍ عددًا؛ فمَن علم باطِّلاع الله عليه ورؤيته له وإحاطته به؛ فإنَّ ذلك يثمرُ له **حفظَ** اللِّسان، والجوارح، وخطرات القلب؛ عن كلِّ ما لا يُرضي الله، **وجَعْلَ** تعلُّقات هذه الأعضاء بما يحبُّه الله ويرضاه.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، وقال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فُصِّلت: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، فلا ريب أنَّ هذا العلم يورث في العبد خشية الله، ومراقبته، والإقبال على طاعته، والبعد عن مناهيه.

وإذا علم العبد بأنَّ الله غنيٌّ كريمٌ، بَرٌّ رحيمٌ، واسع الإحسان، وأنَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -مع غناه عن عباده- فهو محسنٌ إليهم، رحيمٌ بهم، يريد بهم الخير، ويكشف عنهم الضرَّ، لا لجلب منفعةٍ إليه من العبد، ولا لدفع مضرَّةٍ؛ بل رحمةً منه وإحسانًا؛ فهو سبحانه لم يخلق خَلْقه ليتكثَّر بهم من قلَّة، ولا ليعتزَّ بهم من ذلَّة، ولا ليرزقوه، ولا لينفعوه، ولا ليدفعوا عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذَّاريات: ٥٦ - ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١]، وقال تعالى فيما رواه عنه رسوله ﷺ: «**يا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضرِّي فتَضُرُّونِي، ولَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي**»(١).

فإذا علم العبد ذلك: أثمر فيه قوَّةَ رجائه بالله، وطمعَه فيما عنده، وإنزالَ جميع حوائجه به، وإظهارَ افتقاره إليه، واحتياجه له ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، والرَّجاء يُثمِرُ أنواع العبوديَّة الظَّاهرة والباطنة؛ بحسب معرفة العبد وعلمه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

وبهذا يُعلَم أنَّ العبوديَّة بجميع أنواعها راجعةٌ إلى مُقتَضَيَاتِ الأسماء والصِّفات؛ ولهذا فإنَّه يتأكَّد على كلِّ عبدٍ مسلمٍ أن يعرِفَ ربَّه، ويعرِفَ أسماءه وصفاته؛ معرفةً صحيحةً سليمةً، وأن يعلم ما تضمَّنتْه وآثارَها، وموجبات العلم بها؛ فبهذا يعْظُم حظُّ العبد، ويكمُلُ نصيبه من الخير.

١٠

حديث: «أتدري ما حقُّ الله على العباد؟»

عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ: عُفَيْرٌ، فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ! هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟**» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ: أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: «**لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**»(١).

هذا حديثٌ عظيمُ الشأن، وعليه مدار الإسلام في بيان أصلٍ من أصول الإيمان، وأساسٍ عليه مدار دين الله؛ ألا وهو إفراد الله وحده بالعبادة، وهذا حقُّ الله سبحانه على عباده من أوَّلهم إلى آخرهم؛ ولأجله خَلَقَ اللهُ الجنَّ والإنس؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات: ٥٦]، وهو أوَّلُ الحقوق وآكَدُها وأعظمُها وألزمُها لصلاح البشريَّة، وهو الَّذي لأجله شرعت الشَّرائع، وبوجوده صلاح العباد، وبفقده يكون الشَّرُّ والفساد، وهو زبدة دعوة الرُّسل، وغاية رسالتهم؛ كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النَّحل: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَآ

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٨٥٦)، واللَّفظ له، ومسلم (٣٠).

أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

قوله: «**هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟**» هذه طريقة نافعة في التَّعليم، كثيرًا ما تتكرَّر في أحاديث النَّبِيِّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ يلقي العلم على طريقة السُّؤال؛ ليشدَّ الذِّهن لتَلَقِّي الفائدة، وليهيِّئ نفسَ سامعِهِ والمتلقي عنه؛ لاستيعاب ما يقال.

قوله: «**قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**»: هذا فيه كمالُ أدبِ الصَّحابة، وحُسنِ طريقتهم، وبُعدهم عن الخوض فيما لا علم لهم به؛ فما كان الواحد منهم يخوض في شيء من أمر الدين بدون علم.

قوله: «**حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»: هذا حقٌّ واجبٌ، وفرضٌ لازمٌ، خَلَقَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الخلق لأجله، وأوجدَهم لتحقيقه، ولا يسعُ أيَّ أحدٍ من النَّاس تَرْكُه، **وهو يتضمَّن أمرين:**

الأوَّل: فعل العبادة، والقيام بها، وإفراده سبحانه بها؛ «**أَنْ يَعْبُدُوْهُ**» وهذا فيه تعلُّم العبادة، والتَّوحيد ليعمل به العبد.

الثَّاني: البُعد عن الشِّرك، والسَّلامة من الوقوع فيه، «**وَلَا يُشْرِكُوْا بِهِ شَيْئًا**»، والنَّكرة في سياق النَّفي تعُمُّ؛ أي: لا يشرَك به أيَّ شيءٍ من الشِّرك؛ قليل أو كثيرٍ، صغيرٍ أو كبيرٍ، وهذا فيه أهمِّيَّة معرفة الشِّرك؛ ليُحذَرَ ويُتَّقى؛ لأنَّ في معرفته معونة على الحذر منه.

قوله: «**وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»: هذا حقٌّ

أوجبه الله على نفسه تفضُّلًا وتكرُّمًا منه على عباده، وهذا فيه فضيلة التَّوحيد، وأنَّ مَن لا يشرك بالله شيئًا لا يُعَذِّبه الله.

ويأتي في هذا المعنى أحاديث كثيرة؛ مثل قوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**».

وقول الله في الحديث القدسيِّ: «**يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا؛ لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»(١).

قوله: «**أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟**»: هذه بشارةٌ عظيمةٌ، وأمر مُفرِحٌ للغاية؛ فمعاذ من صغار الصَّحابة، وبمُجَرَّد أنْ سَمِعَ هذا الَّذي سرَّه؛ استأذن من النَّبِيِّ ﷺ أن يُبَشِّر به النَّاس، وفي هذا استحباب بشارة المسلم بما يسرُّه.

قوله: «**لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوْا**»: أي يتَّكلوا على الفضل والرَّحمة الَّتي تضمَّنتها هذه البشارة العظيمة الَّتي ذكرها النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويحصل منهم نوعٌ من التَّراخي والفتور عن العمل، وفي رواية: «فأخبَر بها معاذٌ عند موته تأثُّمًا»(٢)؛ أي: تحرُّجًا من الإثم.

وفي الحديث: فقه معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وفضيلته؛ حيث خصَّه النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذا الأمر، وأخبره بهذا الخبر.

وقد تبيَّن في هذا الحديث: فضلُ التَّوحيد، ومكانته العظيمة، وما فيه من مغفرة الذُّنوب وتكفير السَّيِّئات، وهذا من بعض فضائله وآثاره.

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٥٤٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ (١٢٨)، ومسلم (٣٢)، واللَّفظ له.

ومن فضائله: أنَّه السَّبب الأعظم لتفريج كربات الدُّنيا والآخرة، ودفع عقوباتهما.

ومن أجلِّ فوائده: أنَّه يمنع الخلود في النَّار إذا كان في القلب منه أدنى مثقال حبَّةٍ خردل، وأنَّه إذا كَمُلَ في القلب يمنع دخول النَّار بالكُلِّيَّة.

ومنها: أنَّه يحصل لصاحبه الهدى الكامل، والأمن التَّامُّ في الدُّنيا والآخرة.

ومنها: أنَّه السَّبب الوحيد لنيل رضا الله وثوابِه، وأنَّ أسعدَ النَّاس بشفاعة محمَّد ﷺ مَن قال: لا إله إلَّا الله خالصًا من قلبه(١).

ومن أعظم فضائله: أنَّ جميع الأعمال والأقوال الظَّاهرة والباطنة متوقِّفة في قبولها، وفي كمالها، وفي ترتُّب الثَّواب عليها على التَّوحيد.

فكلَّما قَوِيَ التَّوحيد والإخلاص لله؛ كَمُلَت هذه الأمور وتمَّت.

ومن فضائله: أنه يَسهُلُ على العبد فعلَ الخير، وتَرْكَ المنكرات، ويسلِّيه عن المصيبات؛ فالمخلص لله في إيمانه وتوحيده تخفُّ عليه الطَّاعات؛ لِمَا يرجو من ثواب ربِّه ورضوانه، ويهون عليه تَرْك ما تهواه النَّفس من المعاصي؛ لِمَا يخشى من سخطه وعقابه.

ومنها: أنَّ التَّوحيد إذا كَمُلَ في القلب حَبَّب الله لصاحبه الإيمان، وزيَّنه في قلبه، وكَرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجَعَلَه من الرَّاشدين.

---

(١) أخرج البخاريُّ (٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أسْعَدُ النَّاسِ بشَفاعَتي يومَ القِيامَةِ، مَن قالَ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، خالِصًا مِن قَلْبِهِ**».

ومنها: أنَّه يخفِّف على العبد المكاره، ويهوِّن عليه الآلام؛ فبحسب تكميل العبد للتَّوحيد والإيمان: يتلقَّى المكاره والآلام بقلبٍ منشرحٍ، ونفسٍ مطمئنَّةٍ، وتسليمٍ ورضًى بأقدار الله المؤلمة.

ومن أعظم فضائله: أنَّه يحرِّر العبد من رقِّ المخلوقين، والتَّعلُّق بهم، وخوفهم، ورجائهم، والعمل لأجلهم، وهذا هو العزُّ الحقيقيُّ، والشَّرف العالي، ويكون مع ذلك متألِّهًا متعبِّدًا لله، لا يرجو سواه، ولا يخشى إلَّا إيَّاه، ولا ينيب إلَّا إليه، وبذلك يتمُّ فلاحه، ويتحقَّق نجاحه.

ومن فضائله الَّتي لا يلحقه فيها شيء: أنَّ التَّوحيد إذا تمَّ، وكَمُلَ في القلب، وتحقَّق تحقُّقًا كاملًا بالإخلاص التَّامِّ؛ فإنَّه يصيِّر القليل من عمله كثيرًا، وتُضَاعَفُ أعمالُه وأقوالُه بغير حصرٍ ولا حساب، ورَجَحَت كلمة الإخلاص في ميزان العبد؛ بحيث لا تقابلها السَّماواتُ والأرضُ، وعُمَّارُها من جميع خلق الله؛ كما في حديث البطاقة[1] الَّتي فيها: «لا إله إلَّا الله» الَّتي وَزَنَت تسعةً وتسعين سِجِلًّا من الذُّنوب، كلُّ سجلٍّ يَبلُغ مدَّ البصر؛ وذلك لكمال إخلاص قائلها، وكم ممَّن يقولها ولا تبلغ هذا المبلغ؛ لأنَّه لم يكن في قلبه من التَّوحيد والإخلاص الكامل مِثْلٌ ولا قريبٌ ممَّا قام بقلب هذا العبد.

ومن فضائل التَّوحيد: أنَّ الله تكَفَّل لأهله بالفتح والنَّصر في الدُّنيا، والعزِّ، والشَّرفِ، وحصولِ الهداية، والتَّيسيرِ لليسرى، وإصلاحِ الأحوال، والتَّسديدِ في الأقوال والأفعال.

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٦٣٩) واللَّفظ له، وأحمد (٦٩٩٤).

ومنها: أنَّ الله يدافع عن المُوَحِّدين -أهلِ الإيمان- شرورَ الدُّنيا والآخرة، ويمُنُّ عليهم بالحياة الطَّيِّبة، والطُّمأنينة إليه، والطُّمأنينة بذكره.

والتَّوحيد: هو لبُّ القرآن؛ فالقرآن كلُّه في التَّوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشِّرك وأهله وجزائهم؛ فقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ توحيد، ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ توحيد ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ توحيد ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ توحيد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ توحيد ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيد ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ توحيدٌ متضمِّن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التَّوحيد؛ الَّذِين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضَّالين الَّذِين فارقوا التَّوحيد؛ ولذلك شهد الله لنفسه بهذا التَّوحيد، وشهد له به ملائكتُه، وأنبياؤه، ورسلُه؛ قال سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عمران: ١٨-١٩].

إنَّ الواجب على العبد: أن يكون توحيدُ الله في مقدَّم أولويَّاته، وأعظمِ اهتماماته، وإنَّ من أنفَعِ ما يكون في إصلاح قلبه: دوام النَّظر في قيامه بهذا الحقِّ العظيم الَّذِي أوجبه الله على العباد.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن أنفَعِ ما للقلب: النَّظرُ في حقِّ الله على العباد؛ فإنَّ ذلك يورثُه مَقتَ نفسه، والإزراءَ عليها، ويخلِّصُه من العجب ورؤيةِ العمل، ويفتحُ له بابَ الخضوع والذُّلِّ والانكسار بين يدي ربِّه، واليأسِ من نفسه، وأنَّ النَّجاة لا تَحصُلُ له إلَّا بعفو الله ومغفرته ورحمته؛ فإنَّ من حقِّه أن يطاع ولا يعصى، وأن يُذكَرَ فلا ينسى، وأن يُشكَرَ فلا يُكفَر.

فمَن نظر في هذا الحقِّ الَّذِي لربِّه عليه: عَلِمَ عِلمَ اليقين أنَّه غيرُ مؤدٍّ له كما ينبغي، وأنَّه لا يسعُه إلَّا العفوُ والمغفرة، وأنَّه إن أُحيلَ على عمله هلَك؛ فهذا محلُّ نظر أهل المعرفة بالله تعالى وبنفوسهم، وهذا الَّذِي أيأسهم من أنفسهم، وعلَّق رجاءَهم كلَّه بعفو الله ورحمته.

وإذا تأمَّلتَ حال أكثر النَّاس؛ وجدتَهم بضدِّ ذلك؛ ينظرون في حقِّهم على الله ولا ينظرون في حقِّ الله عليهم، ومن ههنا انقطعوا عن الله، وحُجِبَت قلوبهم عن معرفته، ومحبَّته، والشَّوق إلى لقائه، والتَّنعُّم بذكره، وهذا غاية جهل الإنسان بربِّه وبنفسه.

فمحاسبة النَّفس: هو نظر العبد في حقِّ الله عليه أوَّلًا، ثمَّ نَظَرُهُ هل قام به كما ينبغي ثانيًا؟ وأفضلُ الفكر: الفكرُ في ذلك؛ فإنَّه يسيِّر القلب إلى الله، ويطرحه بين يديه ذليلًا خاضعًا منكسرًا كَسرًا فيه جبْرُه، ومفتقِرًا فَقرًا فيه غناه، وذليلًا ذلًّا فيه عزُّه، ولو عمل من الأعمال ما عساه أن يعمل فإنَّه إذا فاته هذا؛ فالَّذِي فاته من البِرِّ أفضل من الَّذِي أتى به»[1].

---

(١) «إغاثة اللَّهفان في مصائد الشَّيطان» (١/ ١٥١-١٥٢).

١١
حديث: «إذا قضى الله الأمر في السَّماء»

عن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إِنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا قَضَى اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقَّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**»(١).

هذا حديثٌ عظيمٌ من أحاديث الإيمان في بيان عَظَمَةِ الله وجلاله؛ بِذِكر شأن ملائكته الكرام معه إذا تكلَّم سبحانه بالوحي، وأنَّهم مع عِظَمِ خَلقِهم يُصعَقُون عند ذلك؛ خُضعانًا لقوله.

قوله: «**إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ**»؛ أي: إذا تكلَّم جَلَّ وَعَلَا بالأمر الَّذِي شاءه؛ من قضاءٍ كونيٍّ أو شرعيٍّ: «**ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ**»؛ أي: خاضعةً مُشفقةً متذلِّلةً من خشية الله، وخوفًا منه سبحانه؛ كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النَّحل: ٥٠].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٨٠٠).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا -أيضًا- مقام رفيع في العظمة؛ وهو أنَّه تعالى إذا تكَلَّم بالوحي، فسمع أهلُ السَّماوات كلامَه؛ أرْعَدُوا من الهيبة حتَّى يلحقهم مثل الغشيِّ؛ قاله ابن مسعود ومسروق، وغيرهما»(١).

قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] أي: حتَّى إذا زال الفزع، وذهب عن قلوب الملائكة، وأفاقوا من الغشيِّ والصَّعق الَّذي حصل لهم؛ يسألون جبريل: ماذا قال الله؟ فيقول لهم جبريل: قال الله كذا وكذا؛ أي: من الحقِّ.

وينبغي أن يُعلَم أنَّ هذه الآية جاءت في مساق إبطال الشِّرك، وإقامة البراهين على وجوب توحيد الله، وإخلاص الدِّين له سبحانه؛ ولهذا: فإنَّ من تمام فهمها؛ فَهْمُ السِّياق الَّذي وردت فيه، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ قبلَها: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ فيه دليل أنَّ الملائكة لهم قلوب، ووُصِفَت قلوبُهم بأنَّها تُصَاب بالفزع، والفزع: هو شدَّة الخوف، وإذا زال الفزع الَّذي حصل لقلوبهم بسبب تكلُّم الله بالأمر، وأفاقوا من الغشيِّ الَّذي أصابهم؛ يكون أوَّلُ مَن يفيق: جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ثمَّ يبلِّغُه الله سبحانه ما يبلِّغُه من الوحي، ثمَّ ينزل به عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ فلا يمرُّ على ملائكة إلَّا وسألوه: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡ﴾.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٧٩).

روى ابن أبي عاصم في «السُّنَّة»[١] عَنِ النَّوَّاسِ بنِ سمعانَ الكِلابيِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُوحِيَ بِأَمْرٍ؛ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، فَإِذَا تَكَلَّمَ أَخَذَتِ السَّمَاوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ مِنْ خَوْفِ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ، **فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ صُعِقُوا وَخَرُّوا سُجَّدًا؛ فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **فَيُكَلِّمُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، فَيَنْتَهِي بِهِ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ قَالَ أَهْلُهَا: (مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيل؟)، فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: (قَالَ الْحَقَّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)، قَالَ: فَيَقُولُونَ -كُلُّهُمْ- مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِمْ جِبْرِيلُ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**».

والإيمان بالملائكة: أصلٌ من أصول الإيمان العظيمة، ويأتي في القرآن في مواضعَ منه تابعًا للإيمان بالله؛ كما في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهم خلقٌ من خلْقِ الله عَزَّوَجَلَّ، وجُنْدٌ من جُنودِه، لا يَعصُون اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ما أمَرَهم ويفعلون ما يُؤمَرون، لا يَعلَمُ عدَّتَهم إلَّا الَّذِي خَلَقَهم سبحانه.

ويجب الإيمان بهم عمومًا؛ بأسمائهم، ووظائفهم، وأوصافهم، وأعدادهم؛ الواردة في الكتاب والسُّنَّة؛ إجمالًا فيما أُجمِلَ، وتفصيلًا فيما فُصِّل؛ بل الإيمان بهم ركنٌ من أركان الإيمان، وأصلٌ من أصوله العظام.

فمثلًا: أسماء الملائكة؛ لَم يُذكَرْ في النُّصوص إلَّا أسماءُ بعضِهم؛ مثل:

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السُّنَّة (٥١٥).

جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومالك، ومُنكَر، ونَكِير؛ **فهذه الأسماءُ التَّفصيليَّةُ الَّتِي ورَدَتْ فِي الكتاب، أو ورَدَتْ في السُّنَّة**: نؤمنُ بها تفصيلًا كما وردت، **وما لم يأْتِ من أسمائهم تفصيلًا**: نُؤمنُ به إجمالًا؛ فنؤمن أنَّ لله عَزَّوَجَلَّ ملائكة، ولهم أسماءٌ اللهُ أعلَمُ بها، ونؤمن كذلك بالأسماء الَّتِي تشملهم كلَّهم؛ مثل: الملائكة؛ وقد ورد هذا الاسم في القرآن في ستِّين موضعًا، والكرامِ البَرَرَة، ورُسُل الله، والسَّفَرَة، فكلُّ ما جاء تفصيلًا عن المَلائكة فيما يتعلَّق بأسمائهم: نؤمن به.

وأمَّا أوصاف الملائكة: فنُؤمنُ تفصيلًا بما جاءت به النُّصوص؛ مُفصِّلةً في ذكر أوصاف الملائكة، وما لم يَأْتِ من التَّفَاصيل في أوصافهم: نؤمن به إجمالًا، ولا نخوض في تفاصيل لا دليلَ عليها من كتابٍ ولا سنَّةٍ.

وَمِنْ أوصاف المَلائكة عَلى وَجه التَّفصيل: مَا جَاء فِي الحَديث الصَّحيح عَن نبيِّنا ﷺ أنَّه قال: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ؛ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ**».

وَهذا فيه إثبات العَاتِقِ، والأذُنِ وشَحْمَةِ الأذُنِ، وَعِظَمِ الخلق.

وَمِنْ أوصافهم: أنَّهم خُلقوا من نُور؛ كمَا في الحديث عَن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**خُلِقَتِ المَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ**»[١].

وأنَّ لَهُمْ أَجْنِحَةً: قال الله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ [فاطر: ١]. وقال عبد اللهِ بن مسعود: «**رَأَى رَسُولُ اللهِ**

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٨).

ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ»(١).

فهُم خلقٌ عظيم، لهم أوصافٌ عظيمةٌ تدلُّ على عَظَمَةِ هذه المخلوقات، وقوَّتِها، وكِبَرِ أجسامها.

وأمَّا أعدادُ الملائكة إجمالًا: فنؤمنُ بأنَّ عدَدَهم لا يُحصيه إلَّا الَّذِي خلقَهم ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وممَّا يدلُّ على هذه الكثرةِ العَظيمةِ للمَلائكة: قصَّةُ الإسراء بالنَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حيث قال: «**ثُمَّ رُفِعَ لِي البَيْتُ المَعْمُورُ، فَقُلْتُ: «يا جِبْرِيلُ! مَا هَذَا؟» قَالَ: هَذَا البَيْتُ المَعْمُورُ، يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ**»(٢).

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ؛ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للهِ**»(٣).

وتفصيلًا: نؤمنُ بالأعداد المُتعَلِّقَةِ بالمَلائكة على التَّفصيل كما ورَدت؛ كقول الله سبحانه: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقَّة: ١٧]، وقول النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا**»(٤).

وأمَّا وظائفُ الملائكة وأعمالهم إجمالًا: فهُم جُنْدٌ لله عَزَّوَجَلَّ، وَعبادٌ

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧٤٨) و(٣٩١٥).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤)، واللَّفظ له.
(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٩٠)، والتِّرمذيُّ (٢٣١٢)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٤) أخرجه مسلم (٢٨٤٢).

مُكرَمون، وكلٌّ منهم قائمٌ بما يَأمُره اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به أتمَّ قيام، ليس فيهم مَنْ يعصي اللهَ في أمرِه ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [البينة: ٦].

وَتفصيلًا: نؤمن بوظائفهم الَّتِي جاء تِبيَانُها في الكتاب والسُّنَّة؛ فَمن الملائكة مَنْ هو **مُوكَّلٌ بالوحي**؛ قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [الشُّعراء: ١٩٣-١٩٤].

وَمنهم مَنْ هُو **مُوكَّلٌ بقبضِ الأرواح**؛ ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ [السَّجدة: ١١]، ومنهم مَن هُو **مُوكَّلٌ بحفظ العبد**؛ ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرَّعد: ١١]، وَمنهم مَن هُو **مُوكَّلٌ بالكتابة**، ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١]، ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨]، ومنهم مَن هو **مُوَكَّلٌ بالقَطْرِ**، إلى غير ذلك من وظائف الملائكة الَّتِي جاءت تفاصيلها في كتابِ الله وسُنَّة نبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فكلُّ ذلك نُؤمنُ به.

ومن ذلك أيضًا: ما جاء في الحديث؛ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»(١).

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا؛ سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) أصله عند مسلم (٢٦٩٩)، وأخرجه بهذا اللَّفظ ابن ماجه (٢٢٣)، وأبو داود (٣٦٤١)، والتِّرمذيُّ (٢٦٨٢)، وصحَّحه الألبانيُّ.

فطالب العلم يمشي إلى حِلَقِ العلم ويجلس فيها، ولا يرى الملائكةَ وهي تضع أجنحَتَها لطالب العلم، ولا يراهم وهم يحفُّون مَجلسَ العلم بأجنحَتِهم، لكنَّه يُؤمنُ بذلك، وهو منه على يقينٍ؛ لخبر الصَّادق المصدوق، وهذا الإيمان له أثرُه على العبد، وله وَقْعُه في النُّفوس؛ حيث يَستَشْعِرُ العبدُ في طلبه للعلم هذه الكرامةَ العظيمةَ؛ تشريفًا لطلب العلم، ورضًا بما يصنع.

الحاصل: أنَّ الإيمان بهم أحد أصول الإيمان العظيمة؛ بل لا يتِمُّ الإيمان بالله وكتبه ورسله إلَّا بالإيمان بهم، وقد وصفهم الله بالصِّفات العظيمة، وأنَّهم في غاية القُوَّة على عبادة الله، والرَّغبة العظيمة فيها، وأنَّهم يُسَبِّحون اللَّيل والنَّهار لا يفترون، وأنَّهم لا يستكبرون عن عبادته، ويرونها من أعظم نِعَمِه عليهم، وأنَّهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؛ كما قال الله سبحانه: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨]، وقال سبحانه: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحريم: ٦].

١٢
حديث: «اللَّهم لك الحمد أنت نور السَّموات والأرض» (١)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا تَهَجَّدَ مِنَ اللَّيْلِ قَالَ: «**اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ الْحَقُّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ، وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ، وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**». رواه البخاريُّ[(١)]، وَزَادَ في رواية: «**وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»[(٢)].

هذا متنٌ عظيمٌ جامعٌ مشتَمِلٌ على اثنتين وعشرين جملةً، كان نبيُّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يكرِّره كلَّ ليلة يستفتح به صلاتَه من اللَّيل، وما مِن ريبٍ أنَّ هذه العنايةَ المستمرَّة بهذه الكلمات العظيمات -استفتاحًا لصلاة اللَّيل بها-: تدلُّ على عِظم شأنها، وجلالة قَدْرها؛ لاسيَّما إذا كانت في جوف اللَّيل، وهَدأة

(١) أخرجه البخاريُّ (٧٤٩٩)، ومسلم (٧٦٩).
(٢) أخرجه البخاريُّ (١١٢٠).

الخلق، وسُكون الكَون، وهو وقتُ قُرب ورَحمة، تُفتَح فيه أبوابُ السَّماء بالرَّحماتِ، ويَنزِلُ فيه الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلى سَماء الدُّنيا بالعَطايا والهباتِ؛ فيقف هذا العبد الصَّالح النَّاصح بين يدي ربِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في هذا الوقتِ الشَّريفِ الفاضِل ليُصَلِّي تلك الصَّلاة العظيمة؛ وهي خير الصَّلوات، وأحَبُّها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد الصَّلاة المكتوبة؛ فيستفتح صلاته من اللَّيل بهذه الكلمات العظيمات؛ الَّتِي كلُّها إيمانٌ، واعتقادٌ، وتوحيدٌ، وإخلاصٌ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ممَّا يكونُ له الأثر البالغُ في تقويةِ الإيمان، وترسيخ الاعتقَاد، وتثبيتِ التَّوحيد.

وهذه الكلمات الَّتِي جاءت في هذا الحديث العظيم -حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فيما كان يقوله نبيُّنا ﷺ إذا قام من اللَّيل يتهجَّد-: تدلُّنا دلالةً واضحةً على أهمِّيَّة استذكار المسلم لأصول الإيمان، وعقائد الدِّين، واستحضاره لها؛ عملًا على تجديد الإيمان، وتقويته، وتمتِينِه؛ بحيث لا يزداد مع مضيِّ الأيَّام إلَّا قُوَّةً وثباتًا، والأذكار الشَّرعيَّة المأثورة عن نبيِّنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه تأتي لتُجَدِّد هذا الإيمان، وتقوِّي هذه العقيدة، وترسِّخ هذه الأصول العظيمة المباركة في قلب المسلم، وفي الحديث يقول النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ؛ فَاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ»**(١).

وهذه الكلمات العظيمات في هذا الاستفتاح المبارك تحقِّق هذه المعاني تحقيقًا عظيمًا، وتقوِّي هذه العقيدة، وتمتِّنها في القلب تمتينًا عجيبًا؛ فجديرٌ

(١) أخرجه الطَّبَرانِيُّ في «المعجم الكبير» (١٤٦٦٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ في «صحيح الجامع» (١٥٩٠).

بالمسلم أن يحفظها عن ظهر قلب، وأن يحرص على أن يكون له حظٌّ من صلاة اللَّيل يستفتحها بهذه الكلمات العظيمة المباركة المأثورة عن النَّبِيِّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

وممَّا ينبِّه عليه العلماء في هذا المقام: أهمِّيَّة استحضار معاني الأذكار الشَّرعيَّة ودلالاتها؛ حتَّى تكون قويَّةَ الأثر، محققَّةَ النَّفع والفائدة، أمَّا إذا كان يقولها ألفاظًا لا يعي معناها، ولا يدري مدلولها ؛فإنَّها -كما قال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ- تكون ضعيفة الأثر، إن لم تكن عديمة الأثر.

بدأ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هذه الكلمات في مناجاة ربِّ الأرض والسَّماوات سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوله: «**اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ**»؛ وهذا بدأ بحمد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، **والحمد**: هو الثَّناء على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بما هو أهله، مع الحبِّ له جلَّ في علاه؛ فالحمد ثناءٌ وحبٌّ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحمَد على الأسماء والصِّفات، ويُحمد على النِّعَم والعطايا والهِبَات؛ فمِن أمثلة حمده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **على أسمائه وصفاته** هذا الحديث؛ حمَده عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على قيوميَّته، وعلى أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نور السَّماوات والأرض ومَن فيهنَّ، وأنَّه له ملك السَّماوات والأرض ومَن فيهنَّ.

ومن أمثلة حمد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **على النِّعم والهبات** قول نبيِّنا ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**»[(١)].

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٤).

فهو عَزَّوَجَلَّ أهلُ الحمد والثَّناء جلَّ في علاه، وفي هذا الاستفتاح تكرُّرُ الحمدِ بتكرُّر ما يُحمَد عليه الرَّبُّ من الأسماءِ والصِّفات؛ ممَّا يدلُّ على أنَّ علْمَ العبد بها علمًا صحيحًا من أعظم مُوجبات قيامه بحمد الله على أحسن وجه، وفي تكرير الحمد -أيضًا- اهتمامٌ بشأنه، وليُناط به كلَّ مرَّةٍ معنًى آخر؛ ممَّا يدلُّ على تنوُّع موجبات الحمدِ وتعدُّدِها.

وقوله: «**أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ**» أي: القائم بشؤون السَّماوات والأرض؛ تصريفًا، وتدبيرًا، وتسخيرًا، وعطاءً، ومنعًا؛ فالأمر بيد الرَّبِّ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ القيُّوم.

«**قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**»: أي أنَّ السَّماوات والأرض ومَن فيهنَّ؛ كلُّ هذه الكائنات قائمةٌ بأمر الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الرُّوم: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرَّعد: ٣٣].

ومن أسمائه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: «القيُّوم»، قد ورد في ثلاثة مواضع من القرآن، منها:

آية الكرسيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وفي أوائل آل عمران: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

وفي سورة طه: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

وفي هذا الاسم «القيُّوم» إثبات القَيُّوميَّة صفةً لله، وهي كونه سُبحانه قائمًا بنفسِه مقيمًا لخلقه.

وقوله: «وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ» فيه إثبات «النُّور» اسمًا لله عَزَّوَجَلَّ، وصفةً له سبحانه.

وممَّا يدلُّ عليه في تضمُّنه إثبات أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منير السَّماوات والأرض بقدرته: الإنارة الحسِّيَّة، والإنارة المعنويَّة؛ **فالله** عَزَّوَجَلَّ **نور** ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النُّور: ٣٥]، **وشرْعُه نور** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشُّورى: ٥٢]، **ورسوله نور**؛ لأنَّه يحمل النُّور والضِّياء ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦].

وقوله: «وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ» فيه إثباتُ أنَّ السَّماوات والأرض ومَن فيهنَّ؛ كلُّها مِلْكٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليس له عَزَّوَجَلَّ شريكٌ في الملك، ولا في مقدار ذرَّة؛ ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، فالمُلك كلُّه مُلكُ الله، وما يكون بأيدي النَّاس من مُلْكٍ إنَّما هو بتمليك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم، يعطي ويمنع عَزَّوَجَلَّ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

قوله: «وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ»؛ **الحقُّ**: اسمٌ من أسماء الله الحسنى؛ ومعناه: أي الَّذي لا شكَّ فيه ولا ريبَ، لا في ذاتِه، ولا في أسمائه وصفاتِه، ولا في ربوبيَّته، ولا في ألوهيَّته؛ فهو تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حقٌّ، وأسماؤه وصفاته حقٌّ، وأفعاله

وأقواله حقٌّ، ودينه وشرعه حقٌّ، وأخباره كلُّها حقٌّ، ووعده حقٌّ، ولقاؤه حقٌّ، وله وحده دعوةُ الحقِّ؛ فلا يُدعى إلَّا الله، ولا يُصرف شيء من العبادة إلَّا للحقِّ المبين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحجُّ: ٦٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرَّعد: ١٤].

قوله: «**وَوَعْدُكَ الحَقُّ**»؛ فلا يُخلِفُ الله الميعاد؛ بل يوفِّي عباده وأولياءَه وأصفياءَه بكلِّ ما وعدَهم به من عطايا، وهباتٍ، وخيراتٍ، وكراماتٍ، في الدُّنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النِّساء: ١٢٢]، ومن دعاء أُولي الألباب: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

قوله: «**وَقَوْلُكَ الحَقُّ**»؛ قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حقٌّ لا باطل فيه؛ كما قال الله سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلت: ٤٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا عن القرآن: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّساء: ٨٢]؛ فالله جَلَّ وَعَلَا قولُه كلُّه حقٌّ لا باطل فيه، تنزَّه وتقدَّس قولُه عن الباطل.

قوله: «**وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ**»؛ قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ

ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]؛ ومن عَلِمَ أنَّ لقاء الله حقٌّ؛ فليُعِدَّ لِهذا اللِّقاء عُدَّته، والله جَلَّ وَعَلَا يقول في آخر آية من سورة الكهف: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠]؛ وهذا يدلُّنا دلالةً بيِّنةً أنَّ إيمان العبد بلقاءِ الله واستحضارِه التَّامِّ لذلك يُثمر عملًا واستعدادًا وتزوُّدًا ليوم المعاد؛ ولهذا يقول مَن يؤتى كتابه بيمينِه: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقَّة:٢٠]، قاله في ذلكَ اليوم حينَ نجَا منَ الخِزي، وظَفَر بالفوز العظيم.

قوله: «**وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ**»؛ وهذا فيه الإيمانُ بالجنَّة، والإيمانُ بالنَّار؛ إيمانٌ بأنَّ الجنَّة حقٌّ أعدَّها الله لأوليائه وأصفيائه، وإيمانٌ بأنَّ النَّار حقٌّ أعدَّها الله لأعدائه.

وقد خصَّ النَّبيُّ الجنَّة والنَّار بالذِّكر رغمَ دخُولهما في قوله: «**وَوَعْدُكَ الحَقُّ**» اهتمامًا بهما واعتناءً بأمرهما، **ويتَناول الإيمانُ بهما وأنَّهما حقٌّ أمورًا عديدةً يجمعُها ما يلي:**

١- كونهما لا ريبَ فيهما ولا شكَّ، وأنَّ النَّار دارُ أعداء الله، والجنَّة دارُ أوليائه؛ قال الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٦- ١٩٨]، فكلَّما ذَكَر سبحانه الجنَّة؛ عطفَ عليها بذكر النَّار، وكلَّما ذَكَر أهلَ النَّار؛ عطفَ عليهم بذكر أهل الجنَّة؛ تبيانًا لِما أعدَّ في الجنَّة منَ النَّعيم لأوليائه، وفي النَّار من العَذاب الأليم لأعدائه.

٢- اعتقادُ وجودهما الآن؛ قال الله تعالى في الجنَّة: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى في النَّار: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

٣- الإيمانُ بكلِّ أوصاف الجنَّة والنَّار الَّتي جاءت في الكتاب والسُّنَّة؛ لأنَّ كلَّ ما جاء في الكتاب والسُّنَّة من أوصاف الجنَّة والنَّار داخلٌ في قوله: «**وَالجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ**»؛ أي: بجميع الأوصاف المذكورة لهما في كتاب الله وسُنَّة رسوله.

٤- الإيمانُ بدوامهما وبقائهما بإبقاءِ الله لهما، وأنَّهما لا تفنَيان أبدًا، ولا يفنَى مَن فيهما؛ قال الله تعالى في الجنَّة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التَّوبة: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، وقال تعالى في النَّار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

وهذه العقيدة في الجنَّة والنَّار تثمر في العبد استعدادًا بالأعمال الَّتي تُقَرِّب إلى الجنَّة، وبُعدًا عن الأعمال الَّتي تُقَرِّب من النَّار.

١٣
حديث: «اللَّهم لك الحمد أنت نور السَّموات والأرض» (٢)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا تَهَجَّدَ مِنَ اللَّيْلِ قَالَ: «**اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ الْحَقُّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ، وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ، وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**» رواه البخاريُّ[(١)]، وَزَادَ في رواية: «**وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»[(٢)].

تقدَّم الكلام على جملةٍ من فوائد هذا الحديث، ونستكمل ذكر فوائده.

قوله: «**وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ**»؛ هذا يتضمَّن الإيمان بالرُّسل الكرام، وهو أصلٌ من أصول الإيمان؛ **فإنَّ الإيمان يقوم على ستَّة أصول**:

منها: الإيمان بالرُّسل، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ

(١) أخرجه البخاريُّ (٧٤٩٩)، ومسلم (٧٦٩).
(٢) أخرجه البخاريُّ (١١٢٠).

وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، **والإيمان بهم:** إيمانٌ بأنَّهم صفوة الخلق، وأنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ اصطفاهم واجتباهم، وأنَّه قد بعثهم سبحانه بالحقِّ والهدى، وأنَّهم بلَّغوا أممهم ما أمرهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به؛ فما تركوا خيرًا إلَّا دَلُّوا أمَّتهم عليه، ولا شرًّا إلَّا حذَّروا أممهم منه، فبلَّغوا البلاغ المبين ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النُّور: ٥٤].

قوله: «**وَمُحَمَّدٌ** ﷺ **حَقٌّ**»؛ هذا فيه الإيمان الخاصُّ بنبوَّة محمَّد ﷺ خاتم النَّبيِّين؛ قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فمحمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حقٌّ؛ أي: رسولٌ أرسله الله بالحقِّ والهدى، بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا؛ فبلَّغ البلاغ المبين، وما ترك خيرًا إلَّا دلَّ أمَّته عليه، ولا شرًّا إلَّا حذَّرها منه، ختم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ برسالته الرِّسالات، وبكتابه الكتب، فلا نبيَّ بعدَه، ولا كتابَ بعدَ كتابه، فبنبوَّته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خُتِمَتِ النُّبوَّات.

ومن الإيمان به: تحقيقُ شهادة أنَّ محمَّدًا رسولُ الله، بطاعتِه فيما أمر، وتصديقِه فيما أخبر، والانتهاءِ عمَّا نهى عنه وزجر، وأن لا يُعبدَ اللهُ إلَّا بما شَرَع، وتقديمِ محبَّته على محبَّة النَّاس كلِّهم من الأبناء والآباء وسائر القرابة، بل وعلى محبَّة المرء لنفسه، وتعظيمِهِ وتوقيرِهِ وإجلالِهِ، وغير ذلك من حقوقه الَّتي أوجبَها الله عَزَّوَجَلَّ، وهو عبدٌ لا يُعبَد، ورسولٌ لا يُكذَّب؛ بل يُطاع ويُتَّبَع، مَن أطاعه دخل الجنَّة، ومَن عصاه دخل النَّار.

قوله: «**وَالسَّاعَةُ حَقٌّ**» كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحجُّ:

٧]، **والسَّاعة**: أي الَّتِي ينفخ فيها مَلَكُ الصُّور إسرافيل فِي الصُّور، وينتهي هذا العالم، تنتهي هذه الحياة الدُّنيا، وهي ساعة: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖ﴾ [الرُّوم: ٥٥] ويقال لها: «ساعة»؛ لأنَّها تقع فِي لحظةٍ واحدةٍ، فينتهي كلُّ شيءٍ، وتنقضي الحياة الدُّنيا بكلِّ تفاصيلها، وتبدأ الحياة الآخرة.

والسَّاعة: كما أنَّها تتناول القيامة الكبرى الَّتِي فيها موت جميع المخلوقات عندما يَنفُخُ فِي الصُّور مَلَكُ الصُّورِ فإنَّها أيضًا: تتناول السَّاعة الصُّغرى الَّتِي هي موت كلِّ إنسانٍ بخاصَّته؛ كما قال العلماء: مَن مات قامت قيامته وجاءت ساعته.

فالسَّاعة لها إطلاقٌ عامٌّ وإطلاقٌ خاصٌّ؛ الإطلاقُ الخاصُّ: ساعةُ كلِّ إنسانٍ؛ فمَن ماتَ قامت قيامتُه، والموتُ أوَّلُ منازل الآخرة.

قوله: «**اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ**» أي: انقَدْتُ، ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزُّمر: ٥٤] **والإسلام**: هو الإستسلام لله بالتَّوحيد، والانقياد له بالطَّاعة، والخلوص من الشِّرك؛ فالإسلام استسلامٌ لله، وطاعةٌ، وامتثالٌ لأمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قوله: «**وَبِكَ آمَنْتُ**» أي: إلهًا، وربًّا، ومعبودًا، ولا معبودَ بحقٍّ سواك، آمنت بك، وبأسمائك، وصفاتك، وبكلِّ ما أمرتَنِي بالإيمان به.

وهذا فيه الاعتقادُ وهو يقومُ على أركانٍ ثلاثةٍ، جُمعت فِي هذا الاستِفتاح وهي:

الإيمان بوحدانيَّة الله فِي ربوبيَّته: بأنَّه الواحد فِي ملكِه وأفعالِه، لا شريك

له؛ في قوله: «**أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ**»، وقوله: «**أَنْتَ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ**».

والإيمان بوحدانيَّته في ألوهيَّته: بأنَّه تعالى الواحد في إلهيَّته وعبادتِه، لا ندَّ له، وإخلاصُ الدِّين له، وإفرادُه وحدَه بالعبادة؛ في قوله: «**اللَّهمَّ لَكَ الحَمْدُ**»، وقوله: «**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**».

والإيمان بوحدانيَّته في أسمائه وصفاته: بأنَّه الواحد في ذاته، وأسمائه، وصفاتِه، لا نظير له؛ ففي هذا الاستفتاح ستَّة أسماءٍ حُسنى لله عَزَّوَجَلَّ، متضمِّنةٌ لصفات الكمال، ونُعُوت الجلال «القيُّوم، النُّور، الملك، الحقُّ، المُقدِّم، المُؤَخِّر».

وقوله: «**وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ**» هذا فيه التَّوكُّل على الله وحده.

والتَّوكُّل: هو الاعتماد على الله، وتفويض الأمور إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. **وحقيقة التَّوكُّل:** هو عملُ القلب وعبوديَّتُه؛ اعتمادًا على الله، وثقةً به، والتجاءً إليه، وتفويضًا إليه، ورضًا بما يقضيه له؛ لعلمِه بكفايتِه سبحانه، وحُسنِ اختيارِه لعبدِه إذا فوَّض إليه أمورَه، مع قيامِه بالأسباب المأمور بها، واجتهادِه في تحصيلها، دونَ تعدٍّ إلى فعلِ سببٍ غيرِ مأمور، أو سلوك طريقٍ غيرِ مشروع.

قوله: «**وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ**»؛ **الإنابة**: هي الرُّجوع إلى الله بالإقبال عليه وعلى طاعته سبحانه، وتجنُّب ما نهى عباده عنه؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزُّمر: ٥٤].

وقد ذكَر اللهُ الإنابةَ في مواضعَ كثيرة من القرآن، وأثنى على المُنيبين، وأمر بالإنابة إليه.

وحقيقة الإنابة: انجذابُ القلب إلى الله في كلِّ حالةٍ من أحواله، يُنيبُ إلى ربِّه عند النَّعماء بشُكره، وعند الضَّرَّاء بالتَّضرُّع إليه، وعند مطالب النُّفوس الكثيرة بكثرة دعائه في جميع مهمَّاته، ويُنيبُ إلى ربِّه باللَّهج بذكره في كلِّ وقت، وهي أيضًا: الرُّجوع إلى الله، بالتَّوبة من جميع المعاصي، والرُّجوع إليه في جميع أعماله وأقواله، فيَعرضُها على كتاب الله وسنَّة رسولِه ﷺ، فتكونُ الأعمالُ والأقوالُ موزونةً بميزان الشَّرع.

وقوله: «**وَبِكَ خَاصَمْتُ**»؛ أي: أنَّني مستعينٌ بك يا الله في مُحاجَّتي ومُخاصمتي لأعدائك، وردِّي عليهم، وبياني لفساد عقائدهم وضلالهم وباطلهم، ملتجئٌ إليك وحدَك؛ وهذا فيه تفويضُ العبد أمره إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في ردِّه باطلَ المبطلين، وضلال المُضِلِّين؛ كما أخبر الله عن نبيِّه شعيب أنَّه قال: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وقوله: «**وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ**»؛ هذا فيه أنَّ التَّحاكم إنَّما يكون إلى شرع الله ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشُّورى: ١٠]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النِّساء: ٦٥]، والرَّدُّ لا يكون إلَّا إلى كتاب الله وسُنَّة نبيِّه صلوات الله وسلامه عليه، ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النِّساء: ٥٩]، **والرَّدُّ إلى الله**: ردٌّ إلى كتابه، **والرَّدُّ إلى الرَّسول** ﷺ: ردٌّ إلى سنَّته صلوات الله وسلامه عليه.

بعد هذه الأصول العظيمة الَّتي قدَّمها النَّبِيُّ ﷺ في مناجاته لربِّه مُتَوَسِّلًا إليه بها؛ شَرَعَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في ذكر المطلوب؛ وهو غُفرانُ الذُّنوب قال: «**فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ**»؛ **ونستفيد من ذلك فائدةً عظيمةً**: أنَّ أعظمَ وسيلةٍ إلى الله للفوز عندَه، ونيل مرضاتِه؛ هي العقيدة الصَّحيحة، فها هو نبيُّنا وقدوتُنا ﷺ في مناجاته لربِّه في جوف اللَّيل، يتوسَّل إلى الله بهذه الأصول العظيمة: «**اللَّهمَّ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**»، «**أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ**»، «**أَنْتَ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ**»، «**أَنْتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَقَوْلُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ**»، «**اللَّهمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ**».

وهذه كلُّها عقائد يَذكُرها متوسِّلًا بها إلى الله، فأعظمُ وسيلةٍ يُتوسَّل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها العقيدة الصَّحيحة.

قوله: «**فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ**» أي: فاغفر لي يا الله جميعَ الذُّنوب؛ فإنَّ رحمتَك واسعةٌ، وصفحَك كريمٌ، وأنت الغفورُ الرَّحيم، ولا يغفرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. وهو سبحانه غفورٌ رحيمٌ لا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفره جَلَّ وَعَلَا ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزُّمر: ٥٣].

قوله: «**أَنْتَ المُقَدِّمُ، وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ**» أي: يقدِّم مَن يشاء؛ إيمانًا، وطاعةً،

ورفعةً، وعبادةً، وبُعدًا عن المعاصي والذُّنوب، ويُؤَخِّر مَن يشاء؛ لأنَّ الأمور بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ يهدي مَن يشاء ويضلُّ مَن يشاء، يخفض ويرفع، ويعزُّ ويذلُّ، ويعطي ويمنَع، مَنْ كتب الله له عزًّا ورفعةً وتقدُّمًا لم يستطع أحدٌ حرمانَه من ذلك، ومَن كتَبَ الله له ذلًّا وخفضًا وتأخُّرًا لم يستطع أحدٌ عونَه للخلاص من ذلك.

قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»؛ هذا ختمٌ لهذه المناجاة العظيمة بأعظم الكلمات على الإطلاق؛ كلمة التَّوحيد «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» الَّتِي لأجلها خُلقت الخليقةُ، وأُرسلت الرُّسلُ، وأُنزلت الكتبُ، وهي أعظم أركانِ الدِّين، وأهمُّ شُعَب الإيمان، وهي سبيلُ الفَوز بالجنَّة والنَّجاة منَ النَّار، **ومعناها: لا معبود بحقٍّ سواه سبحانه**؛ فـ«لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» فيها نفيٌ وإثباتٌ؛ نفيٌ للعبوديَّة عن كلِّ مَنْ سوى الله، وإثباتٌ للعبوديَّة بكلِّ معانيها لله وحده؛ فصاحبُ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» حقًّا لا يدعو إلَّا الله، ولا يستغيث إلَّا بالله، ولا يتوكَّل إلَّا على الله، ولا ينذر إلَّا لله، ولا يذبح إلَّا لله، ولا يصرِفُ شيئًا من العبادة إلَّا لله، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

قوله: «وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»؛ هذه كلمةٌ عظيمةٌ، جاء في السُّنَّة الأمرُ بالإكثار منها، وأنَّها مِن كنزٍ تحتَ العرش، وهي تتضمَّن طلب العون من الله فهي كلمةُ استعانةٍ؛ لأنَّ معناها: لا تحوُّلَ من حالٍ إلى حالٍ، ولا حصولَ قوَّةٍ للعبد إلَّا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعونِهِ ومَدِّهِ وتوفيقِه.

فهذا استفتاحٌ عظيمُ الأثَرِ على من واظب عليه مستشعرًا معانيه العظيمَة، ودلالاتِه الجليلة، مجدِّدًا إيمانَه وتوحيدَه، مقوِّيًا صلتَه بربِّه ومولْاه، راجيًا نيلَ ما يترتَّبُ عليه من الأحوال الزَّكيَّة، والمقامات العليَّة، والآثار المباركة، والعوائد الحميدة، وبِالله وحدَه التَّوفيق لا شريكَ له.

١٤

حديث: «ما من نبيٍّ من الأنبياء إلَّا قد أُعْطِي من الآيات»

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ؛ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

الأنبياء: هم صفوةُ العباد وخيارُهم؛ كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحجُّ: ٧٥] اختارهم الله على عِلمٍ ليكونوا واسطةً بينهم وبين عباده في إبلاغ دينه، وبيان شرعه؛ فلا سبيل إلى معرفة الشَّرع إلَّا من جهتهم، وسُمُّوا رُسُلًا لهذا؛ قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [النُّور: ٥٤]؛ لأنَّهم يبلِّغون عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَحْيَه، ودِينَه، وشَرعَه، وحقُّ الأنبياء على أُمَمِهم الطَّاعة؛ فلأجلها بُعِثوا؛ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [النِّساء: ٦٤] وطاعتُهم هي السَّعادة الحقيقة، والنَّجاة والفلاح في الدُّنيا والآخرة.

وقد أيَّدهم بالآيات الدَّالَّة على صدقهم، وصحَّة ما جاؤوا به، وأنَّهم أَكْمَلُ الخلق علمًا وعملًا؛ فكلُّ نبيٍّ مؤيَّدٍ بآياتٍ مقنعةٍ، كافيةٍ، وحُججٍ واضحة، ما

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢)، واللَّفظ له.

مثلُه آمن عليه البشر؛ لكنَّ كثيرًا من البشر في قلوبهم عمايةٌ عن الحقِّ، وغوايةٌ عن الطَّريق المستقيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

والعلم بالأنبياء وما أُيِّدوا به من البراهين: من جملةِ علومِ القرآنِ العظيمة الَّتِي يترتَّب عليه فوائدُ غزيرةٌ، وثمارٌ جليلةٌ.

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومنها -أي: علوم القرآن- ذكرُ الأنبياء والمرسلين، وما أُرسِلُوا به، وما جَرَى لهم مع أممهم، **وفي ذلك فوائد:**

منها: أنَّ من تمام الإيمان بهم معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم، وكُلَّما كان المؤمن بذلك أعرف؛ كان أعظم إيمانًا بهم ومحبَّة لهم وتعظيمًا لهم وتعزيرًا وتوقيرًا.

ومنها: أنَّ من بعض حقوقهم علينا خصوصًا النَّبِيَّ محمَّدًا ﷺ معرفتهم ومحبَّتهم محبَّة صادقة ولا سبيل لذلك إلَّا بمعرفة أحوالهم.

ومنها: أنَّ معرفة الأنبياء موجبة لشكر الله تعالى على ما مَنَّ به على المؤمنين؛ إذ بعث فيهم رسولًا منهم يُزَكِّيهم ويُعَلِّمهم الكتاب والحكمة بعد أن كانوا في ضلال مبين.

ومنها: أنَّ الرُّسل هم المربُّون للمؤمنين الَّذِين ما نال المؤمنون مثقال ذرَّة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرَّة من الشَّرِّ إلَّا على أيديهم وبسببهم،

فقبيح بالمؤمن، أن يجهل حالة مُربِّيه ومُزكِّيه ومُعَلِّمه، وإذا كان من المستنكر جهل الإنسان بحال أبويه ومباعدته لذلك، فكيف بحالة الرَّسول الَّذِي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبوهم الحقيقيُّ الَّذِي حقُّه مُقَدَّم على سائر الحقوق بعد حقِّ الله تعالى؟!

ومنها: أنَّ في معرفة ما جرى لهم وما جرى عليهم تحصل للمؤمن الأسوة والقدوة وتخفُّ عنه كثير من المقلقات والمزعجات؛ لأنَّها مهما بلغت من الثِّقل والشِّدَّة فلا تصل إلى بعض ما جرى على الأنبياء، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ومن أعظم الاقتداء بهم: الاقتداء بتعليماتهم، وكيفيَّة إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق، والصَّبر على التَّعليم، والدَّعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالَّتِي هي أحسن؛ وبهذا وأمثاله؛ كان العلماء ورثة الأنبياء.

ومن فوائد معرفة الرَّسول ﷺ: معرفة الآيات القرآنيَّة المُنَزَّلة عليه، وفهم المعنى، والمراد منها؛ موقوف على معرفة أحوال الرَّسول وسيرته مع قومه وأصحابه وغيرهم من النَّاس، فإنَّ الأزمنة والأمكنة والأشخاص تختلف اختلافًا كثيرًا، فلو أراد الإنسان أن يصرف همَّه لمعرفة معاني القرآن من دون معرفة منه لذلك؛ لحصل من الغلط على الله وعلى رسوله وعلى مراد الله من كلامه شيء كثير، وهذا إنَّما يعرفه مَن عرف كيف كثر حمل مراد الله ورسوله على العرف الحادث فوقع الخلل الكثير، ولغير ذلك من الفوائد المفيدة والنَّتائج السَّديدة»[(١)].

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن للسِّعديِّ (٣٦-٣٧).

والإيمان بالرُّسل أصلٌ عظيمٌ من أصول الإيمان، **ومبناه:** على اعتقادِ أنَّهم رسل الله حقًّا، وأنبياؤه صدقًا، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ بعثهم للنَّاس بالهدى والحقِّ، مُبَشِّرين ومُنْذرين، وأنَّهم أدَّوا الأمانة، ونصحوا لأممهم، وبلَّغوا ما أمرهم الله بتبليغه على الكمال والتَّمام، وأنَّ مَن أطاعهم فهو من أهل الجنَّة، ومَن عصاهم فهو من أهل النَّار، واعتقادِ فضلهم، ورفعة شأنهم، وعلوِّ قدرهم، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ اجتباهم، واختارهم، وميَّزهم على النَّاس، وخصَّهم برسالته، وفضَّلهم على العالمين، وجعلهم وسائطَ بينه وبين خلقه في بلاغ دينه، وأيَّدهم سبحانه بالبراهين الدالَّة على صدقهم، وصحَّة ما جاؤوا به، وأنَّهم أَكمَلُ الخلق علمًا وعملًا، وأصدَقُهُم، وأبرُّهم، وأكملُهم أخلاقًا وأعمالًا، واعتقادُ التَّفاضُل بينهم، وأنَّ أفضلَ الأنبياءِ الرُّسُل، وأفضل الرُّسُل أولو العزم منهم، وأفضلُ أولي العزم محمَّد ﷺ؛ فهو إمام المرسلين، وخيرهم، ومقدَّمُهم ﷺ.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النِّساء: ١٦٣-١٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٩٠].

ولمَّا أخبر الله عن كمال الرُّسل، وما أعطاهم من الفضل والخصائص، وأنَّ دينَهم واحد، ودعوتهم إلى الخير واحدة؛ كان موجب ذلك ومقتضاه: أن تجتمع الأمم على تصديقهم، والانقياد لهم؛ لِمَا آتاهم من البيِّنات الَّتي على مثلها يؤمن البشر؛ لكن أكثر النَّاس انحرفوا عن الصِّراط المستقيم، ووقع الاختلاف بين الأمم؛ فمنهم مَنْ آمن، ومنهم مَنْ كفر؛ كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النَّحل: ١٣٦].

ومدار بِعثَتهم من أوَّلهم إلى خاتمهم محمَّد ﷺ على الدَّعوة إلى التَّوحيد الخالص، والنَّهي عن الشِّرك؛ فنوحٌ وغيرُه أوَّل ما يقولون لقومهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ويكرِّرون هذا الأصل بطُرُقٍ كثيرةٍ.

ولمَّا كان الأنبياء بهذه المثابة، وعلى هذه الصِّفات، وغايتهم واحدة، وهدفهم واحد؛ وجب على كلِّ مسلمٍ أن يؤمن بجميع الأنبياء دون تفريقٍ

بينهم؛ ولهذا صار الكفر بنبيٍّ واحدٍ كفرًا بجميع الأنبياء، ومَن عادى أحدًا من رسله فقد عادَى اللهَ وعادَى جميع رُسُلِهِ؛ كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]، فجميع الأنبياء دعوتهم واحدة؛ فمَن كذَّب بواحدٍ منهم، فقد كذَّب بالجميع؛ لأنَّه يكذِّب الحقَّ الَّذي جاء به كلُّ واحدٍ منهم.

قال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقد ختم الله النُّبُوَّات بنبوَّة نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ؛ فلا نبيَّ بعده؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي؛ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ! قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ**»(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ؛ أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ**

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٥٣٥)، واللَّفظ له، ومسلم (٢٢٨٦).

لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ»(١).

وعن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِيَ أَسْمَاءً؛ أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ»(٢).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «والأحاديث في هذا كثيرة؛ **فمن رحمة الله تعالى بالعباد**: إرسال محمَّد ﷺ إليهم، **ثمَّ من تشريفه لهم**: ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدِّين الحنيف له، وقد أخبر اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابه، ورسولُه ﷺ في السُّنَّة المتواترة عنه؛ أنَّه لا نبيَّ بعده؛ ليعلموا أنَّ كُلَّ مَنِ ادَّعى هذا المقام بعده فهو كذَّابٌ وأفَّاكٌ»(٣).

وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ: وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» فيه فضل القرآن؛ خاتمة الكُتُب المُنَزَّلة، والمصدِّق لِمَا بين يديه من الكتاب، والمهيمن عليه، وهو آيةٌ خالدةٌ إلى قيام السَّاعة، وهو كتابٌ عَظُمَ نفعُه للبشر، وكَثُرَ خَيرُهُ، ودَامَت عوائدُه ومَنافعُه.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «**فَأَرْجُو أَن أَكُونَ أَكثَرَهُم تَابِعًا يَومَ القِيَامَةِ**»: رُتِّبَ هذا الكلامُ على ما تقدَّم من معجزة القرآن المستمرَّة؛ لكَثرة فائدتِه، وعموم نَفعِه؛ لاشتماله على الدَّعوة، والحُجَّة، والإخبار بما سيكون؛

(١) أخرجه مسلم (٥٢٣).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤)، واللَّفظ له.
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٢٠٣).

فَعَمَّ نفعُه مَن حَضَر، ومَن غاب، ومَن وُجِدَ، ومَن سيوجد، فَحَسُنَ ترتيبُ الرَّجوى المذكورة على ذلك، وهذه الرَّجوى قد تحقَّقت؛ فإنَّه أكثرُ الأنبياء تَبَعًا»[١].

عن ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ؛ إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى ﷺ وَقَوْمُهُ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَنَظَرْتُ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ**»[٢].

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٥٩-١٦٠).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠)، واللَّفظ له.

١٥

حديث: «لا يؤمن عبدٌ حتَّى يؤمن بأربع»

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ: يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ بَعَثَنِي بِالحَقِّ، وَيُؤْمِنُ بِالمَوْتِ، وَبِالبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيُؤْمِنُ بِالقَدَرِ**»[1].

هذا حديثٌ جامعٌ من أحاديث الإيمان، جمع فيه النَّبِيُّ ﷺ أصولًا أربعةً عليها مدار الدِّين وقيامُه، والمراد بالنَّفي في قوله: «**لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ**»: نفيُ أَصلِ الإيمان، لا نفي كماله؛ فمَن لم يؤمن بواحدٍ من هذه الأربعة لم يكن مؤمنًا.

وكلُّ أصلٍ من هذه الأصول له دلائلُ كثيرةٌ، وشواهدُ عديدةٌ؛ في كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ، تبين مكانة هذه الأصول، وأهمِّيَّتها، والتَّفاصيل المُتَعَلِّقة بها، وتقدَّم الحديث عن الشَّهادتين، وسيأتي حديثٌ مُفرَدٌ عن الإيمان بالقدر.

والحديث هنا عن الإيمان بواحدٍ من هذه الأصول؛ وهو الموت، وسيأتي أيضًا حديثٌ خاصٌّ عن ما بعد الموت.

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢١٤٥)، واللَّفظ له، وابن ماجه (٨١)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

قال الله تعالى في ثلاثة مواطن من القرآن: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]؛ يخبر تعالى إخبارًا عامًّا يشمل جميع الخلق بأنَّ كلَّ نفس ذائقة الموت؛ كقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرَّحمن: ٢٦]؛ فهو تعالى وحدَه هو الحيُّ الَّذي لا يموت، والإنس والجنُّ يموتون.

والإيمان بالموت يتناول أمورًا عديدة، وقد ذكرها بالتَّفصيل الشَّيخُ حافظ حَكَمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «معارج القبول»[1]، **وفيما يلي تلخيص لها:**

منها: تحتُّمه على مَن كان في الدُّنيا من أهل السَّماوات والأرض؛ من الإنس، والجنِّ، والملائكة، وغيرهم من المخلوقات؛ قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمن: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزُّمر: ٣٠-٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤-٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٦-٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السَّجدة: ١١]، وفي الصَّحيح عن ابن

---

(١) انظر: معارج القبول بشرح سلَّم الوصول (٢/ ٧٠٣-٧١٣).

عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يقول: «أَعُوْذُ بِعِزَّتِكَ -لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ- أَنْ تُضِلَّنِيْ، أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوْتُ، وَالجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوْتُوْنَ»(١).

ومنها: أنَّ كُلًّا له أجلٌ محدود، وأمَدٌ ممدود ينتهي إليه، لا يتجاوزه ولا يَقصُر عنه، وقد عَلِم الله تعالى جميع ذلك بعلمه الَّذِي هو صفته، وجرى به القلم بأمره يوم خلقه، ثمَّ كتبه الملَك على كلِّ أحد في بطن أُمِّه بأمر ربِّه عَزَّوَجَلَّ عند تخليق النُّطفة في عينه؛ في أيِّ مكان يكون، وفي أيِّ زمان؛ فلا يُزَاد فيه، ولا يُنقَص منه، ولا يغيَّر ولا يبدَّل عمَّا سبق به علم الله تعالى وجرى به قضاؤه وقدره، وأنَّ كلَّ إنسان مات، أو قُتِل، أو حُرِق، أو غَرق، أو بأيِّ حَتفٍ هلك بأجله؛ لم يستأخر عنه ولم يستقدم طرفة عين، وأنَّ ذلك السَّبب الَّذِي كان فيه حتفُه هو الَّذِي قدَّره الله تعالى عليه، وقضاه عليه، وأمضاه فيه، ولم يكن له بدٌّ منه، ولا مَحِيصَ عنه، ولا مفرَّ له، ولا مَهرَب، ولا فكاك، ولا خَلاص، وأنَّى وكيف وإلى أين ولات حين مناص.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٤٥] الآية، وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] الآيات، وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النِّساء: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] في مواضع من القرآن، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٧٣٨)، ومسلم (٢٧١٧)، واللَّفظ له.

ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠] وغيرها من الآيات.

وروى مسلم بن الحجَّاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيحه»(١) عن المعرور بن سويد، عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قالت أمُّ حبيبة: اللَّهُمَّ مَتِّعْنِي بزَوْجِي رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَبِأَبِي أَبِي سُفْيانَ، وَبِأَخِي مُعاوِيَةَ، فَقالَ لَها رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّكِ سَأَلْتِ اللهَ لِآجالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَآثارٍ مَوْطُوءَةٍ، وَأَرْزاقٍ مَقْسُومَةٍ، لا يُعَجِّلُ شَيْئًا مِنْها قَبْلَ حِلِّهِ، وَلا يُؤَخِّرُ مِنْها شَيْئًا بَعْدَ حِلِّهِ، وَلَوْ سَأَلْتِ اللهَ أَنْ يُعافِيَكِ مِنْ عَذابٍ فِي النَّارِ، وَعَذابٍ فِي القَبْرِ، لَكانَ خَيْرًا لَكِ**».

وفي رواية(٢): «**قَدْ سَأَلْتِ اللهَ لِآجالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ، أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئًا عَنْ حِلِّهِ، وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِن عَذابٍ فِي النَّارِ، أَوْ عَذابٍ فِي القَبْرِ، كانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ**».

ومنها: الإيمان بأنَّ ذلك الأجل المحتوم، والحدَّ المرسومَ لِانتهاء كلِّ عُمُرٍ إليه؛ لا اطِّلاع لنا عليه، ولا علمَ لنا به، وأنَّ ذلك من مفاتح الغيب الَّتِي استأثر الله تعالى بعلمها عن جميع خلقه؛ فلا يَعلَمُها إلَّا هو؛ كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] الآية، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤] الآية.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٣).

(٢) أخرجها مسلم (٢٦٦٣).

ومنها: ذِكْرُ العبد الموت، وجَعْلِه على باله كما هو الرَّدم بينه وبين آماله، وهو المفضي به إلى أعماله، وإلى الحسن والقبيح من أقواله وأفعاله، وإلى الجزاء الأوفى من الحكم العدل في شرعه، وقدره، وقضائه، ووعده، ووعيده؛ فلا يعاقب أحدًا بذنب غيره، ولا يهضمه ذرَّةً من حُسنِ أعماله، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند التِّرمذيِّ، والنَّسائِيِّ، وابن حبَّان وصحَّحه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَكثِرُوا ذِكرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ: المَوْتُ»[(١)].

وقال البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب الرِّقاق من «صحيحه»: باب قول النَّبِيِّ ﷺ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيْلٍ»، حدَّثنا عليُّ بن عبد الله، حدَّثنا محمَّد بن عبد الرَّحمن أبو المنذر الطّفاويُّ، عن سليمان الأعمش قال: حدَّثني مجاهد، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أَخَذَ رَسولُ اللهِ ﷺ بمَنْكِبِي، فَقالَ : «كُنْ في الدُّنْيا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أوْ عابِرُ سَبِيلٍ»، وكانَ ابنُ عُمَرَ يقولُ: إذا أمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وإذا أصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وخُذْ مِن صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، ومِنْ حَياتِكَ لِمَوْتِكَ»[(٢)].

ثمَّ قال: «بابٌ في الأمل وطولِه، وقولِ الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، بمزحزحه: بمُبَاعده، وقال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣]، وقال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتِ الْآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ؛ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ،

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٣٠٧)، والنَّسائِيُّ (١٨٢٤)، وابن حبَّان (٢٩٩٢)، واللَّفظ له.
(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابٌ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَل».

حدَّثنا صدقة بن الفضل، أخبرنا يحيى بن سعيد، عن سفيان قال: حدَّثني أبي، عن منذر، عن ربيع بن خثيم، عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطُطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسَطِ، وَقَالَ: «**هَذَا الْإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ، أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطُطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا**»[(١)].

ومنها: وهو المقصود الأعظم: التأهُّب له قبل نزوله، والاستعداد لِمَا بعده قبل حصوله، والمبادرة بالعمل الصَّالح، والسَّعي النَّافع، قبل دُهُوم البلاء وحلوله؛ إذ هو الفيصل بين هذه الدَّار وبين دار القرار، وهو الفصل بين ساعة العمل والجزاء عليه، والحدُّ الفارق بين أوان تقديم الزَّاد والقدوم عليه؛ إذ ليس بعدَه لأحدٍ من مُستعتَبٍ ولا اعتذار، ولا زيادة في الحسنات، ولا نقص من السَّيِّئات، ولا حيلة ولا افتداء، ولا درهم ولا دينار، ولا مقعد ولا منزل إلَّا القبر؛ وهو إمَّا روضةٌ من رياض الجنَّة، أو حفرةٌ من حفر النَّار، إلى يوم البعث والجزاء، وجَمْعِ الأوَّلين والآخرين، وأهل السَّماوات والأرضين، والموقف الطَّويل بين يدي القويِّ المتين، يوم يقوم النَّاس لربِّ العالمين؛ الحكيم،

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٧).

العليم، المقسط، العدل، الحكيم، الَّذي لا يَحِيفُ ولا يجور ولا يظلم مثقال ذرَّة، إنَّ ربِّي على صراطٍ مستقيم.

ثمَّ إمَّا نعيمٌ مقيمٌ في جنَّات النَّعيم، وإمَّا عذابٌ أليمٌ في نار الجحيم، وإنَّ لكلِّ ظاعنٍ مَقرًّا، ولكُلِّ نبإٍ مستقرًّا، وسوف تعلمون.

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] الآيات، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] الآيات، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٩-١١].

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، قال: «كان العلاء بن زياد يقول: لِيُنزِلُ أحدُكم نفسَه أنَّه قد حضرَه الموت، فاستقال ربَّه فأقاله؛ فليَعمَل بطاعة ربِّه تعالى»(١).

وفي «صحيح البخاريِّ» عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**نِعْمَتانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ والفَراغُ**»(٢).

وللحاكم عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: «**اغْتَنِمْ**

(١) أخرجه أحمد في «الزُّهد» (١٤٤٧). (٢) أخرجه البخاريُّ (٦٤١٢).

خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هِرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاءَكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»[(١)]؛ يعني أنَّ هذه الخمس: أيَّام؛ الشَّباب، والصِّحَّة، والغنى، والفراغ، والحياة؛ هي أيَّام العمل، والتأهُّب، والاستعداد، والاستكثار من الزَّاد؛ فمَن فاته العمل فيها لم يدركه عند مجيء أضدادها، ولا ينفعه التَّمنِّي للأعمال بعد التَّفريط منه والإهمال، في زمن الفرصة والإمهال؛ فإنَّ بعد كلِّ شبابٍ هرمًا، وبعد كلِّ صحَّةٍ سُقمًا، وبعد كلِّ غنًى فقرًا، وبعد كلِّ فراغٍ شُغلًا، وبعد كلِّ حياةٍ موتًا؛ **فمَن فرَّط في العمل أيَّام الشَّباب لم يدركه في أيَّام الهرم**، ومَن فرَّط فيه في أوقات الصِّحَّة لم يدركه في أوقات السُّقم، ومَن فرَّط فيه في حالة الغِنى فلم يَنَلِ القرب -الَّتِي لم تُنَل إلَّا بالغنى- لم يدركه في حالة الفقر، ومَن فرَّط فيه في ساعة الفراغ لم يدركه عند مجيء الشَّواغل، ومَن فرَّط في العمل في زمن الحياة لم يدركه بعد حيلولة الممات؛ فعند ذلك يتمنَّى الرُّجوع وقد فات، ويطلب الكَرَّة وهيهات.

---

(١) أخرجه الحاكم (٨٠٤١).

١٦

حديث: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر»

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَلأٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ يُسَلِّمُ عَلَى رَسُولِ اللهِ، فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ وَرَدَّ الْمَلأُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَلَا تُخْبِرُنِي مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: «**الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخَرِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْحِسَابِ، وَالْمِيزَانِ، وَالْجَنَّةِ، وَالنَّارِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، قَالَ: فَإِذَا فَعَلْتُ هَذَا فَقَدْ آمَنْتُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، فَقَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ لِرَسُولِ اللهِ: صَدَقْتَ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَلَا تُخْبِرُنِي مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: «**الْإِسْلَامُ أَنْ تُقِيمَ وَجْهَكَ لِلَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ**»، قَالَ: فَإِذَا فَعَلْتُ هَذَا فَقَدْ أَسْلَمْتُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: أَخْبِرْنِي مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «**الْإِحْسَانُ أَنْ تَخْشَى اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»، قَالَ: فَإِذَا فَعَلْتُ هَذَا فَقَدْ أَحْسَنْتُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَلَا تُخْبِرُنِي مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «**سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ! مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، اسْتَأْثَرَ اللهُ بِعِلْمِ خَمْسٍ**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ هَذِهِ الآيَةُ [لقمان: ٣٤]، **وَسَأُخْبِرُكَ بِشَيْءٍ يَكُونُ قَبْلَهَا، حِينَ تَلِدُ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَيَتَطَاوَلُ أَهْلُ الشَّاءِ فِي الْبُنْيَانِ**»، ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ، فَأَتْبَعَهُ

رَسُولُ اللهِ طَرْفَهُ طَوِيلًا، ثُمَّ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**إِنَّ هَذَا جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ، أَوْ يَتَعَاهَدُ دِينَكُمْ**»(١).

هذه رواية لحديث جبريل المشهور؛ وهو حديثٌ عظيمٌ جامعٌ في بيان دين الله؛ أصولِه وفروعِه، وهي أكثر تفصيلًا في شأن الإيمان باليوم الآخر من الرِّواية المتقدِّم ذكرُها؛ قال: «**الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْحِسَابِ، وَالْمِيزَانِ، وَالْجَنَّةِ، وَالنَّارِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

وروى أحمد عَنْ أَبِي سَلَّام، عَنْ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**بَخٍ بَخٍ، لَخَمْسٌ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى فَيَحْتَسِبُهُ وَالِدَاهُ**»، وَقَالَ: «**بَخٍ بَخٍ لِخَمْسٍ؛ مَنْ لَقِيَ اللهَ مُسْتَيْقِنًا بِهِنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ: يُؤْمِنُ بِاللهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَبِالْجَنَّةِ، وَالنَّارِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْحِسَابِ**»(٢).

والإيمان باليوم الآخر: أصلٌ من أصول الإيمان، وركنٌ من أركان الدِّين، **وسُمِّي بهذا الاسم**: لتأخُّره عن الدُّنيا، **ويسمَّى يوم القيامة**: لأنَّ النَّاس يقومون فيه لربِّ العالمين، **ويُسمَّى يوم الحشر**؛ لأنَّهم فيه يُحشرون، **ويُسمَّى يوم الحساب**؛ لأنَّهم فيه يُحاسبون، **ويُسمَّى يوم المعاد**؛ لأنَّ الأجساد تُعاد، **ويُسمَّى يوم المصير، و يوم المآب**، وله أسماء كثيرة، وكُلُّ أسمائه دالَّة على

(١) أخرجه يحيى بن سلام في «تفسيره» (٢/ ٧١٩)، وابن بطة في «الإبانة» (٢/ ٤٦٥) من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه أحمد (١٥٦٦٢).

مسمَّيات وحقائق تتعلَّق بذلك اليوم؛ **كيوم الصَّاخة، يوم الطَّامَّة، يوم التَّغابن، يوم التَّناد**، إلى غير ذلك من الأسماء الدَّالَّة على حقائق تتعلَّق بذلك اليوم العظيم.

روى البخاريُّ ومسلم في «صحيحيهما»[(١)] عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ عَلَى المِنْبَرِ يَقُولُ: «**إِنَّكُمْ مُلَاقُو اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**».

وجاء في الصَّحيح من حديث أمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟! قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ! الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ**»[(٢)].

ويوم القيامة يومٌ عظيمٌ؛ فيه أهوالٌ جِسام، ومواقفُ عِظام، سيُعاينها العباد، **ومبدأ ذلك**: نفخةٌ واحدةٌ يؤمر بها الملَك المُوكَّل بالنَّفخ في الصُّور، فيُصعَق العبادُ فلا يبقى لأحد من النَّاس حياة، ثمَّ من بعد هذه النَّفخة بأربعين تكون نفخةٌ أخرى يقوم النَّاس على إثْرها لربِّ العالمين؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤١ - ٤٤]، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي:

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٥٢٥) واللَّفظ له، ومسلم (٢٨٦٠).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩) واللَّفظ له.

القبور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٥٢ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ۝٥٣ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [يس: ٥١ - ٥٤].

وعلى إثر هذه النَّفخة الثَّانية يقوم النَّاس ويُنشرون من قبورهم للوقوف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ على أرض المحشر ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فيقفون على أرضٍ عفراء، لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، مستويةٍ لا جبال فيها ولا أشجار، في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة.

عن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ؛ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ**»(١).

وفي تلك الأرض -أرض المحشر- تدنو الشَّمس من رؤوس الخلائق حتَّى تكون في دنوِّها وقُربها منهم على مقدار ميل، روى مسلم في «صحيحه»(٢) من حديث المقداد بن الأسود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ، فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ،**

(١) أخرجه مسلم (٩٨٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٤).

وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا» وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ.

وجاء في حديثٍ خرَّجه ابن حبَّان وغيره: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يهوِّن ذلك اليوم على أهل الإيمان مع طول مدَّته وفَدَاحة أمره؛ فيكون لهم كما بين صلاتي الظُّهر والعصر في خِفَّته ويُسره وسهولته(١).

وفي القرآن آياتٌ كثيرة تُجَلِّي للعباد ذلك اليوم، وتبيِّن لهم أهواله وأحواله؛ ليتنبَّه العباد، وليستعِدُّوا لذلك اليوم؛ بل في القرآن سورٌ أُفْرِدَت لبيان ذلك اليوم، وإيضاح أمرِه كأنَّه رَأْيُ العين.

روى الإمام أحمد، والتِّرمذيُّ وغيرهما؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ، فَلْيَقْرَأْ:** ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾»(٢)، وهذه السُّور الثَّلاث فيها تفصيلاتٌ عظيمةٌ لأهوال ذلك اليوم وأحواله، والقرآن مشتملٌ في مواضع كثيرة منه على ذكر اليوم الآخر؛ بل لا تكاد تقرأ سورةً من القرآن إلَّا وترى فيها ذكرًا لذلك اليوم، وشيئًا من تفاصيله.

والمبدأ لذلك اليوم: نفخة، والمآل إمَّا إلى الجنَّة أو إلى النَّار.

---

(١) أخرج نحوه ابن حبَّان (٧٣٣٣)، وصحَّحه الألبانِيُّ في «الصَّحيحة» (٦/ ٧٦٩-٧٧٠). وأخرجه نحوه ابن المبارك في «الزُّهد» (٦٤٣)، وابن حبَّان (٧٤١٩)، وحسَّنها الألبانِيُّ في «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» (٣١٨٧).

(٢) أخرجه أحمد (٤٨٠٦)، والتِّرمذيُّ (٣٣٣٣)، وأبو نعيم (٩/ ٢٣١)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

ولنتأمَّل سياقًا عظيمًا في القرآن الكريم؛ يجلِّي هذا المبدأ والمنتهى، يقول الله عَزَّوَجَلَّ في آخر سورة الزُّمر: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٩ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٧٠ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزُّمر: ٦٨ - ٧٥].

وفي ذلك اليوم العصيب يَطُول الوقوف، وتدنو الشَّمس من رؤوس الخلائق؛ فيفزع النَّاس طالبين من الأنبياء أن يشفعوا لهم عند الله؛ بأن يبدأ بالجزاء والحساب، وكلَّما أتوا نبيًّا اعتذر وأحالهم إلى آخر، إلى أن يُحِيلَهم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى محمَّد ﷺ فيقول: «**أَنَا لَهَا**» ويخرّ ساجدًا تحت عرش الرَّحمن ويحمد الله بمحامد يعلِّمه الله إيَّاها في ذلك الوقت، ثمَّ يقول الله له: «**ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**»(١).

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

وحينئذ يجيء الرَّبُّ جلَّ جلاله للفصل بين العباد ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢١-٢٢] أي: صفوفًا مُطوِّقين بالعباد ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾ [الفجر:٢١ - ٢٣]، وجاء في الحديث: أنَّ الَّذِي يأتي بها ملائكةٌ يأمرُهم الله عَزَّوَجَلَّ بسَحبها إلى أرض المحشر، يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: كما في «صحيح مسلم»[(١)]: «**يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا**».

و ما أحوج المسلم إلى التأمُّل في تفاصيل يوم القيامة الواردة في الكتاب والسُّنَّة؛ ليستعدَّ لذلك اليوم، وليتزوَّد له بخير زاد؛ ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

هذا وإنَّ أهل الإيمان في إيمانهم باليوم الآخر على درجتين:

الدَّرجة الأولى: درجة الإيمان الجازم الَّذِي لا شكَّ فيه ولا ريب، وهذه الدَّرجة لا قَبول لعملِ عاملٍ إلَّا بها؛ **فإنَّ الدِّين يقوم على أصول**؛ منها الإيمان باليوم الآخر، ومَن كفر بشيءٍ من أصول الإيمان أو شكَّ فيه؛ بطل عمله وحبط، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التَّوبة: ٥٤]، فالكفر بالله أو برسوله أو بشيءٍ من أصول الإيمان؛ مُحبِطٌ للأعمال كلِّها.

وأمَّا الدَّرجة الثَّانية: فهي درجة الإيمان الرَّاسخ؛ وهي درجةُ أهل الإيمان

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٢).

الكامل، وهم الَّذِين يستحضرون هذا الأصل العظيم في حركاتهم وسكناتهم فيما يأتون ويَذَرون؛ فهُم في كلِّ أعمالهم مُشفِقون من يوم البعث ويوم اللِّقاء؛ ولهذا حسُنت أعمالُهم، وطابت قلوبُهم، وزَكَتْ أخلاقهم، وتنافسوا في رفيع الأعمال وطيِّبها.

وأهل هذا الرُّسوخ يحظَون يوم القيامة بمقامٍ عظيم، ومنزلةٍ رفيعة: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطُّور: ٢٦ - ٢٧]، ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقَّة: ١٩-٢٠] **ومعنى ظَنَنتُ**؛ أي: اعتقدت في حياتي الدُّنيا أنِّي سألقى الحساب.

وهذا الاستحضار له آثاره الطَّيِّبة في سلوك المرء، وقد جاء في الحديث: أنَّ رسول الله كان إذا أراد أن يَرقُدَ، وضع يده اليمنى تحت خدِّه، ثمَّ قال: «**اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبادَكَ**»(١).

(١) أخرجه أحمد (١٨٦٦٠)، والتِّرمذيُّ (٣٣٩٩)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

١٧
حديث: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السَّموات والأرض»

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ -قَالَ- وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**»(١).

هذا أصلٌ عظيمٌ من أصول الإيمان، **وقد جاء ذكر هذا الأصل في القرآن الكريم في مواضع عديدة منه:**

منها: قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:١-٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ [طه:٤٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩]، والآيات في هذا المعنى كثيرة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

والإيمان بالقدر: أصلٌ جاء تبيانه في السُّنة، وتبيان مكانته العظيمة، ومنزلته

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

العليَّة الشَّريفة، **وجاء عن النَّبيِّ ﷺ أحاديث كثيرة في بيان أنَّ الأمور كلَّها بقدر الله عَزَّوَجَلَّ وأنَّ كُلَّ ما وقع وسيقع وكُلَّ ما كان وسيكون كلُّ ذلك بقدر الله** جَلَّوَعَلَا:

روى مسلم عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ**»[(١)]؛ **والكَيْس**: النَّباهة والفطنة والذَّكاء، **والعجز**: هو ضدُّ القدرة، وأصله: التأخر عن الشيء؛ مأخوذٌ من العجز؛ وهو مؤخَّر الشيء؛ فكلُّ ذلك بِقَدَر؛ ولهذا شُرع لنا التَّعوُّذ بالله منه في الدُّعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ**»[(٢)]؛ لأنَّ الَّذِي يُعيذ من العجز والكسل هو الَّذِي بيده أزِمَّة الأمور، ومقاليد السَّماوات والأرض؛ فلا يسْلَم عبدٌ من الكسل، ولا يسْلَم من العجز؛ إلَّا إذا سلَّمه الله؛ لأنَّ الأمور بيد الله عَزَّوَجَلَّ؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وروى الإمام أحمد، والتِّرمذيُّ وغيرهما، عن الوليد بن عبادة بن الصَّامت قال: «دَخَلْتُ عَلَى عُبَادَةَ وَهُوَ مَرِيضٌ أَتَخَايَلُ فِيهِ الْمَوْتَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ! أَوْصِنِي وَاجْتَهِدْ لِي، فَقَالَ: أَجْلِسُونِي، فَلَمَّا أَجْلَسُوهُ قَالَ: يَا بُنَيَّ! إِنَّكَ لَنْ تَطْعَمَ طَعْمَ الْإِيمَانِ، وَلَنْ تَبْلُغْ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللهِ؛ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ! فَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ مِنْ شَرِّهُ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، يَا بُنَيَّ! إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ** تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ **الْقَلَمُ، ثُمَّ قَالَ: «اكْتُبْ»، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»، يَا بُنَيَّ إِنْ مِتَّ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٥). (٢) أخرجه البخاريُّ (٢٨٢٣)، ومسلم (٢٧٠٦).

وَلَسْتَ عَلَى ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ»(١).

فالإيمان بالقدر خيره وشرِّه من الله تعالى أصلٌ لا ينتظم دين العبد، ولا يستقيم أمره إلَّا به، وقول عبادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لَنْ تَطْعَمَ طَعْمَ الْإِيمَانِ وَلَنْ تَبْلُغْ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ» هذا يُبيِّن أنَّ الَّذِي لا يؤمن بالقدر ما عرفَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا عرَف عظمة الله، ولا قَدَرَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حقَّ قَدرِه، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزُّمر: ٦٧]، قال الإمام أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ: «القَدَرُ قُدرَةُ الله»(٢)؛ فالَّذِي لا يؤمن بالقدَرِ هو في الحقيقة لا يعرف الله، وليس من الموحِّدين؛ ولهذا جاء عن الصَّحابِيِّ الجليل عبد الله بن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّه قال: «القدَرُ نظام التَّوحيد؛ فمَن آمن بالله، وكذَّب بالقدر؛ نقض تكذيبُه توحيدَه»(٣) أي: أنَّه بتكذيبه بالقدَر ينتقض توحيده؛ فلا يكون مؤمنًا.

وإذا كان الإيمان بالقدَر نظامُ التَّوحيد؛ بمعنى أنَّ توحيد العبد لا ينتظم إلَّا بالإيمان بالقدر؛ فإنَّ التَّوحيد نفسَه نظامُ الحياة؛ فحياة الإنسان لا تنتظم إلَّا بتوحيد الله، ومَن لم يوحِّد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تكون أموره وحياته وشؤونه كلُّها فُرُطًا؛ كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]؛ فإذا انهدم التَّوحيد انفرطت الحياة، وضاع الزِّمام،

(١) أخرجه أحمد (٢٢٧٠٥)، واللَّفظ له، والتِّرمذيُّ (٢١٥٥)، والنَّسائِيُّ (٤٧٠٠) بنحوه، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٢) أخرجه ابن هانئ عنه في «المسائل» (١٨٦٨).

(٣) أخرجه الفريابيُّ في «القدر» (٢٠٥).

وانفلت الخِطام، وتبدَّدت الأمور، وعاش الإنسان في ضياع، وأصبحت حياته كلُّها تَباب، لا قيمة لها، خسرانٌ في خسران، فلا تنتظم الحياة إلَّا بتوحيدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا ينتظم توحيده جَلَّ وَعَلَا إلَّا بالإيمان بقدره، وأنَّ الأمور كلَّها بتقديره عَزَّ وَجَلَّ، وأنَّ ما شاء جَلَّ وَعَلَا كان، وما لم يشأ لم يكن.

قال الإمام الشَّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في أبياتٍ له جميلة في تقرير الإيمان بالقدر قال:

«ما شئتَ كان وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن
خلقتَ العباد على ما علمت ... وفي العلم يجري الفتى والمُسن
على ذا مننْتَ وهذا خذلتَ ... وهذا أعنْتَ وذا لم تُعِن
فمنهم شقيٌّ ومنهم سعيد ... ومنهم قبيحٌ ومنهم حَسن»[(١)].

أي: هذا كلُّه بمشيئة الله، وبتدبيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثمَّ إنَّ الإيمان بالقدر لا يستقيم إلَّا بالإيمان بمراتبه؛ **وهي مراتب أربعة، لا يكون العبد مؤمنًا بالقدر إلَّا إذا آمن بها:**

المرتبة الأولى: الإيمان بعِلم الله عَزَّ وَجَلَّ الشَّامل، المحيط، الواسع لكلِّ شيء، وأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أحاطَ بكلِّ شيءٍ علمًا، وأحصى كلَّ شيء عددًا، علِم ما كان، وعلِم ما سيكون، وعلِم ما لم يكن لو كان كيف يكون؛ قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ

(١) أخرج هذه الأبيات عنه: الثَّعلبيُّ في «تفسيره» (٧/ ٤٧-٤٨)، والبيهقيُّ في «مناقب الشَّافعيِّ» (٢/ ١٠٩).

ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ١-٣]، وقال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]؛ **فالإيمان بعلم الله** جَلَّ وَعَلَا **المحيط بكلِّ شيءٍ: أصلٌ من أصول الإيمان بالقدَر، وركنٌ من أركانه.**

المرتبة الثَّانية: الإيمان بالكتابة، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كتب كلَّ ما هو كائنٌ في اللَّوح المحفوظ؛ قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢-٥٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

وهذه الآية من سورة (يس) ذُكِر فيها نوعان من الكتابة:

النَّوع الأوَّل: كتابة الملَك؛ وهي الكتابة المقارِنة للفعل، ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾؛ فهذه كتابةٌ مقارِنة للفعل؛ فكلُّ فعلٍ يفعله العبد؛ يَكتبُه الملَك مباشرةً ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

النَّوع الثَّاني: ما ورد في خَتْمِ الآية؛ قول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ﴾ وهي الكتابة الَّتي كانت في اللَّوح المحفوظ، **والإمام هنا**: اللَّوح المحفوظ؛ يُقال له: الإمام، ويُقال له: الزُّبُر، ويُقال له: اللَّوح المحفوظ.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كتب في اللَّوح المحفوظ كلَّ ما هو كائنٌ إلى قيام السَّاعة؛ كما في الصَّحيح أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**»(١).

المرتبة الثَّالثة: من مراتب الإيمان بالقدر: الإيمان بمشيئة الله جَلَّ وَعَلَا النَّافذة، وقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الشَّاملة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٠]، وأنَّ ما شاء الله كان طِبقًا لِمَا شاء، في الوقت الَّذي شاء، على الوجه الَّذي شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حتَّى وإن لم يشأ ذلك العبد؛ قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التَّكوير: ٢٨-٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ [الانسان: ٢٩-٣٠].

المرتبة الرَّابعة: الإيمان بأنَّ الله خالق كلِّ شيء، وأنَّ جميع ما وُجد ويوجد فَالله خالقُه؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزُّمر: ٦٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: خالق الأشخاص والذَّوات، وخالق الصِّفات والأعمال؛ فأعمال العباد من خيرٍ وشرٍّ كلُّها مخلوقةٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ الله خلق العباد، وخلق أعمالهم، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فَاللهُ جَلَّ وَعَلَا خالق كلِّ شيء، فالعبد مخلوق، وحركاته، وسكناته؛ مخلوقة لله.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

فهذه أربع مراتب عظيمة لا يكون العبد مؤمنًا بالقدر إلَّا بالإيمان بها: العلم، والكتابة، والمشيئة، والإيجاد.

وهنا يرد سؤالٌ مهمٌّ؟ ينبغي التَّنبُّه له و لجوابه؛ ففيه خيرٌ عظيم وهو:

إذا كانت الأمور كلُّها مقدَّرة وكلُّها مكتوبةٌ، ولا يكون أمرٌ إلَّا بمشيئة الله؛ لماذا نعمل؟ ففيمَ العمل؟

وهو سؤال كما يُقال: يطرح نفسه، والصَّحابةُ الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ طرحوه على النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في غير ما مناسبة؛ ولهذا جاء في حديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّهم سألوا النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ! أَنَعْمَلُ فِي أَمْرٍ مُسْتَأْنَفٍ، أَوْ فِي أَمْرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ؟ فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**بَلْ فِي أَمْرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ**» فقالوا: فَفِيمَ الْعَمَلُ؟(١).

وجاء في بعض الرِّوايات قالوا: أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ العَمَلَ؟ قال: «**اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**»، ثمَّ تلا قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [اللَّيل: ٥-١٠](٢).

ويتلخَّص هذا الجواب في أمرين: أن يجاهد العبد نفسه على الأعمال

---

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على «المسند» (١٦٦٣٠)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (٤٢٣٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٤٩٤٩) واللَّفظ له، ومسلم (٢٦٤٧) بنحوه.

الصَّالحات، والطَّاعات الزَّاكيات، والبعد عن الأعمال المحرَّمات، وفي الوقت نفسه يلجأ إلى الله أن يعينه، ويحفظه، ويثبِّته؛ فهو طَوعُ تدبيرِه، ومن الدُّعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو؛ فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»[(١)]، وفي الدُّعاء الآخر قال: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»[(٢)]، ومن أدعية القرآن: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [آل عمران: ٨] فكلُّ ذلك بيده.

(١) أخرجه أحمد (٢٠٤٣٠)، وأبو داود (٥٠٩٠)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

١٨
حديث: «المؤمن القويُّ خيرٌ وأحَبُّ إلى الله من المؤمن الضَّعيف»

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا؛ وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[(١)].

أفاد هذا الحديث: أنَّ أهل الإيمان متفاوتون في الإيمان قوَّةً وضعفًا، زيادةً ونقصًا، وأنَّهم ليسوا في إيمانهم على رتبة واحدة، ولا على درجة واحدة؛ بل بينهم تفاوتٌ كبير؛ فمنهم قويُّ الإيمان، ومنهم ضعيفُ الإيمان، وأنَّ القويَّ في إيمانه خيرٌ وأحَبُّ إلى الله من المؤمن ضعيف الإيمان، وإنْ كان في كلٍّ منهما خير؛ فوجود الإيمان -وإن قَلَّ- هو خيرٌ للإنسان، وفلاحٌ له، وسعادةٌ في الدُّنيا والآخرة.

ولمَّا كان إيمان المؤمنين متفاوتًا؛ تفاضلت درجاتهم في الجنَّة بحسب تفاضلهم في الإيمان؛ فمَن كان إيمانه أشدَّ وأقوى؛ كان أعلى درجةً، وأرفعَ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

من غيره، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال: ٤]، وقال: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٢١]، وقال: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة: ١١]، وقد ميَّز الله بين منازل الجنَّة، وجعلها درجات بعضها أرفع من بعض؛ لأنَّ المؤمنين ليسوا سواء في إيمانهم؛ بل بعضهم أعظمُ وأقوى إيمانًا من بعض، ودرجةُ المؤمن القويِّ في الجنَّة أعلى، ومنزلته أرفع ممَّن هو دونه في الإيمان.

قال الشَّيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكما أخبر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن تفاوتهم في الإيمان في دار التَّكليف؛ كذلك جعل الجنَّة الَّتي هي دار الثَّواب متفاوتة الدَّرجات، مع كون كلٍّ منهم فيها؛ فقال في سورة الرَّحمن: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٧ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ٤٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٩ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ٥٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥١ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ٥٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٣ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٥ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ٥٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٧ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٥٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرَّحمن: ٤٦-٥٩] إلى آخر السُّورة، وكذا في سورة الواقعة أخبر بصفة الجنَّة الَّتي يدخلها السَّابقون أعظم وأعلى من صفات الجنَّة الَّتي يدخلها أصحاب اليمين، وكذلك في سورة المُطَفِّفين؛ قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ٢٥ خِتَٰمُهُۥ

مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٨] وغير ذلك من الآيات.

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ**»(١).

وأهل الجنَّة متفاوتون في الدَّرجات؛ حتَّى إنَّهم يتراءون أهلَ علِّيِّين، يرون غُرَفهم من فوقهم كما يُرى الكوكب في الأفق الشَّرقيِّ أو الغربيِّ، ومتفاوتون في الأزواج، ومتفاوتون في الفواكه من المطعوم والمشروب، ومتفاوتون في الفرش والملبوسات، ومتفاوتون في المُلك، ومتفاوتون في الحُسن، والجمال، والنُّور، ومتفاوتون في قربهم من الله عَزَّوَجَلَّ، ومتفاوتون في تكثير زيارتهم إيَّاه، ومتفاوتون في مقاعدهم يوم المزيد، ومتفاوتون تفاوتًا لا يعلمه إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ...»(٢).

وما هذا التَّفاوت بينهم إلَّا لأنَّهم متفاوتون في الإيمان قوَّةً وضعفًا، زيادةً ونقصًا.

وقول النَّبيِّ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**» فيه أنَّ الخيريَّة بحسب حظِّ المرء من الإيمان؛ فالمؤمن القويُّ خيرٌ وأحَبُّ إلى الله من المؤمن الضَّعيف، وهذا فيه حثٌّ على الاجتهاد في القوَّة في الطَّاعة والإيمان والعبادة والتَّقرُّب إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠) واللَّفظ له.
(٢) «معارج القبول بشرح سُلَّم الوصول إلى علم الأصول» (٣/ ١٠٠٩-١٠١٠).

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السِّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**هذا الحديث اشتمل على أصولٍ عظيمةٍ، وكلماتٍ جامعةٍ:**

فمنها: إثبات المحبَّة صفةً لله، وأنَّها مُتَعَلِّقةٌ بمحبوباته، وبمَن قام بها، ودلَّ على أنَّها تتعلَّق بإرادته ومشيئته، وأيضًا تتفاضل؛ فمحبَّته للمؤمن القويِّ أعظمُ من محبَّته للمؤمن الضَّعيف.

ودلَّ الحديث على أنَّ الإيمان: يشمل العقائد القلبيَّة، والأقوال، والأفعال؛ كما هو مذهب أهل السُّنَّة والجماعة؛ فإنَّ الإيمان بضع وسبعون شعبة؛ أعلاها: قول لا إله إلَّا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطَّريق، والحياء شعبة منه، وهذه الشُّعَب الَّتِي ترجع إلى الأعمال الباطنة والظَّاهرة كلُّها من الإيمان؛ فمَن قام بها حقَّ القيام، وكَمَّل نفسه بالعلم النَّافع، والعمل الصَّالح، وكمَّل غيره بالتَّواصي بالحقِّ، والتَّواصي بالصَّبر: فهو المؤمن القويُّ الَّذِي حاز أعلى مراتب الإيمان، ومَن لم يصل إلى هذه المرتبة: فهو المؤمن الضَّعيف.

وهذا من أدلَّة السَّلف على أنَّ الإيمان يزيد وينقص؛ وذلك بحسب علوم الإيمان ومعارفه، وبحسب أعماله.

وهذا الأصل قد دلَّ عليه الكتاب والسُّنَّة في مواضع كثيرة.

ولمَّا فاضَل النَّبيُّ ﷺ بين المؤمنين قويِّهم وضعيفهم؛ خَشِيَ من توهُّم القدْح في المفضول؛ فقال: «**وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ...**».

وفي هذا الحديث: أنَّ المؤمنين يتفاوتون في الخيريَّة، ومحبَّة الله، والقيام

بدينه، وأنَّهم في ذلك درجات ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف: ١٩]، **ويجمعهم ثلاثة أقسام:**

السَّابقون إلى الخيرات: وهم الَّذِين قاموا بالواجبات والمستحبَّات، وتركوا المُحَرَّمات، والمكروهات، وفضول المباحات، وكمَّلوا ما باشروه من الأعمال، واتَّصفوا بجميع صفات الكمال.

ثمَّ المقتصدون: الَّذِين اقتصروا على القيام بالواجبات، وترك المحظورات.

ثمَّ الظالمون لأنفسهم: الَّذِين خلطوا عملًا صالحًا، وآخر سيِّئًا.

وقوله ﷺ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ**» كلامٌ جامعٌ نافعٌ، مُحْتوٍ على سعادة الدُّنيا والآخرة.

والأمور النَّافعة قسمان: أمور دينيَّة، وأمور دنيويَّة، والعبد محتاج إلى الدُّنيويَّة كما أنَّه محتاج إلى الدِّينيَّة؛ فمدار سعادته وتوفيقه: على الحرص والاجتهاد في الأمور النَّافعة منهما، مع الاستعانة بالله تعالى؛ **فمتى حرص العبد على الأمور النَّافعة واجتهد فيها، وسلك أسبابها وطرقها، واستعان بربِّه في حصولها وتكميلها:** كان ذلك كمالَه، وعنوان فلاحِه، **ومتى فاتَه واحدٌ من هذه الأمور الثَّلاثة:** فاته من الخير بحسبها، فمَن لم يكن حريصًا على الأمور النَّافعة؛ بل كان كسلانًا لم يدرك شيئًا، **فالكسل: هو أصل الخيبة والفشل؛** فالكسلان لا يدرك خيرًا، ولا ينال مَكرُمَةً، ولا يحظى بدينٍ ولا دنيا، ومتى كان حريصًا، ولكن على غير الأمور النَّافعة؛ إمَّا على أمور ضارَّة، أو مفوِّتة للكمال: كان ثمرةُ حرصه الخيبةَ، وفواتَ الخير، وحصولَ الشَّرِّ والضَّرر؛

فكم من حريصٍ على سلوك طُرُقٍ وأحوالٍ غيرِ نافعة؛ لم يستفد من حرصه إلَّا التَّعب والعناء والشَّقاء.

ثمَّ إذا سلك العبد الطُّرُقَ النَّافعة، وحَرص عليها، واجتهد فيها: لم تتمَّ له إلَّا بصدق اللَّجأ إلى الله، والاستعانة به على إدراكها وتكميلها، وأن لا يتَّكل على نفسه وحَوْله وقوَّته، بل يكون اعتماده التَّامُّ بباطنه وظاهره على ربِّه؛ فبذلك تَهُون عليه المصاعب، وتتيسَّر له الأحوال، وتتمُّ له النَّتائج والثَّمرات الطَّيِّبة في أمر الدِّين وأمر الدُّنيا؛ لكنَّه في هذه الأحوال محتاجٌ -بل مضطرٌّ غاية الاضطرار- إلى معرفة الأمور الَّتِي ينبغي الحرص عليها، والجدُّ في طلبها.

فالأمور النَّافعة في الدِّين ترجع إلى أمرين: علم نافع، وعمل صالح.

أمَّا العلم النَّافع: فهو العلم المزكِّي للقلوب والأرواح، المثمر لسعادة الدَّارين؛ وهو ما جاء به الرَّسول ﷺ من حديثٍ وتفسيرٍ وفقهٍ، وما يعين على ذلك من علوم العربيَّة بحسب حالة الوقت والموضع الَّذِي فيه الإنسان...

وأمَّا الأمر الثَّاني: وهو العمل الصَّالح؛ فهو الَّذِي جمع الإخلاص لله، والمتابعة للرَّسول ﷺ، وهو التَّقرُّب إلى الله باعتقاد ما يجب لله من صفات الكمال، وما يستحقُّه على عباده من العبوديَّة، وتنزيهه عمَّا لا يليق بجلاله، وتصديقه وتصديق رسوله في كُلِّ خبر أخبرا به عمَّا مضى، وعمَّا يُستقبَل؛ عن الرُّسل، والكتب والملائكة، وأحوال الآخرة، والجنَّة والنَّار، والثَّواب والعقاب، وغير ذلك.

ثمَّ يسعى في أداء ما فرضه الله على عباده: من حقوق الله، وحقوق خلقه،

ويكمِّل ذلك بالنَّوافل والتَّطوُّعات، خصوصًا المؤكَّدة في أوقاتها، مستعينًا بالله على فعلها، وعلى تحقيقها وتكميلها، وفِعلِهَا على وجه الإخلاص الَّذِي لا يَشُوبُهُ غَرَضٌ من الأغراض النَّفسيَّة.

وكذلك يتقرَّب إلى الله بترك المُحَرَّمات، وخصوصًا الَّتِي تدعو إليها النُّفوس، وتميل إليها؛ فيتقرَّب إلى ربِّه بتركها لله، كما يتقرَّب إليه بفعل المأمورات؛ فمتى وفِّق العبد بسلوك هذا الطَّريق في العمل، واستعان الله على ذلك؛ أفلح ونجح، وكان كماله بحسب ما قام به من هذه الأمور، ونقصه بحسب ما فاته منها.

وأمَّا الأمور النَّافعة في الدُّنيا: فالعبد لا بُدَّ له من طلب الرِّزق؛ فينبغي أن يسلك أنفعَ الأسباب الدُّنيويَّة اللَّائقة بحاله؛ وذلك يختلف باختلاف النَّاس، ويقصد بكسبه وسعيه القيامَ بواجب نفسه، وواجب مَن يعوله ومَن يقوم بمؤنته، وينوي الكفاف والاستغناء بطلبه عن الخلق، وكذلك ينوي بسعيه وكسبه تحصيل ما تقوم به العبوديَّات الماليَّة؛ من الزَّكاة والصَّدقة، والنَّفقات الخيريَّة الخاصَّة والعامَّة؛ ممَّا يتوقَّف على المال، ويقصد المكاسب الطَّيِّبة، متجنِّبًا للمكاسب الخبيثة المُحَرَّمة»[(١)].

ثمَّ إنَّه ﷺ حضَّ على الرِّضا بقضاء الله وقدره، بعد بذل الجهد، واستفراغ الوسع في الحرص على النَّافع؛ فإذا أصاب العبدُ ما يكرهه فلا يَنسِبُ ذلك إلى ترك بعض الأسباب الَّتِي يظنُّ نفعها لو فعلها؛ بل يسكن إلى قضاء الله

(١) «بهجة قلوب الأبرار» (٢٤-٢٨).

وقدره؛ ليزدادَ إيمانُه، ويَسكُنَ قَلبُه، وتَستَرِيحَ نفسُه؛ فإنَّ «**لَوْ**» في هذه الحال تفتح عمل الشَّيطان بنقص إيمانه بالقَدَر، واعتراضِهِ عليه، وفَتْحِ أبواب الهمِّ والحزن المُضعِف للقلب.

وهذه الحال الَّتِي أرشد إليها النَّبِيُّ ﷺ هي أعظم الطُّرق لراحة القلب، وأدعى لحصول القناعة والحياة الطَّيِّبة؛ وهو الحرص على الأمور النَّافعة، والاجتهاد في تحصيلها، والاستعانة بالله عليها، وشكر الله على ما يسَّرَهُ منها، والرِّضَا عنه بما فات ولم يحصَّل منها.

وقوله: «**وَاسْتَعِنْ بِاللهِ**» إيمانٌ بالقضاء والقدر، وأمْرٌ بالتَّوكُّل على الله الَّذِي هو الاعتماد التَّامُّ على حَوله وقوَّته تعالى في جلب المصالح ودفع المضارِّ، مع الثِّقة التَّامَّة بالله في نجاح ذلك.

فالمتَّبع للرَّسول ﷺ يتعيَّن عليه أن يتوكَّل على الله في أمر دينه ودنياه، وأن يقوم بكُلِّ سببٍ نافعٍ بحسب قدرته وعلمه ومعرفته، والله المستعان.

١٩
حديث: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»[١].

هذا الحديث فيه دلالةٌ على أنَّ حُسنَ الخلق من الإيمان، وأنَّ المسلم كُلَّما ازداد منه؛ زاد إيمانه، وارتقى إلى الكمال، وأنَّ النَّقص منه نقصٌ من الإيمان؛ فهو يدلُّ على أنَّ الإيمان يزيد وينقص؛ يزيد بحُسن الخلق، ويَنقُصُ بنَقصِهِ؛ كمَا أنَّه يزيد بالطَّاعة، وينقص بالمعصية، وأنَّ المؤمنين متفاوتون في إيمانهم؛ فبعضهم أكمل إيمانًا من بعض، وأنَّ الإيمان يتفاضل؛ فيكون إيمانٌ أكملَ من إيمانٍ.

وقد دلَّ الكتاب والسُّنَّة على أنَّ الإيمان يزيد وينقص، ويقوى ويَضعُف، وأنَّ لزيادة الإيمان أسبابًا، وأنَّ لنقص الإيمان أسبابًا -أيضًا-، والواجب على المسلم أن يرعى إيمانه، وأن يحرص على معرفة الأسباب الَّتِي يزيد بها إيمانُه فيفعلها، ويواظب عليها؛ حتَّى يزداد بذلك إيمانًا، وأن يعرف أيضًا أسبابَ

(١) أخرجه أحمد (٧٤٠٢)، وأبو داود (٤٦٨٢)، والتِّرمذيُّ (١١٦٢)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

نقص الإيمان؛ ليتجنَّب تلك الأمور الَّتِي تُضعِف إيمانَه وتُوهِّيه، والخُلُق الفاضل الكريم ممَّا يزيدُ به المؤمن ويَكمُلُ، كما أنَّ الأخلاق السَّيِّئة نقصٌ في الإيمان وضَعفٌ ووَهاء.

روى أبو داود عن أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي المِيْزَانِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ**»[١]، ورواه التِّرمذيُّ بلفظ: «**مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ**»[٢].

وهذا فيه إثبات ميزان الأعمال الَّذِي ينصب يوم القيامة، وأنَّ أعمال العباد توزن فيه، وهو يدلُّ على عظيم شأن حسن الخلق وعظيم ثوابه عند الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنَّه من أثقل ما يكون في الميزان عندما توزن الأعمال؛ لأنَّه من أجلِّ خصال الإيمان وأفضل أعماله.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**» رواه أحمد[٣]، ورواه البزَّار[٤] بلفظ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**».

فبعثه الله ليدعو النَّاس إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويُنذِرَهم سيِّئَ الأخلاق، وسيِّئَ الأعمال، **وقد دعاهم إليه قولًا وفعلًا:**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٠٠٣)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٣) أخرجه أحمد (٢٩٥٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٢٣٤٩).

(٤) أخرجه البزَّار في «المسند» (٨٩٤٩).

أمَّا قولًا: فقد تكاثرت عنه الأحاديث في الحثِّ على الأخلاق الكاملة، والآداب الرَّفيعة، والحثِّ عليها، وبيان ما أعدَّ الله لأهلها من الثَّواب العظيم، والأجر الجزيل.

وأمَّا فعلًا: فقد كان قدوةً للعالمين بما وهبه الله من الخلق الكامل، والأدب الرَّفيع؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: «قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ! أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ، قَالَ: فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ، وَلَا أَسْأَلُ أَحَدًا عَنْ شَيْءٍ؛ حَتَّى أَمُوتَ»[١].

والخلق الفاضل عنوانُ فلاحِ المرء وسعادتِه في الدُّنيا والآخرة، وما استُجلِبَتِ الخيرات بمثل الخُلق الفاضل، **والدِّينُ كلُّه خُلُقٌ، فمَن زاد عليك في الخلق؛ زاد عليك في الدِّين.**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ؟ فَقَالَ: «**تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ**»[٢].

فجعله النَّبيُّ ﷺ من أسباب دخول الجنَّة، وقَرَنَه بالتَّقوى الَّتي هي أعظم وصيَّة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «جمع النَّبيُّ ﷺ بين تقوى الله وحسن الخلق؛ لأنَّ

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦). (٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٠٠٤)، وحسَّنه الألبانيُّ.

تقوى الله يُصلِح ما بين العبد وبين ربِّه، وحُسن الخلق يُصلِحُ ما بينه وبين خلقه؛ فتقوى الله تُوجِبُ له محبَّة الله، وحسن الخلق يدعو الى محبَّته»(١).

وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا**»(٢).

فكُلَّما كان المرء أحسن خلقًا؛ كان أقرب إلى رسول الله ﷺ مجلسًا يوم القيامة من غيره، وكُلَّما كان أسوأَ خلقًا؛ كان أبْعَد.

والأخلاق الفاضلة تقوم على أربعة أركان؛ مَن اعتنى بها كان -بإذن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ- من أهل الأخلاق، ومَن ضيَّعها -أو ضيَّع منها شيئًا- ضاع منه الخُلق بحسب ما أضاع من هذه الأركان، وقد اجتمعت هذه الأركان للأخلاق في أربعة أحاديث؛ كلُّ حديثٍ منها دلَّ على ركنٍ من أركان الأخلاق.

نقل الحافظ ابن رجب في كتابه «جامع العلوم والحكم» عن أبي محمَّد بن أبي زيد القيروانِيِّ إمام المالكيَّة في زمانه أنَّه قال: «**جماع آداب الخير وأزمَّته تتفرَّع من أربعة أحاديث:**

قول النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»(٣).

وقوله ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»(٤).

---

(١) انظر: الفوائد لابن القيِّم (ص٧٦).
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٠١٨)، وصحَّحه الالبانِيُّ، وأصله عند البخاريِّ (٣٧٥٩).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).
(٤) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

وقوله للَّذِي اختصر له في الوصيَّة: «**لَا تَغْضَبْ**»[(١)].

وقوله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ يُحِبُّ لِأَخِيْهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[(٢)].[(٣)].

فهذه الأحاديث الأربعة -وكلُّها من أحاديث الأربعين للنَّوويِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ- جَمَعَتِ الأخلاق والآداب، وجميعُ أحاديث الأخلاق المرويَّة عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الأخلاق راجعةٌ إلى هذه الأحاديث الأربعة، وهذا يفيدنا أنَّ مَن وُفِّق لفهم هذه الأحاديث وتطبيقها؛ فإنَّه يكون قد اجتمعت فيه أركان الأخلاق وأعمِدَتُه؛ **لأنَّ الأخلاق تقوم على أركان أربعة:**

الرُّكن الأوَّل: صيانة اللِّسان؛ قال ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»، ومَن لم يصُن لسانه؛ لن يكون من أهل الأخلاق؛ إذ من الأسس العظيمة والدَّعائم المتينة الَّتِي تقوم عليها الأخلاق: صيانة اللِّسان، **ومعنى صيانة اللِّسان**: أي ضبطه وحبسه عن الكلام إلَّا ما كان فيه فائدة، فقول النَّبِيِّ ﷺ: «**فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**» فيه دعوةٌ للتَّفكُّر في الكلام قبل الكلام؛ لأنَّ الكلمة قبل أن تخرج يملكها المرء، وإذا خرجت ملكَتْهُ؛ ولهذا: من الجميل بالمسلم أن يتفكَّر في كلامه قبل أن يتكلَّم، **وإذا تفكَّرتَ فيه وجدتَه لا يخرج عن ثلاث أحوال:**

١- إمَّا أن يتبيَّن له أنَّه خيرٌ بيِّن واضح؛ فيتكلَّم به ولا حرج.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦١١٦).
(٢) أخرجه البخاريُّ (١٣)، ومسلم (٤٥).
(٣) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبليِّ (ص٢٥٨).

٢- وإمَّا أن يتبيَّن له أنَّه شرٌّ بيِّن: إمَّا غيبةٌ، أو كذِبٌ، أو سخريةٌ، أو نميمةٌ، أو غير ذلك من الشَّرِّ البيِّن؛ فيمنع نفسَه منه، ويصون لسانَه عنه.

والأمر الثَّالث: أن يكون مشتبهًا عليه، لا يدري هل هو خيرٌ أو شرٌّ؛ فهذه الحالة أيضًا يمنع نفسه من التَّكلُّم به؛ لقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ**»(١)، ولقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَالَا يَرِيبُكَ**»(٢).

فهذا أساسٌ لابدَّ منه في باب الأخلاق؛ أن يصونَ المرءُ لسانَه، وأن يحفظ كلامَه؛ فلا يتكلَّم إلَّا بخير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، وفي الحديث قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ** -أو عَلَى مَنَاخِرِهِمْ- **إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»(٣).

الحاصل: أنَّ من أساسيَّات الأخلاق وأركانه الَّتي عليها يقوم: صيانة اللِّسان، وحفظه، ومَن لا يصون لسانَه؛ لن يكونَ من أهل الأدب والخُلُق.

الرُّكن الثَّاني من أركان الأخلاق: البُعد عن الفضول وما لا يعني؛ قال ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»(٤)، والإنسان الفضوليُّ لن يكون ذا أدبٍ وخلُقٍ؛ لأنَّ فضولَه وإقحامَه لنفسِه فيما لا يعنيه؛ يُخرجه عن حيِّز

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) واللَّفظ له.
(٢) أخرجه أحمد (١٧٢٣)، والتِّرمذيُّ (٢٥١٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٣) أخرجه أحمد (٢٢٠١٦)، والتِّرمذيُّ (٢٦١٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٤) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

الأدب، بينما إذا كان بعيدًا عن الفضول، بعيدًا عن الدُّخول فيما لا يعنيه؛ فهذا من سمات الأدب؛ بل من أعمدته.

ومعنى قوله ﷺ: «**تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**» أي: بضابط الشرع لا بضابط الهوى، وهذا أمرٌ قد يُغفل عنه؛ لأن بعض الناس قد يوظِّف هذا الحديث في غير بابه؛ مثل أن يُؤمَر بخيرٍ أو يُنهى عن منكرٍ؛ فيقول للآمر الناهي: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»[(١)]؛ وهذا من سوء الفهم للحديث؛ لأنَّ هذا ممَّا يعني المسلم بضابط الشَّرع؛ بالحكمة، واللِّين، والأسلوب الحسن.

الرُّكن الثَّالث: من أركان الأخلاق: عدم الانسياق مع انفعالات النَّفس وبخاصَّة الغضب؛ قال ﷺ: «**لَا تَغْضَبْ**»، فعندما ينفعل الإنسان ويغضب عليه أن لا يباشر وقتَ غضبه أيَّ قولٍ أو أيَّ فعلٍ؛ لأنَّ أيَّ قولٍ وأيَّ فعلٍ يباشره وقتَ غضَبِهِ سيخرج به -في الغالب- عن نطاق الخُلق والأدب.

وقد قيل في ذمِّ الغضب وتقبيحه: «الغضب أوَّله جنون، وآخره ندم»؛ لأنَّ الَّذِي يتصرَّف وقت غضبه بقولٍ أو بفعلٍ؛ يتصرَّف بغير انضباط؛ ولهذا: على الإنسان أن لا ينساق مع انفعالات النَّفس؛ فإذا كان منفعلًا يجلس، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ؛ فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ**»[(٢)]، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ**»[(٣)]؛

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) أخرجه أحمد (٢١٣٨٦)، وأبو داود (٤٧٨٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٣) أخرجه أحمد (٢١٣٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ في «الصَّحيحة» (١٣٧٥).

قوله «**فَلْيَسْكُتْ**»: امتناعٌ عن الكلام وقت الغضب، وقوله «**فَلْيَجْلِسْ**»: امتناعٌ عن الفعل وقت الغضب.

فهذان الأمران -الكلام والفعل- وقتَ الغضب مطلوبان من المسلم أن يكفَّ نفسه عنهما إلى أن يسكن غضبه؛ لأنَّه وقتَ انفعاله قد يباشر أقوالًا وأعمالًا تتنافى مع الأدب والخلق؛ فيحتاج مَن أراد لنفسه أن يكون خَلوقًا أن لا ينساق مع انفعالات النَّفس، ولا سيَّما وقت غضبه، وقد جاء في بعض روايات الحديث أنَّ الصَّحابيَّ قال: «فتأمَّلتُ ذلك؛ فوجدتُ أنَّ الغضب جِمَاعُ الشَّرِّ»(١)؛ لأنَّه إذا كان ينساق مع انفعالاته ومع غضبه سيفضي به ذلك إلى الوقوع في شرورٍ عظيمة؛ لا تُحمَد عاقبتُها.

الأمر الرَّابع: من أركان الأدب والأخلاق: سلامة الصَّدر؛ قال ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(٢)، فهذا الحديث يُعَدُّ عمدةً في باب الأخلاق؛ أن يكون صدر المرء سليمًا لا يكون فيه غلٌّ، أو حقدٌ، أو سخائمُ، أو ضغائنُ، أو نحو ذلك من أسقام القلوب وأمراضها، ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحشر: ١٠].

فسلامة الصَّدر ركيزةٌ عظيمةٌ يقوم عليها الخلق، والَّذِي في صدره دواخلُ سيِّئة، وبواطن فاسدة؛ لا يمكن أن يكون من أهل الأخلاق؛ لأنَّ فساد الباطن وانحرافَه ينعكس على ظاهره؛ «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ**

(١) انظر: «مسند أحمد» (٢٣١٧١).
(٢) أخرجه البخاريُّ (١٣)، ومسلم (٤٥).

الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[١]، فإذا صلح قلبه المرء وطابت سريرته من الدَّواخل السَّيِّئة والبواطن الفاسدة؛ فإنَّه بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى سيتحقَّق فيه الخُلق بأبهى صوَره، وأجمل حُلَلِه.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

٢٠

حديث: «لا يزني الزَّاني حين يزني وهو مؤمن»

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهْوَ مُؤْمِنٌ**»(١).

هذا الحديث من جملة أحاديث الإيمان العظيمة المبيِّنة لمكانته العليَّة، وأهمِّيَّة رعاية المسلم لإيمانه، وصيانته من كلِّ أمرٍ يدنِّسه، أو يضعفه ويُوهيه.

والمراد بنفي الإيمان في هذا الحديث: نفي كمال الإيمان الواجب عمَّن اقترف هذه المعاصي، وأنَّه لا يقع فيها وهو كامل الإيمان، ووقوعُ المرء فيها عادَ إلى ضعف محبَّة الله في قلبه.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «**ومحبَّة الله تعالى على درجتين:**

إحداهما: واجبة؛ وهي المحبَّة الَّتي توجب للعبد محبَّةَ ما يُحِبُّه الله من الواجبات، وكراهةَ ما يكرهه من المُحَرَّمات؛ **فإنَّ المحبَّة التَّامَّة** تقتضي

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٤٧٥) واللَّفظ له، ومسلم (٥٧).

الموافقةَ لمَن يحبُّه في محبَّة ما يحبُّه، وكراهةَ ما يكرهه، خصوصًا فيما يُحِبُّه ويكرهه من المُحِبِّ نفسِه؛ فلا تصحُّ المحبَّة بدون فعلِ ما يحبُّه المحبوب من مُحِبِّه، وكراهة ما يكرهه المحبوب من مُحِبِّه.

أنشدَ بعضُهم:

تعصى الإلـهَ وأنـت تزعُـمُ حبَّـه ... هـذا لَعَمـري في القيـاسِ شـنيعُ
لـو كان حبُّـك صادقًـا لأطعتَـه ... إنَّ المحـبَّ لِمَـن يحـبُّ مُطيـعُ

ومتى أخلَّ العبد ببعض الواجبات، أو ارتكب بعض المُحَرَّمات؛ فمحبتُه لربِّه غيرُ تامَّة؛ فالواجب عليه المبادرة بالتَّوبة، والاجتهاد في تكميل المحبَّة المفضية لفعل الواجبات كلِّها، واجتناب المُحَرَّمات كلِّها، وهذا معنى قول النَّبيِّ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ**».

فإنَّ الإيمان الكامل يقتضي محبَّةَ ما يُحِبُّه الله، وكراهةَ ما يكرهه الله عَزَّوَجَلَّ، والعمل بمقتضى ذلك؛ فلا يرتكب أحد شيئًا من المُحَرَّمات، أو يخلُّ بشيءٍ من الواجبات؛ إلَّا لتقديم هوى النَّفس المقتضي لارتكاب ذلك على محبَّة الله تعالى المقتضيةِ لخِلَافه.

الدَّرجة الثَّانية من المحبَّة: درجة المقرَّبين؛ وهي أن يمتلئ القلب بمحبَّة الله تعالى، حتَّى تُوجبَ له محبَّةَ النَّوافل، والاجتهاد فيها، وكراهةَ المكروهات، والانكفافَ عنها، والرِّضا بالأقضية والأقدار المؤلمة للنُّفوس؛ لِصُدُورها عن المحبوب»[١].

(١) مجموع رسائل ابن رجب (٤/ ٨٤).

وفي الدُّعاء المأثور: «**أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ العَمَلِ الَّذِيْ يُبَلِّغُنِيْ حُبَّكَ**»[١]، وهذا الدُّعاء يجمع كلَّ خيرٍ؛ فإنَّ الأفعال الاختياريَّة من العباد إنَّما تنشأ عن محبَّةٍ وإرادةٍ؛ فإن كانت محبَّةُ الله ثابتةً في قلب العبد؛ نشأت عنها حركاتُ الجوارح، فكانت بحسب ما يُحِبُّه الله ويرتضيه، فَأَحَبَّ ما يُحِبُّه الله عَزَّوَجَلَّ من الأعمال والأقوال كلِّها؛ فَفَعَلَ حينئذٍ الخيراتِ كلَّها، وتَرَكَ المنكراتِ كلَّها.

ثمَّ إنَّ تجنُّب المرء لهذه المَنهيَّات: فيه صيانةٌ لدينه، ونزاهةٌ له ممَّا يدنِّسه ويُشِينُه؛ فإنَّ الدِّين تارةً يكون نقيًّا، نَزِهًا، بَرِيًّا، وتارةً يكون دَنِسًا متلوِّثًا، وتارةً يوصف بالقوَّة والصَّلابة، وتارةً بالرِّقَّة والضَّعف؛ كما يوصَف بالنَّقص تارةً وبالكمال تارةً أخرى.

ولهذا يقول أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «الإِيمَانُ نَزِهٌ: إِنْ زَنَى فَارَقَهُ الإِيمَانُ، فَإِنْ لَامَ نَفْسَهُ وَرَاجَعَ؛ رَاجَعَهُ الإِيمَانُ»[٢].

وقال يحيى بن معاذ: «الإسلام نقيٌّ فلا تُدَنِّسه بآثامك»[٣].

والدُّخول في هذه الآثام انحرافٌ عن الصِّراط المستقيم الَّذِي أمر الله تعالى بالاستقامة عليه، ونهى عن تجاوز حدوده، ومَن ارتكب شيئًا من المُحَرَّمات؛ فقد تعدَّى الحدود، وهتك السُّتور.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢١٦٢)، والتِّرمذيُّ (٣٢٣٥) واللَّفظ له.
(٢) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في «السُّنَّة» (٧٥٣)، والخلاَّل في «السُّنَّة» (١٢٥٩).
(٣) ذكره ابن الجوزيِّ عنه في «لطائف المعارف» (ص٣٢٧).

عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ؛ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِن فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»(١).

والمراد بالواعظ: حُججُ الله الَّتِي تنهاه عن الدُّخول في المُحَرَّمات؛ باستقرارها في نفسه، **وبصائرُه** الَّتِي يجعلها في قلبه وعلومُه الَّتِي أودعها إيَّاه؛ لأنَّ ذلك كلَّه ينهاه عمَّا لا يسوغ له، فحَرِيٌّ بالمسلم أن يستكثر في قلبه من علومٍ وهِدَاياتِ الكتاب والسُّنَّة ما يكون سلامةً له ونجاةً من الانحراف عن صراط الله المستقيم.

ومَن كان في الدُّنيا قد خرج عن الاستقامة على الصِّراط ففتحَ أبوابَ المحارم الَّتِي في سُتُور الصِّراط يَمنَةً ويَسرَةً، ودخل إليها سواء كانت المحارم من الشَّهوات أو من الشُّبهات؛ أخذته الكلاليبُ الَّتِي على ذلك الصِّراط المنصوب على متن جهنَّم يَمنَةً ويَسرَةً، بحسب ما فَتَحَ في الدُّنيا من أبواب المحارم ودخل إليها.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٣١)، وصحَّحه الألبانِيُّ في «صحيح الجامع» (٣٨٨٧).

قال ﷺ: «**ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ؛ وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: «**دَحْضٌ مَزِلَّةٌ، فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ؛ تَكُونُ بِنَجْدٍ، فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ**»(١).

ومَن كبَّلته الذُّنوب، وأهلكته الخطايا والمعاصي، وأعاقته عن الاستقامة على صراط الله المستقيم: عليه أن يطلب لنفسه الأسباب المُعِينَةَ له على الخَلَاصِ من الذُّنوب، والفِكاك منها.

ومن أعظم المُعِيْنَات على الخلاص من الذُّنوب: الحياء من الله؛ فإنَّ العبد إذا عَلِمَ بنظر الله إليه واطِّلَاعه عليه، وأنَّه من الله بمَسمَعٍ ومَرأى، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا تخفى عليه خافية؛ استحيا من الله أن يراه حيث نهاه.

ومن المُعِيَنات: عِمَارة القلب بمحبَّة الله جَلَّوَعَلَا الَّتي يجب أن تُعمَّر بها القلوب؛ فإنَّ هذه المحبَّة من أعظم الرَّوادع وأشدِّها دفعًا للذُّنوب؛ فإنَّ المُحِبَّ لِمَن أحبَّ مُطِيعُ.

ومن المُعِيْنات على الخَلاص من الذُّنوب: تقويةُ الخوف من الله جَلَّوَعَلَا، وتحريك هذا الخوف في القلب؛ بأن يكون على معرفةٍ بالله، وعظمتِه جلَّ في علاه، وشدَّة انتقامه، ووعيده، ودار جزائه، وما أعدَّ فيها من أنواع العقوبات،

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٣) واللَّفظ له.

والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١]؛ فليحذر العبدُ مِنْ فِعل موجِبات حلول غَضَبِ الله عليه، وأسباب نِقمَتِهِ وسَخَطِه.

ومن الأمور المُعِيْنة للعبد على الخَلاص من الذُّنوب: معرفة نِعَمِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّ نِعَمَ الله جَلَّوَعَلَا تتتالى على العبد، وتتوالى عليه، في كُلِّ وقتٍ وحين؛ فلا يليقُ بعبدٍ نِعَمُ الله عليه تتتالى أن يقابل هذه النِّعَمَ بذنوبٍ تُسخِطُ المُنعِمَ وتُزِيلُ النِّعَم.

ومن الأمور المُعِيْنَات على الخلاص من الذُّنوب: النَّظر في عواقبها الوخيمة، ومآلاتها الأليمة، وأضرارها المُتَنَوِّعات في الدُّنيا والآخرة.

ومن الأمور المُعِيْنَات على الخَلَاص من الذُّنوب: النَّظر فيما يفوتُهُ بالمعصية من خَير الدُّنيا والآخرة، ويَكفي في هذا فواتُ الإيمان الَّذِي أدنى مثقال ذَرَّةٍ منه خيرٌ من الدُّنيا وما فيها أضعافًا مضاعفةً، فكيفَ يبيعُهُ بشهوةٍ تَذْهَبُ لذَّتُها، ويبقى سُوءُ مَغَبَّتِهَا؟! تذهب الشَّهوةُ وتبقى الشِّقْوَةُ.

قال أبوهريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عقب حديث: «**لَا يَزْنِي الزَّانِيْ حِيْنَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»: «إنَّه يُنزَع منه الإِيمان، فإن تابَ تابَ الله عليه»[(١)].

وقال الحسن: «يُجَانبُه الإيمان ما دام كذلك؛ فإن راجَعَ راجعَهُ الإيمان»[(٢)].

ولهذا رأى النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -في الحديث الَّذِي رواه البخاريُّ في «صحيحه»[(٣)]-

(١) أخرجه أحمد في المسند (٩٠٠٧).
(٢) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في «السُّنَّة» (٧٥٦)، والخلاَّل في «السُّنَّة» (٧٥٦).
(٣) أخرجه البخاريُّ (١٣٨٦).

الزُّناةَ في التَّنُّور عُراةً؛ لأنَّهم تَعَرَّوا من لباس الإيمان، وعادَ تَنُّورُ الشَّهوةِ الَّذِي كان في قلوبهم تنُّورًا ظاهرًا يُحمى عليه في النَّار.

ومن المُعِين على الخَلَاص من الذُّنوب: شرفُ النَّفس، وزكاؤُها، ورِفْعَتُها، وعلوُّها؛ فلا يليق بصاحب نفسٍ شريفةٍ أن يدنِّسها، ويُحقِّرها، ويلوِّثها؛ بأوضار الذُّنوب والمعاصي ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١١].

ومن الأمور المُعِيْنَة على الخَلَاص من الذنوب: قِصَرُ الأمل، وأن يستحضر العبدُ أنَّ مدَّة المقام في هذه الحياة الدُّنيا لا تَطُول؛ فإنَّ الآخرةَ مُقبِلةٌ، والدُّنيا مُدْبِرةٌ؛ فلا أنفَعَ للعبد من قِصَرِ الأمل، ولا أضرَّ عليه من التَّسويف وطول الأمل.

ومن الأمور المُعِيْنة على الخَلَاص من الذُّنوب: تجنُّب الفضول؛ فضولِ المَطعَمِ، والمَشرَبِ، والمَأكَلِ، والمَلبَسِ، وغير ذلك؛ فإنَّ كَثرَةَ الفضول تُمرِضُ القلب، وتُعيقُ عن الوصول.

ومن الأمور المُعِيْنة على الخَلَاص من الذُّنوب: مُدَافعَةُ خواطِرِ النَّفس الباطلة؛ لأَنَّ المعصيةَ أولُ ما تبدأ تكونُ خاطرةً في النُّفوس، ثمَّ تتطوَّرُ لتصبحَ أُمنِيَةً، ثمَّ تتحول إلى هَمٍّ يتحرَّك في القلب، وبعدها تصيرُ إرادةً سيئةً، وبعدَ هذا تخْلُصُ لِأَنْ تكون عزمًا يُقارِنُهُ فِعْلٌ لها؛ فمِنَ الخَيرِ للإنسَان أن يقطعَ هذه الخواطرَ السيِّئةَ في أول نشأتها؛ فإنَّهُ إن تساهَلَ ووقَعَ في المعصية، هانَ عَلَيه فِعلُها مرَّةً تِلْوَ المرَّة، حتى تصيرَ صفةً لازمةً وهيئةً ثابتةً.

وقد ضرب الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثلًا لحالِ العَبدِ مع الذُّنوب برجُلٍ كان

يمشي بأرضٍ فيها وَحْلٌ، فجعل يَتوقَّاه، فغاصَتْ رِجْلُهُ فيه، فخاضَ -أي: صار يمشي- في الوَحْلِ بعدَ ذلك دون توقٍّ، وقال لأصحابه: هكذا العبدُ، لا يَزالُ يَتَوَقَّى الذُّنوبَ، فإذا واقَعَها خاضَها.

ومن الأمور المُعِيْنات على الخَلَاص من الذُّنوب: تجديد الإيمان في القلب؛ فإنَّ الإيمان بحاجة إلى أن يُجدَّد، وفي الحديث المأثور عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ، فَاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**»(١).

وإذا تجدَّد الإيمان في القلب؛ بعدت النَّفس عن تعلُّقها بالذُّنوب وإقبالها على المعاصي، ودعاها داعي الإيمان إلى ما يُقرِّب من الله، ويدني من رحمته سبحانه.

وهذه المذكورات إنَّما هي وسائلُ وأسبابٌ، تُعِينُ العبد على الخلاص من الذُّنوب والنَّجاة منها، وهي لا تكفي وحدَها؛ بل لابدَّ مع هذه الأسباب وبَذلِ الوسع في الإتيان بها؛ من طلب المعونة من الله والمدد، والتَّوفيق: أن يَصدُقَ في الدُّعاء، وأن يُحسِنَ في الالتجاء، وأن يُكثِرَ من الإلحاح على الله جلَّ في عُلَاه، ومن عظيم الدُّعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ، وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ**»(٢).

---

(١) أخرجه الطَّبرانِيُّ في «الكبير» (١٤٦٦٨)، والحاكم (٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ في «صحيح الجامع» (١٥٩٠).
(٢) أخرجه أحمد (١٤٨٣)، وابن ماجه (٣٨٤٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

٢١

حديث: «قل: آمنت بالله فاستقم»

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ -وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُسَامَةَ: غَيْرَكَ-، قَالَ: «قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ فَاسْتَقِمْ»، رواه مسلم(١)، وفي رواية لأحمد(٢): «قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ».

هذا الحديث العظيم يُعدُّ من جوامع كَلِمِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فقد طلب سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من النَّبِيِّ ﷺ أن يعلِّمه كلامًا جامعًا لأمر الإسلام، كافيًا حتَّى لا يحتاج بعده إلى غيره؛ فقال له النَّبِيُّ ﷺ: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ»؛ وهذا مُنتَزَعٌ من قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣-١٤]، وقال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فُصِّلت: ٣٠ - ٣٢].

(١) أخرجه مسلم (٣٨).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٥٤١٦).

والاستقامة يترتَّب عليها سعادةُ الدُّنيا والآخرةِ، وفلاحُ العبدِ وصلاحُ أمرِه كلِّه؛ فحقيقٌ بالنَّاصح لنفسِه، الرَّاغب في سعادتِها؛ أن يُعْنَى بالاستقامة على الدِّين عظيمَ العنايةِ؛ علمًا وعملًا وثباتًا على ذلك إلى الممات، مستمدًّا العونَ من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فالاستقامة مِنَّةٌ إلهية، وهِبةٌ ربَّانيةٌ؛ ففي آياتٍ كثيرةٍ من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يضيف الله عَزَّوَجَلَّ إلى نفسه الهدايةَ إلى صراطِه المستقِيم، وأنَّ الأمرَ كلَّه بيدِه عَزَّوَجَلَّ يهدي مَن يشاءُ، ويُضلُّ مَن يشاءُ، وبيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قلوب العباد؛ فمَن شاءَ أقامَه تَبَارَكَ وَتَعَالَى على الصِّراط، ومَن شاء أزاغَه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النِّساء: ٦٦-٦٨]، وقال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النِّساء: ١٧٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، وقال الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [التَّكوير: ٢٧ - ٢٩]. والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ

وقد كانَ أكثرُ دعاءِ النَّبيِّ ﷺ: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»، قالت أمُّ سَلَمة: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! أَوَ إِنَّ القُلُوبَ لَتَتَقَلَّبُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ؛ مَا مِنْ خَلْقِ اللهِ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ بَشَرٍ إِلَّا أَنَّ قَلْبَهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله، فَإِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَقَامَه، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ**»(١).

(١) أخرجه أحمد (٢٦٥٧٦) واللَّفظ له، والتِّرمذيُّ (٣٥٢٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

فالاستقامةُ بِيَد الله، فمَنْ أرادَها لنفسِه؛ فليطْلُبها منَ الله، وليُلِحَّ في السُّؤال، وقد جاء في «صحيح مسلم» من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّها سُئِلت: بأيِّ شيءٍ كانَ النَّبيُّ ﷺ يفتَتِحُ صلاتَه من اللَّيل؟ قالت: إذا قامَ من اللَّيل افتتَح صلاتَه: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيْلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»(١).

فهذا كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولُه كلَّ ليلةٍ في افتتاحِه لصلاةِ اللَّيل: «**إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**».

كان الحسَن البَصريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إذا قرأ قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فُصِّلت:٣٠] قال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبُّنَا، فَارْزُقْنَا الاِسْتِقَامَةَ»(٢).

وحقيقة الاستقامَة: لزوم المنهجِ القويمِ والصِّراطِ المستقيم.

قال صدِّيقُ الأمَّة أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فُصِّلت: ٣٠]: «هُم الَّذِين لم يُشركوا بالله شيئًا»(٣).

ورُوي عن عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قرأ هذه الآيةَ على المنبر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾، فقال: «لم يَرُوغوا رَوَغان الثَّعلب»(٤).

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠).
(٢) أخرجه الطَّبريُّ في «جامع البيان» (٢٠/ ٤٢٥).
(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزُّهد» (٣٢٦)، والطَّبريُّ في «جامع البيان» (٢٠/ ٤٢٢).
(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزُّهد» (٣٢٥)، وأحمد في «الزُّهد» (٦٠٢)، والطَّبريُّ في «جامع البيان» (٢٠/ ٤٢٥).

وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾: «على شهادة أن لا إله إلَّا الله»[١]؛ ورُوي نحوه عن أنس، ومجاهد، والأسود بن هلال وزيد بن أسلم والسُّدِّي وعِكرمة وغيرِهم[٢].

ورُوي عن ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّه قال: «استقامُوا على أداءِ فرائضِه»[٣].

وعن أبي العَالية قال: «ثمَّ أخلَصُوا له الدِّين والعَمل»[٤].

وعن قَتادة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ قال: «استقاموا على طاعة الله»[٥].

ذكر هذه الأقوال ابنُ رجَب رَحِمَهُٱللَّهُ ثمَّ قال: «والاستقامَة: هيَ سلوكُ الصِّراط المستقيم، وهو الدِّينُ القيِّم منْ غَير تَعريجٍ عنه يَمنةً ولا يَسرةً، ويشمَل ذلك؛ فعلَ الطَّاعات كلِّها، الظَّاهرة والباطنة، وتركَ المنهيَّات كلِّها كذلك، فصارت هذه الوصيَّةُ جامعةً لخِصال الدِّين كُلِّها»[٦].

وأصلُ الاستقامَةِ: استقامةُ القلبِ، روى الإمام أحمد من حديث أنس ابن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ**»[٧].

(١) أخرجه البيهقيُّ في «الأسماء والصِّفات» (٢٠٧).
(٢) انظر: «موسوعة التَّفسير بالمأثور» (١٩/ ٤٧٠-٤٧٥).
(٣) أخرجه الطَّبريُّ في «جامع البيان» (٢٠/ ٤٢٥).
(٤) ذكره ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٥٢٥).
(٥) أخرجه الطَّبريُّ في «جامع البيان» (٢٠/ ٤٢٥).
(٦) «جامع العلوم والحكم» (ص٤٥٩-٤٦٠).
(٧) أخرجه أحمد في المسند (١٣٠٤٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ في الصَّحيحة (٢٨٤١).

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأصلُ الاستقامةِ استقامةُ القلب على التَّوحيد.

كما فسَّر أبو بكر الصِّدِّيق وغيرُه قولَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ بأنَّهم لم يلتفتوا إلى غيره.

فمتَى استقامَ القلبُ على معرفةِ الله، وعلى خشيتِه، وإجلاله، ومهابتِه، ومحبَّتِه، وإرادته، ورجائه، ودعائه، والتَّوكُّلِ عليه، والإعراض عمَّا سواه؛ استقامَت الجوارحُ كلُّها على طاعتِه، فإنَّ القلبَ هو ملِكُ الأعضاء، وهي جنوده، فإذا استقامَ الملِك؛ استقامَت جنودُه ورعاياه»[1].

والاستقامةُ المطلُوبَة منَ العبدِ: هي السَّدَاد فإنْ لم يقدر فالمُقارَبة.

وقد جمعَ النَّبيُّ ﷺ هذيْن الأمرينِ في قوله: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَه، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا**»[2].

وقد قال النَّبيُّ ﷺ لعليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لمَّا طلبَ منه أنْ يعلِّمَه دعاءً يدعُو اللهَ به، قال: «**قُلِ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي**»، قال: «**وَاذْكُرْ بِالهُدَى؛ هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ**»[3].

وأخبر ﷺ أنَّ النَّاس لن يُطيقوا الاستقامةَ حقَّ الاستقامةِ، كما خرَّجه الإمام أحمد، وابن ماجه من حديثِ ثوبانَ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ**

(١) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبليِّ (٤٦١).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٣٩). (٣) أخرجه مسلم (٢٧٢٥).

إِلَّا مُؤْمِنٌ»(١)، وفي رواية للإمام أحمد: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا... وَلَا يُحَافِظ عَلَى الوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»(٢)، وفي «الصَّحيحين» عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا»(٣).

وفي هذا المعنى يقولُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمطلوبُ منَ العبد: الاستقامةُ؛ وهيَ السَّداد، فإن لم يَقدِر عليهَا؛ فالمُقارَبَة، فإن نَزل عنها؛ فالتَّفريطُ والإضَاعةُ»(٤).

هذا وثمرة الاستقامة على الصِّراط المستقيم في الدُّنيا: التَّوفيق للاستقامة على الصِّراط المنصوبِ على مَتن جهنَّم.

فإنَّه يُنصب يومَ القيامةِ صراطٌ على مَتن جهنَّم، أحَدُّ منَ السَّيف، وأدقُّ منَ الشَّعر، ويُؤمَر النَّاس بالمرور عليه، ويتفَاوَتون في مرورهم عليه تفاوتَهم في الأعمالِ والاستقامةِ على صِراط الله المستقيم في هذهِ الحياةِ الدُّنيا(٥).

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمَنْ هُدِي في هذه الدَّار إلى صراطِ الله المستقيمِ الَّذِي أرسَل به رسُوله، وأنْزَل به كِتابَه؛ هُدِيَ هُناك إلى الصِّراط المستقيم المُوصل إلى جنَّتِه، ودار ثَوابه، وعلى قَدر ثُبوتِ قَدمِ العبدِ على هذا الصِّراط الَّذي نَصبَه الله لعبادِه في هذه الدَّار يكونُ ثُبوت قدمِه على الصِّراط المَنصُوب

(١) أخرجه أحمد (٢٢٣٧٨)، وابن ماجه (٢٧٧).
(٢) أخرجه أحمد (٢٢٤٣٣).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٦٤٦٤)، ومسلم (٢٨١٨).
(٤) انظر: مدارج السَّالكين لابن القيِّم (٢/ ٣٧٠).
(٥) انظر: البخاريَّ (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢).

على مَتنِ جهنَّم، وعلى قَدر سَيْره على هذه الصِّراط يكونُ سَيْرُه على ذاك الصِّراط؛ فمِنهُم من يَمُرُّ كالبَرق، ومِنهُم مَن يَمرُّ كالطَّرف، ومِنهُم مَن يَمرُّ كشَدِّ الرِّكابِ، ومِنهُم مَن يَسعى سعيًا، ومِنهُم مَن يَمشي مشيًا، ومِنهُم مَن يحبُو حَبْوًا، ومِنهُم المَخدوشُ المُسَلَّم، ومِنهُم المُكَرْدَس في النَّار، فليَنْظر العبدُ سَيرَه على ذلكَ الصِّراط مِن سَيْره على هذا حَذْو القُذَّة بالقُذَّة، جزاءً وِفاقًا، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النَّمل: ٩٠].

ولْيَنظر الشَّهواتِ والشُّبُهات الَّتي تعوقُه عنْ سَيره على هذا الصِّراط المستقيم؛ فإنَّها الكَلاليب الَّتي بجَنْبَتَي ذاك الصِّراط تَخطَفُه، وتَعُوقه عنِ المرور عليه، إنْ كَثُرت هُنا وقَويت، فكذلكَ هيَ هناكَ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ﴾ [فُصِّلت: ٤٩]»[(١)].

مَن كانَ في هذه الحياة الدُّنيا تَخطَفُه الشُّبهات والشَّهواتُ عن الصِّراط المُستقيم؛ فستخطفه الكلاليبُ الَّتي على جَنبَتي الصِّراط يوم القيامة مثلَما خطفَته الشُّبهات والشَّهوات في الدُّنيا.

والعبد في هذا المقام يحتاج إلى نوعين من الهداية ليَسلَمَ له سيرُه؛ وهما: الهداية إلى الصِّراط المستقيم، والهداية في الصِّراط المستقيم.

قال ابن القيِّم: «فالهدايةُ إلى الطَّريق شيءٌ، والهدايةُ في نفس الطَّريق شيءٌ آخر، ألَا ترى أنَّ الرَّجل يعرف أنَّ طريق البلد الفُلاني هو طريق كذا وكذا، ولكن لا يحسن أن يسلُكَه؛ فإنَّ سُلوكَه يحتاج إلى هدايةٍ خاصَّة في نفس

(١) انظر: مدارج السَّالكين لابن القيِّم (١/ ١٤).

السُّلوك؛ كالسَّير في وقتِ كذا دونَ وقتِ كذا، وأخذِ الماء في مفازةِ كذا مقدارَ كذا، والنُّزولِ في موضع كذا دون كذا، فهذه هدايةٌ في نفس السَّير قد يُهملُها مَن هو عارفٌ بأنَّ الطَّريقَ هي هذه؛ فيهلَكُ وينقطعُ عن المقصود»[١].

(١) انظر: رسالة ابن القيِّم إلى أحد إخوانه (١/ ٧-٨).

٢٢
حديث: «أو مسلمًا»

عَن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَعْطَى رَهْطًا، وَسَعْدٌ جَالِسٌ، فَتَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا هُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ، فَوَاللهِ إِنِّي لأَرَاهُ مُؤْمِنًا؟ فَقَالَ: «**أَوْ مُسْلِمًا؟**» فَسَكَتُّ قَلِيلًا، ثمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ، فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي، فَقُلْتُ: مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ، فَوَاللهِ إِنِّي لأَرَاهُ مُؤْمِنًا؟ فَقَالَ: «**أَوْ مُسْلِمًا؟**»، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ، فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي، وَعَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا سَعْدُ! إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ**»[(١)].

«سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأى رسول الله ﷺ يعطي ناسًا ويترك مَن هو أفضل منهم في الدِّين، وظنَّ أنَّ العطاء يكون بحسب الفضائل في الدِّين، وظنَّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يعلم حال هذا الإنسان المتروك، فأعلَمَه به، وحلف أنَّه يَعلَمُه مؤمنًا؛ فقال له النَّبيُّ ﷺ: «**أَوْ مُسْلِمًا؟**»، فلم يفهم منه النَّهيَ عن الشَّفاعة فيه مرَّةً أخرى فسكت، ثمَّ رآه يعطي مَن هو دونه بكثير، فغلبه ما يَعلَمُ مِن حسن حال ذلك الإنسان، فقال: يا رسول الله! مالك عن فلان -تذكيرًا-، وجوَّز أن يكونَ النَّبيُّ

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٧)، ومسلم (١٥٠).

ﷺ هَمَّ بعطائه من المرَّة الأولى ثمَّ نَسِيَه، فأراد تذكيره، وهكذا المرَّة الثَّالثة إلى أن أَعلَمَهُ النَّبِيُّ ﷺ أنَّ العطاء ليس هو على حسب الفضائل في الدِّين...»[(١)].

قال ابن رجب: «وكذلك قول النَّبِيِّ ﷺ لسعد بن أبي وقَّاص لمَّا قال له: «**لَمْ تُعْطِ فُلَانًا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»، فقال النَّبِيُّ ﷺ «**أَوْ مُسْلِم**»، يشير إلى أنَّه لم يُحِقِّق مقام الإيمان؛ وإنَّما هو مقام الإسلام الظَّاهر، ولا ريب أنَّه متى ضَعُفَ الإيمان الباطن؛ لَزِمَ منه ضَعْفُ أعمال الجوارح الظَّاهرة أيضًا»[(٢)].

فدلَّ الحديث على أنَّ الدِّين مراتب متفاوتة، ومقامات مختلفة، وأنَّ النَّاس متفاضلون فيه؛ فمنهم المؤمن ومنهم المسلم.

وفي القرآن الكريم آيات عديدة تُقَرِّر هذا التَّفاوت بين هاتين الرُّتبتين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذَّاريات: ٣٥-٣٦]، وقال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

(١) انظر: شرح النَّوويِّ لصحيح مسلم (٦/ ٥٥٥-٥٥٦).
(٢) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبليِّ (ص٨٢).

ففي هذه الآيات دلالة واضحة على وجود فرقٍ بين الإسلام والإيمان عند الاجتماع في الذِّكْرِ؛ فقد ادَّعى هؤلاء الأعراب لأنفسهم مرتبة الإيمان ولمَّا يصلوا إليها بعدُ؛ فنفاها الله عَزَّوَجَلَّ عنهم بقوله: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾، ولم يكونوا بنفي الإيمان عنهم داخلين في الكفر؛ إذ إنَّ هناك رتبة دون الإيمان وهي الإسلام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: إنَّكم ما زلتم بَعْدُ في رتبة الإسلام.

وهذا يفيد أنَّ الدِّين مراتب: مرتبة الإسلام، ثمَّ أعلى منها مرتبة الإيمان، ثمَّ أعلى منهما مرتبة الإحسان.

وقد جاء في حديث جبريل المشهور تفسيرٌ من النَّبيِّ ﷺ لكُلِّ مرتبة من هذه المراتب؛ ففيه أنَّ جبريل سأل النَّبيَّ ﷺ عن الإسلام، والإيمان، والإحسان فاجتمعت الثَّلاثة في الذِّكر، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**الإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**»، وقال عن الإيمان: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، وقال عن الإحسان: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»، وفي آخر الحديث قال: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»(١).

فدلَّ الحديث على أنَّ الإسلام هو الأعمال الظَّاهرة، وأنَّ المسلم هو مَن شهد أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمَّدًا رسول الله، وأقام الصَّلاة، وأتى بالعمل

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الظَّاهر؛ كما قال ﷺ: «**مَن صَلَّى صَلَاتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ؛ فَلَا تُخْفِرُوا اللهَ فِي ذِمَّتِهِ**»(١).

لكنَّ هذه الأعمال الظَّاهرة لا تكون نافعةً لمَن قام بها عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلَّا إذا كان عندَه من الإيمان القلبيِّ ما يصحِّح إسلامَه؛ وهو الإيمان الجازم بهذه الأصول؛ بمعنى أن لا يكونَ عندَه شكٌّ في الإيمان بالله، ولا بالكتب، ولا بالرُّسل، ولا باليوم الآخر، ولا بالقدر؛ لأنَّه إن وُجِدَ الشَّكُّ ارتفع الجزم، وإذا ارتفع الجزم انتفى الإيمان، ووُجِدَ الكفر، وحَبِطَتِ الأعمال؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]؛ فإن لم يكن عنده هذا القَدْرُ من الإيمان القلبيِّ كان منافقًا.

وأمَّا المؤمن: فهو الَّذِي تحقَّقَ الإيمانُ في قلبه، فآمن بما أمر الله تعالى عباده بالإيمان به، ومَن كان شأنُه كذلك في باطنه؛ صَلُحَ ظاهره تبعًا لذلك؛ لأنَّ الجوارح لا تتخلَّف عن مرادات القلوب؛ فإذا صلح القلب هذا الصَّلاح، وعُمِّر بالإيمان هذه العمارة؛ جدَّت الجوارح واجتهدَت؛ عملًا وطاعةً وتقرُّبًا إلى الله سبحانه؛ كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»(٢).

وأمَّا المحسن: فأعلى من هؤلاء؛ إذ الإحسان: الإتقان والإجادة؛ فالمحسن: هو الَّذِي أتقن في تحقيق الدِّين، وأجاد في تتميم العبادة والطَّاعة لربِّ العالمين، حتَّى بلغ به الحال أن يَعبُد الله كأنَّه يراه، وهذه رتبةٌ عاليةٌ رفيعةٌ،

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٩١).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

لا يَصِلُ إليها كلُّ أحدٍ؛ كما قال تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٣-١٤].

فهذه مراتب الدِّين، وقد جاء نظيرها في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

وهذا يوضِّحُه بعضُ أهل العلم بثلاث دوائر؛ كلُّ واحدةٍ منها أَضْيَقُ من الأخرى؛ فالدَّائرة الصُّغرى: الإحسان، والأوسع منها: الإيمان، ثمَّ الأوسع منها: الإسلام؛ فيحتاج العبد أن يحقِّق الإسلام والإيمان حتَّى يصل بعد ذلك إلى درجة الإحسان، فإن خرج من الإحسان لم يخرج إلى الكفر؛ وإنَّما يخرج منه إلى مرتبة الإيمان، فإن خرج من الإيمان كان في مرتبةٍ دونَه؛ وهي مرتبة الإسلام، فإن خرج منها فما ثَمَّ شيءٌ من رُتَبِ الدِّين.

فعلى هذا: كلُّ محسنٍ مؤمنٌ مسلمٌ، وكلُّ مؤمنٍ مسلمٌ، وليس كلُّ مسلمٍ مؤمنًا، وليس كلُّ مؤمنٍ محسنًا.

روى الإمام أحمد، عن فَضَالَة بْن عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ**»(١).

وفي هذا الحديث: **بيانٌ** لكمال مسمَّيات هذه الأسماء الجليلة؛ (الإيمان،

(١) أخرجه أحمد (٢٣٩٥٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (٥٤٩).

والإسلام، والجهاد، والهجرة)، **وبيانٌ** للمستحقِّين لهذه الأسماء على الحقيقة الواجبة لهم، والَّتِي يترتَّب عليها السَّعادة التَّامَّة في الدُّنيا والآخرة، **وذكرٌ** لحدودها بكلام جامع شامل.

فالمؤمن: مَن أَمِنَه النَّاس على دمائهم وأموالهم؛ فإنَّ الإيمان إذا تمكَّن في القلب، وامتلأ القلبُ به؛ أوجبَ لصاحبه القيامَ بحقوق الإيمان الَّتِي مِن أهمِّها: رعاية الأمانات، والصِّدق في المعاملات، والورع عن ظلم النَّاس في دمائهم وأموالهم، ومَن كان كذلك عَرَفَ النَّاسُ هذا منه، وأَمِنُوه على دمائهم وأموالهم، واطمأنُّوا إليه؛ لِمَا يعلمون منه من مراعاة الأمانات؛ فإنَّ رعاية الأمانة أَخَصُّ واجبات الإيمان؛ كما قال ﷺ: «**لَا إِيْمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ**»(١).

والمسلم: من سَلِمِ المسلمون من لسانه ويده؛ وذلك أنَّ الإسلام الحقيقيَّ هو الاستسلام لله، وتكميل عبوديَّته، والقيام بحقوق المسلمين، ولا يتمُّ الإسلام حتَّى يحبَّ للمسلمين ما يحبُّ لنفسه، ولا يتحقَّق ذلك إلَّا بسلامتهم من شرِّ لسانه ويده؛ فإنَّ هذا أصلُ هذا الفرض الَّذِي عليه المسلمون، فمَن لم يَسلَمِ المسلمون من لسانه أو يده كيف يكون قائمًا بالفرض الَّذِي عليه لإخوانه المسلمين؟ ومَن بسط في المسلمين يدَه ولِسَانه أذًى وعدوانًا أين هو من تحقيق الإسلام؟ فسلامتهم من شرِّه القوليِّ والفعليِّ عنوانٌ على كمال إسلامه.

وفي هذا دِلالة على أنَّ المؤمن أعلى رتبةً من المسلم: فإنَّ مَنْ كان مأمونًا

(١) أخرجه أحمد (١٢٣٨٣)، وصحَّحه الألبانِيُّ في «صحيح الجامع» (٧١٧٩).

على الدِّماء والأموال؛ كان المسلمون سالمين من لسانه ويده، ولولا سلامتهم منه لما ائتمنوه، وليس كُلُّ مَن سَلِموا منه يكون مأمونًا عندهم؛ فقد يترك أذاهم وهم لا يأمنون إليه؛ خوفًا أن يكون قد ترك أذاهم لرغبة أو رهبة، لا لإيمان في قلبه.

ففسَّرَ المُسلِمَ بأمرٍ ظاهرٍ؛ وهو: سلامةُ النَّاس منه، **وفَسَّرَ المؤمنَ بأمرٍ باطنٍ؛ وهو:** أن يأمنوه على دمائهم وأموالهم، وهذه الصِّفة أعلى من تلك.

والمجاهد: مَن جاهد نفسه في طاعة الله؛ وذلك أنَّ النَّفسَ ميَّالةٌ إلى الكسل عن الخيرات، أمَّارةٌ بالسُّوء، سريعةُ التَّأَثُّر عند المصائب، وتحتاج إلى صبرٍ وجهادٍ في إلزامها طاعة الله، وثباتِها عليها، ومجاهدتِها عن معاصي الله، ورَدْعِهَا عنها، وجهادِها على الصَّبر عند المصائب، وهذه هي الطَّاعات؛ امتثالُ المأمور، واجتنابُ المحظور، والصَّبر على المقدور؛ فالمجاهدُ -حقيقةً- مَنْ جاهدها على هذه الأمور؛ لتقوم بواجبها ووظيفتها.

والمهاجر: مَن هجر الخطايا والذُّنوب، وهذه الهجرة فرضُ عينٍ على كلِّ مسلم، لا تسقط عن كلِّ مكلَّفٍ في كلِّ حالٍ من أحواله؛ فإنَّ الله حرَّم على عباده انتهاك المُحَرَّمات، والإقدام على المعاصي والذُّنوب، وأوجب عليهم الإقبال على طاعته، واتِّباع رسوله ﷺ، وهي هجرة تتضمَّن: «من» و«إلى»؛ فيهاجر بقلبه من محبَّة غير الله إلى محبَّته، ومن عبودية غير الله إلى عبوديَّته، ومن خوف غير الله ورجائه والتَّوكُّل عليه إلى خوف الله ورجائه والتَّوكُّل عليه، ومن دعاء غير الله وسؤاله والخضوع له والاستكانة له، إلى دعائه وسؤاله

والخضوع له والذُّل له، والاستكانة له، ومن غِشيان الذُّنوب وارتكابها إلى التَّوبة منها، والإقبال على الله وحده خوفًا وطمعًا وخشوعًا وتذلُّلًا، وقد ثبت في «صحيح البخاريِّ»، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**المُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**»[١].

والله عَزَّوَجَلَّ نهى عن الشِّرك، وعن اتِّباع الأهواء، وعن فعل المعاصي والذُّنوب؛ فالمهاجر -حقًّا- مَنْ هجر هذه الأمور، وأقبل على الله وحده مخلصًا، ولنبيِّه ﷺ متابعًا، وللذُّنوب والمعاصي مجانبًا ومباعدًا.

وبهذا يُعلَم أنَّ مَن قام بما دَلَّ عليه هذا الحديث؛ فقد قام بالدِّين كلِّه؛ «مَن سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، وأمِنَه النَّاس على دمائهم وأموالهم، وهَجَر ما نهى الله عنه، وجَاهَدَ نفسَه على طاعة الله»؛ فإنَّه لم يُبْقِ شيئًا من الخير الدِّينيِّ والدُّنيويِّ الظَّاهريِّ والباطنيِّ إلَّا فعلَه، ولا من الشَّرِّ شيئًا إلَّا تَرَكَه.

(١) أخرجه البخاريُّ (١٠).

٢٣

حديث: «يا مُقَلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك»

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**»(١).

وعن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سَمِعت رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ؛ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**»(٢).

هذه دعوةٌ عظيمةٌ كان النَّبِيُّ ﷺ يكثر منها، تتعلَّق بحفظ الإيمان وسلامته من التَّغيُّر، وقد بيَّن النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الموجب لاهتمامه بهذا الدُّعاء والعناية به؛ وهو قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ؛ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**».

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢١٤٠)، وصحَّحه الألبانيُّ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٤).

قال الشَّوكانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «سأل رسول الله ﷺ ربَّه سبحانه -بعد بيانه أنَّ قلوب العباد بين يدي الله سبحانه بمنزلة قلبٍ واحدٍ يصرِّفه كيف يشاء- أن يصرِفَ قلبه إلى طاعته؛ لأنَّ مَن جعل اللهُ سبحانه قلبَه مصروفًا إلى طاعته؛ لم يكن له اهتمامٌ بغير طاعةِ اللهِ والعملِ بما يقرِّب منه تعالى؛ إذ لا رغبةَ لقلبه إلى غير طاعته، ولا التفاتَ إلى شيءٍ من المعصية، ومثلُ هذا ما وردَ من دعائه ﷺ: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوْبِ ثَبِّتْ قَلْبِيْ عَلَى دِيْنِكَ**».

والحاصل: أنَّ تثبيت قلب العبد على الدِّين وانصرافه إلى الحقِّ؛ من أعظم أسباب النَّجاة، والفلاح، والعصمة عن كثيرٍ من الذُّنوب الَّتِي يقارفها كثير من العباد»[1].

وهذا فيه: أنَّ قلوب العباد بيد الله سبحانه؛ هو الَّذِي يتصرَّف فيها، ويقلِّبها كيف يشاء؛ يهدي مَن يشاء، ويُضلُّ مَن يشاء، يثبِّت على الحقِّ مَن يشاء، ويزيغ مَن يشاء، يمنُّ على مَن يشاء بالهداية، ويوجب على مَن يشاء الخذلان؛ فالأمر أمرُه، والخلق خلقُه، وجميعهم طَوعُ تدبيره سبحانه؛ ولهذا وجب على العبد أن يُكثر من دعاء ربِّه سبحانه أن يثبِّت قلبه وألَّا يزيغه، وأن يصرف قلبه على طاعته كما كان رسول الله ﷺ يُكثر من ذلك.

وإذا كان النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -وهو سيِّد ولد آدم- مفتقرًا إلى أن يلجأ إلى الله ليثبِّت قلبه ويكثر من هذا الدُّعاء؛ فكيف بمَن دونه؟!! وكلُّ العباد دونَه؛ فما أحوج كلَّ مسلمٍ إلى أن يكثر من هذا الدُّعاء، وأن يلحَّ على الله دائمًا أن

---

(١) انظر: تحفة الذَّاكرين (٤٤٧).

يثبِّت قلبه على الحقِّ والهدى، وأن يجنِّبه الزَّيغ والرَّدى.

قال البغويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيه بيان أنَّ العبد ليس إليه شيءٌ من أمر سعادته أو شقاوته؛ بل إنِ اهتدى فبهداية الله إيَّاه، وإن ثبت على الإيمان فبتثبيته، وإن ضلَّ فبصرفه عن الهدى، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال الله تعالى إخبارًا عن حمد أهل الجنَّة: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]»[(١)].

فتبيَّن بهذا: أنَّ الله تعالى هو الَّذي يتولَّى قلوبَ عباده فيتصرَّف فيها بما شاء، لا يمتنع عليه شيءٌ منها، ولا تَفُوتُه إرادة، ولا يكِلها إلى أحدٍ من خلقه؛ فما أحوَجَ المسلم إلى تثبيت الله له على دينه القويم؛ الَّذي هو سبب النَّجاة والفلاح والوقاية من الذُّنوب وغوائلها، والله تعالى يقول: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

والعبد مع هذا محتاجٌ إلى بذل المساعي النَّافعة، وسلوك المسالك الصَّالحة؛ لينال رضى الله، وهدايته، وتوفيقه، وتثبيته، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمَّد: ١٧].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ العبد إذا عَلِمَ أنَّ الله هو مُقَلِّب القلوب، وأنَّه يحول بين المرءِ وقلبه، وأنَّه تعالى كلَّ يوم هو في شأْن، يفعل ما يشاءُ ويحكم

(١) انظر: شرح السُّنَّة (١/ ١٦٧).

ما يريد، وأنَّه يهدي مَن يشاءُ ويُضِلُّ مَن يشاءُ، ويرفع مَن يشاءُ ويخفض مَن يشاءُ؛ فما يؤمِّنه أن يقلِّب الله قلبَه، ويحول بينه وبينه، ويزيغه بعد إقامته؟ وقد أثنى الله على عباده المؤمنين بقولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، فلولا خوف الإزاغة لَمَا سألوه أن لا يزيغ قلوبهم، وكان من دعاء النَّبيِّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**»(١)، و«**مُثَبِّتَ الْقُلُوْبِ، ثَبِّتْ قُلُوْبَنَا عَلَى دِيْنِكَ**»(٢)، وفي التِّرمذيِّ أنَّه ﷺ كان يدعو: «**أَعُوْذُ بِعِزَّتِكَ أَنْ تُضِلَّنِيْ، أَنْتَ الحَيُّ الَّذِيْ لا يَمُوْتُ**»(٣).

ومن فوائد هذا الدُّعاء العظيمة: معرفة أهمِّيَّةِ القلب وخطرِه؛ فإنَّ القلب هو الَّذِي جعله الخلَّاقُ العليمُ قائمًا بأمر البدن كقيام الملك بالرَّعيَّة، وهو أوَّل عضوٍ يتحرَّك في البدن، وآخر عضوٍ يسكن منه، وهو مبدأ جميع الخُلُق، وما يلحقه من صلاحٍ أو فسادٍ يسري إلى غيره من الأعضاء؛ كما قال ﷺ: «**وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ**»(٤).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأشرف ما في الإنسان قلبه؛ فهو العالم بالله، العاملُ له، السَّاعي إليه، المحبُّ له، فهو محلُّ الإيمان والعرفان، وهو المخاطَب المبعوث إليه الرُّسُل، المخصوص بأشرف العطايا، وهو الإيمان والعقل.

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٨٣٩)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٢٠٩١).
(٢) أخرجه أحمد في مسنده من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، برقم (٩٤٢٠).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٣٧٣٨)، ومسلم (٢٧١٧) واللَّفظ له.
(٤) أخرجه البخاريُّ (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

وإنَّما الجوارح أتباعٌ للقلب، يستخدمها استخدام الملوك للعبيد، والرَّاعي للرَّعيَّة، والَّذي يسري إلى الجوارح من الطَّاعات والمعاصي إنَّما هي آثاره؛ فإنْ أظلم أظلمت الجوارح، وإنِ استنار استنارت، ومع هذا فهو بين إصبعين من أصابع الرَّحمن عَزَّوَجَلَّ.

فسبحان مقلب القلوب وموْدِعِها ما يشاء من أسرار الغيوب، الَّذي يحول بين المرء وقلبه، ويعلم ما ينطوي عليه من طاعته وذنبه، مصرِّف القلوب كيف أراد، وحيث أراد؛ أوحى إلى قلوب الأولياء أن أقبلي إليَّ؛ فبادرت، وباتت، وقامت بين يدي ربِّ العالمين، وكره عَزَّوَجَلَّ انبعاث آخرين فثبَّطهم، وقيل: اقعدوا مع القاعدين.

كانت أكثر يمين رسول الله ﷺ: «**لَا وَمُقَلِّبُ الْقُلُوْبِ**»(١)، وكان من دعائه: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلُوْبَنَا عَلَى دِيْنِكَ**»(٢)، قال بعض السَّلف: «لَلْقلب أشدُّ تقلُّبًا من القِدرِ إذا استجمعت غليانًا»(٣)، وقال آخر: «القلب أشدُّ تقلُّبًا من الرِّيشة بأرضٍ فَلَاةٍ، في يومِ ريحٍ عاصفٍ(٤)»(٥).

ومن فوائد هذا الدُّعاء: شدَّة فقر القلوب إلى الله في جلب الصَّلاح، والهداية إليها، وفي سلامتها من الزَّيغ والضَّلال، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهنا يتحقَّق الفقر والفاقة والضَّرورة التَّامَّة إلى مالك الإرادات، وربِّ القلوب ومصرِّفها كيف شاءَ؛ فما شاءَ أن يزيغه منها أزاغه، وما شاءَ أن يقيمَه منها أقامَه: ﴿رَبَّنَا لَا

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٢٤٣).
(٢) أخرجه أحمد (١٧٦٣٠).
(٣) أخرجه البخاريُّ (٦٢٤٣).
(٤) أخرجه البخاريُّ (٦٢٤٣).
(٥) انظر: التِّبيان في أيمان القرآن (٦٢٣-٦٢٥).

تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

فهذا هو الفقر الصَّحيح المطابق للعقل والفطرة والشَّرع، ومَن خرَجَ عنه وانحرف إلى أحدِ الطَّرفين؛ زاغَ قلبُه عن الهدى، وعطَّل مُلك الملِك الحقِّ وانفراده بالتَّصريف والرُّبوبيَّة عن أَوامره وشرعه وثوابه وعقابه.

وحُكمُ هذا الفقير المضطرِّ إِلى خالقه في كلِّ طرفة عين وكلِّ نَفَس: أَنَّه إِن حُرِّك بطاعة أَو نعمة؛ شكَرها، وقال: هذا من فضل الله ومنِّه وجوده فله الحمد، وإِن حُرِّك بمبادىء معصيته؛ صرخ ولجأَ واستغاث وقال: «**أَعُوْذُ بِكَ مِنْكَ**»[(١)]، «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوْبِ ثَبِّتْ قَلْبِيْ عَلَى دِيْنِكَ**»[(٢)]، «**يَا مُصَرِّفَ القُلُوْبِ صَرِّفْ قَلْبِيْ عَلَى طَاعَتِكَ**»[(٣)].

فإِن تمَّ تحريكه بالمعصية التجأَ التجاءَ أَسيرٍ قد أسره عدوُّه، وهو يعلم أَنَّه لا خلاص له مِن أسره إِلَّا بأَن يفكَّه سيِّدُه من الأَسر، ففكاكه في يد سيِّده، ليس في يده منه شيء البتة، ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فهو في أَسْر العدوِّ ناظرٌ إِلى سيِّده، وهو قادر على تخليصه، قد اشتدَّت ضرورته إِليه، وصار اعتماده كلُّه عليه... فهو سبحانه الَّذِي ينجي من قضائه بقضائه، وهو الَّذِي يعيذ من نفسه بنفسه، وهو الَّذِي يدفع ما منه بما منه، فالأَمر كلُّه له، والحكم كلُّه له، والخلق كلُّه له، وما شاءَ كان وما لم يشأْ لم يكن، وما شاءَ لم يستطع أَن يصرِفه إِلَّا مشيئته، وما لم يشأْ لم يمكن

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦).
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٨٣٩)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٢٠٩١).
(٣) أخرجه أحمد في مسنده من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، برقم (٩٤٢٠).

أَن يجلبه إِلَّا مشيئته؛ فلا يأتي بالحسنات إلَّا هو، ولا يذهب بالسَّيِّئات إلَّا هو، ولا يهدى لأَحسن الأَعمال والأَخلاق إلَّا هو، ولا يصرف سيِّئها إلَّا هو»[(١)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ففي هذا المشهد يشهد توفيقَ الله وخِذلانَه؛ كما يشهد ربوبيَّتَه وخلقَه، فيسأَلُه توفيقَه مسأَلةَ المضطرِّ، ويعوذ به من خِذلانِهِ عياذَ الملهوف، ويُلقِي نفسَه بين يديه طريحًا ببابه، مستسلمًا له، ناكس الرَّأس بين يديه، خاضعًا ذليلًا مستكينًا، لا يَملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

والتَّوفيق: إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يَصلُح به العبد؛ بأن يجعلَه قادرًا على فعل ما يرضيه، مريدًا له، محبًّا له، مؤْثرًا له على غيره، ويبغِّض إليه ما يُسخطُه، ويكرهه، وهذا مجرَّد فعلِه، والعبد محلٌّ له، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الحجرات: ٧-٨]، فهو سبحانه عليمٌ بمَن يَصلُح لهذا الفضل ومَن لا يَصلُح له، حكيمٌ يضعُه في مواضعه، وعند أهله، لا يمنعه أهلَه، ولا يَضَعُه عند غير أهله»[(٢)].

ولمَّا سُئِل شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عمَّن أصابه سهمٌ من سهام إبليس المسمومة كيف يصنع؟ قال: «**مَن أصابه جرحٌ مسمومٌ فعليه بما يُخرِجُ السُّمَّ، ويُبرِئُ الجُرحَ؛ بالتِّرياق والمرهم وذلك بأمور:**

منها: أن يداوم على الصَّلوات الخمس، والدُّعاء والتَّضرُّع وقت السَّحَر،

(١) انظر: طريق الهجرتين (١/ ٥٦-٥٨). (٢) انظر: مدارج السَّالكين (٢/ ٢٧).

وتكون صلاته بحضور قلبٍ وخشوعٍ، وليُكثر من الدُّعاء بقوله: «**يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك، يا مُصَرِّف القلوب صرِّف قلبي إلى طاعتك وطاعة رسولك**»؛ فإنَّه متى أدمَن الدُّعاء والتَّضرُّع لله؛ صُرِفَ قلبُه عن ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤][1].

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٢/ ٥).

٢٤

حديث: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا»

عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا**»[(١)].

جمع هذا الحديث ثلاثةَ أصولٍ عظيمةٍ، وأسُسٍ متينةٍ، عليها مدار دين الله، وعليها مُرتكَزُ السَّعادة في الدُّنيا والآخرة، وهي واجبةٌ على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ عِلمًا وعملًا؛ الرِّضا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمَّدٍ ﷺ رسولًا، وأنَّ العبد لا ينال طعم الإيمان، ولا يظفر بلذَّته وحلاوته؛ إلَّا بتحقيقها.

والرِّضا بهذه الأصول الثَّلاثة موجبٌ لدخول الجنَّة؛ ففي «صحيح مسلم»[(٢)] عن أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال له: «**يَا أَبَا سَعِيدٍ؛ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا؛ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ**»، فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيْدٍ، فقالَ :أَعِدْهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ، فَفَعَلَ.

أي: أنَّ هذه الكلمات وقعت في قلبه موقعًا عظيمًا، فسأل النَّبيَّ ﷺ أن يعيدها عليه.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٨٤).

وعندما يُدرَجُ المَيِّت في قبره يُسأل عن هذه الأصول؛ ففي «المسند» وغيره عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال -وذكر الحديث، وفيه-: «**فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ** -أي: المؤمن- **فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ**»، وفيه: أنَّهما يسألان الكافر عن هذه الثَّلاث فيقول: «**هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي**»[1].

ولهذا كان متأكِّدًا على كلِّ مسلمٍ أن تَعظُم عنايتُه بهذه الأصول الثَّلاثة؛ تجديدًا للإيمان مع تجدُّد اللَّيالي والأيَّام؛ ففي «سنن أبي داود» وغيره عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خادم رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَقُولُ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُرْضِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[2].

وأن يقولها كذلك -تجديدًا لإيمانه ورضاه- عند سماع النِّداء للصَّلاة بكلمات الأذان العظيمة، القائمة على التَّوحيد، والإخلاص، والتَّعظيم، والإيمان؛ فيُشرَع للمسلم حين سماع الأذان أن يجدِّد هذا الرِّضا بهذه الأصول العظيمة؛ ففي «صحيح مسلم»[3] عن سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ**

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤)، وأبو داود (٤٧٥٣)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٥٦٧) واللَّفظ له، وأبو داود (٥٠٧٢) بنحوه.

(٣) أخرجه مسلم (٣٨٦).

رَسُولًا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا؛ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ»، ومَوطِنُ قَولِها بعد الشَّهادتين؛ بعد أن يقول المُؤَذِّن: أشهد أن لا إله إلَّا الله، أشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله.

وبهذه الأحاديث العظيمة: ندرك عِظَم شأن هذه الأصول، وأنَّ الواجب علينا -مَعَاشِرَ أُمَّة الإسلام- أن تَعظُم عنايتُنا بها عنايةً مستمرَّةً مع مَرِّ اللَّيالي وكَرِّ الأَيَّام؛ تجديدًا للإيمان بها، ومحافظةً عليها، ورعايةً لها، وتمتينًا لها في قلوبنا.

وهذا الاستذكار المُتَكَرِّر لهذِهِ الأُصول غايةٌ في الأهمِّيَّة؛ لأنَّ به تجديد للإيمان؛ فلا يزالُ المُؤمن يجدِّد رضاه وقبوله لهذه الأصول العظيمة في صباحِهِ ومسائِهِ، وعند سماعِهِ للأذان، فلا يأتيهِ الموت إلَّا وهو مُستعدٌّ للسُّؤال، وعليه ألَّا يقولها قولًا مُجرَّدًا؛ بل يقولها من قلبه، يجدِّد بها إيمانَه، ورضاه، وتسليمه، وانقياده.

والمسؤوليَّة عظيمةٌ على الآباء والمُرَبِّين والمُعَلِّمين؛ أن يُعنوا بالأبناء تنشئةً لهم على هذه الأصول العظيمة؛ لتكون لهم أصلًا متينًا، وأساسًا عظيما؛ فإنَّ مثل هذه الأصول في دين الله عَزَّوَجَلَّ كالأصول الَّتِي للأشجار، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥].

قوله «**ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ**»: فيه إخبارٌ أنَّ للإيمان طعمًا، وأنَّ القلبَ يذوقُه كما يذوق الفمُ طعمَ الطَّعام الشَّهيِّ والشَّراب الهَنِيِّ.

قوله: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا**» أي: عُمِرَ قلبه بالرِّضا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خالقًا، رازقًا، مُدَبِّرًا، متصرِّفًا في هذا الكون، معبودًا بحقٍّ، لا معبودَ بحقٍّ سواه، يُفرِدهُ بذلِّهِ وخضوعهِ، ورجائهِ وطمعه، ودعائه، إلى غير ذلك من العبادات، فهو رضي بالله ربًّا، ولا يبغي غيرَه، ولا يلتفتُ إلى غيره، بل إيَّاهُ يقصِد، وإليهِ يتوجَّه، وعليهِ يتوكَّل، وإيَّاه يدعو ويسأل، وله يصرف عباداته كلِّها، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣].

والرِّضا بالإسلامِ دينًا؛ لأنَّه دينُ الله الَّذِي رضيَه لعبادهِ، ولا يرضى لهم دينًا سواه، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والرِّضا بالإسلام: يعني انشراح الصَّدر للإسلام، والقَبول لأحكامه، وإقبال النَّفس على شرائع الدِّين، مُنشرِحًا صدرُه لذلك، فاطمأنَّت نفسُه وارتاحت، وأقبلتْ على هذا الدِّين انقيادًا، وامتثالًا، وطواعيةً.

ورضيَ بمحمَّدٍ ﷺ **رسولًا**؛ لأنَّه واسطةٌ بين العباد وبين اللهِ في بلاغِ دينه، وبيان شرعِه؛ فرضيَ بِهِ رسولًا، **وهذا الرِّضا بِهِ** عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ **رسولًا يتضمَّن**: تصديقَ أخبارِه، وامتثالَ أوامره، والانتهاءَ عن نواهيه ﷺ.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فالرِّضا بإلَهيَّته**: يتضمَّن الرِّضا بمحبَّته وحدَه، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، والتَّبتُّل إليه، وانجذاب قوى الإرادة والحبِّ

كلِّها إليه؛ فِعلَ الرَّاضي بمحبوبه كلَّ الرِّضا؛ وذلك يتضمَّن عبادتَه، والإخلاصَ له.

والرِّضا بربوبيَّته: يتضمَّن الرِّضا بتدبيره لعبده، ويتضمَّن إفرادَه بالتَّوكُّل عليه، والاستعانة به، والثِّقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضيًا بكلِّ ما يُفعَل به.

فالأوَّل: يتضمَّن رضاه بما يأمرَه به.

والثَّاني: يتضمَّن رضاه بما يُقدِّر عليه.

وأمَّا الرِّضا بنبيِّه رسولًا: فيتضمَّن كمال الانقياد له، والتَّسليم المطلق إليه؛ بحيث يكون أولى به من نفسه؛ فلا يتلقَّى الهدى إلَّا من مواقع كلماته، ولا يُحاكِم إلَّا إليه، ولا يُحكِّم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره ألبتة، لا في شيءٍ من أسماء الرَّبِّ وصفاته وأفعاله، ولا في شيءٍ من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيءٍ من أحكام ظاهره وباطنه، لا يرضى في ذلك بحكم غيره، ولا يرضى إلَّا بحكمه؛ فإن عجز عنه؛ كان تحكيمُه غيرَه من باب غذاء المضطرِّ إذا لم يجد ما يُقيتُه إلَّا من المَيْتةِ والدَّمِ، وأحسنُ أحوالِهِ: أن يكون من باب التُّراب الَّذِي إنَّما يتيمَّم به عند العجز عن استعمال الماء الطُّهور.

وأمَّا الرِّضا بدينه: فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى؛ رضي كلَّ الرِّضا، ولم يَبقَ في قلبه حرجٌ من حكمه، وسلَّم له تسليمًا، ولو كان مخالفًا لمراد نفسه، أو هواها، أو قولِ مقلِّدِهِ، وشيخه، وطائفته»[١].

(١) انظر: مدارج السَّالكين (٢/ ٤٧٨-٤٧٩).

وقد قال الله تعالى في شأن عباده المؤمنين: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وهذا الرِّضا الَّذِي قام في قلوب هؤلاء المؤمنين عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو ثمرة صحَّة إيمانهم بالله؛ لأنَّ الرِّضا الَّذِي هو فِعلُ العبد ومطلوب منه؛ هو رضًا بالله، ورضًا عن الله. قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا**».

والرِّضا بالله: يتعلَّق بأسمائه وصفاته؛ بأن يؤمن بالله، وبأسمائه، وصفاته، وبعظمته، وبجلاله، وبكماله، وبوحدانيَّته، وبأنَّه المستحقُّ للعبادة، وأن يُفرَد بالطَّاعة؛ فإذا وُجِدَ هذا الإيمان على وجهٍ صحيحٍ؛ ذاقَ العبدُ بذلك طعمَ الإيمان.

والرِّضا بالله متعلَّقُه: الأسماء والصِّفات؛ ولهذا: كلَّما قويَ الإنسانُ معرفةً بالله، ومعرفةً بأسمائه وصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ نال من كمال هذا الرِّضا أعظمَ حظٍّ، وأعظمَ نصيبٍ؛ بحسب حظِّه من المعرفة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والرِّضا عن الله فرعٌ عن ذلك؛ أي: فرعٌ عن الرِّضا بالله؛ فالرِّضا بالله هو الأصل، والرِّضا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فرضٌ واجبٌ على كلِّ مسلم.

ويتفرَّع عن الرِّضا بالله: الرِّضا عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، **ومتعلَّق الرِّضا عن الله تعالى**: الثَّواب، والجزاء، وما يُكرِم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عبدَه من خيراتٍ وأجورٍ؛ فهؤلاء الَّذِين قال الله عنهم: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، أكرمهم الله تعالى بالأصل الكبير؛ الرِّضا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ إيمانًا، وتوحيدًا، وإخلاصًا، وإقبالًا على الله، وصدقًا مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حتَّى أثمر ذلك رضاهم عن الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا قال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾، وهذا الرِّضا عن أهل الإيمان قد أَكرَمَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صحابةَ نبيِّه منه بأوفر نصيبٍ بما وفَّقهم إليه من إيمانٍ، وصحبةٍ، ونُصرةٍ، ودعوةٍ للدِّين، ونشرٍ للحديث وحفظٍ له، وإبلاغٍ وبيانٍ، وهذا الخيريَّة العظيمة الَّتِي أكرمهم الله بها، والجهاد في سبيله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيسَّرهم الله تعالى نصرةً لدينه؛ ففازوا بذلك برضوان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأصبحت كلمةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ قرينةً لِاسمِ الصَّحابة على مَرِّ الأيَّام، فإذا ذُكِرَ اسمُ الصَّحابيِّ ذُكِرَت كلمةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ إذا قيل أبوبكر؛ قيل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وإذا قيل عمر؛ قيل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهكذا جميع أصحاب النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ دعوة مُتكَرِّرة لهم على امتداد التَّاريخ؛ من كلِّ مَن جاء بعدَهم وتَبِعَهم بإحسان.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التَّوبة: ٧١-٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التَّوبة: ١٠٠].

٢٥

حديث: «إنَّ الإيمان ليَخلَقِ في جوف أحدكم كما يَخلَق الثَّوب»

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ، فَاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**»(١).

لقد وصَفَ النَّبِيُّ ﷺ الإيمانَ بأنَّه يَخْلَقُ كما يَخْلَقُ الثَّوب؛ أي: يَبْلى ويَضْعُفُ، ويَدْخُلُهُ النَّقْصُ من جرَّاء ما قد يقع فيه المرءُ من معاصٍ وآثام، وما يلقاهُ في هذه الحياة من مُلهياتٍ وصوارفَ مُتنَوِّعةٍ تصرفه عن الإيمان، وفتنٍ عظامٍ تُذهِبُ جِدَةَ الإيمان وحيويَّتَه وقوَّتَه، وتُضعِفُ جمالَه وحُسنه وبَهاءَه؛ وهاهنا أرشد النَّبِيُّ ﷺ إلى ضرورة تجديد الإيمان في القلب؛ بالتَّوجُّه الصَّادق إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ فقال: «**فَاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**».

فالمقام يتطلَّبُ توجُّهًا صادقًا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وسؤالًا مُلِحًّا أن يزيد الإيمانَ ويُقَوِّيه، وأن يُجدِّدَه في القلب، وأن يمكِّنَهُ فيه، والله جَلَّ جَلَالُهُ يقول: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥).

ولا بُدَّ من جهاد النَّفس ومحاسبتها، وإلزامها بالحقِّ وأَطْرِها عليه أطرًا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ولا بدَّ أيضًا من الحذرِ الشَّديد من الفتن الَّتي تُضْعِفُ الإيمان؛ بل كثيرٌ منها تأتي على الدِّين من أساسِهِ، وتَنقضُهُ مِن أصلِهِ.

والإيمانُ أثمنُ شيءٍ في الوجود، وأغلى كنزٍ في هذه الدُّنيا، وَمَنِ افتقده افتقد الحياة الحقيقيَّة؛ فإنَّه لا حياة -حقيقةً- للإنسان بلا إيمان؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ولقد كان السَّلف رَحِمَهُمُٱللَّهُ -مِن الصَّحابة ومَنْ بعدهم- يعنون بإيمانهم عناية كبيرة، ويهتمُّون به اهتمامًا بالغًا، والآثارُ المنقولةُ عنهم في تفقُّد الإيمان والعمل على تقويته وتجديده كثيرةٌ.

فهذا الخليفة الرَّاشد عمر بن الخطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، يقول لأصحابه: «هَلُمُّوا نَزْدَادُ إيمانًا»[(١)]؛ أي: نجلسُ ونذكرُ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ونذكرُ الجنَّة، ونذكرُ النَّار، ونذكرُ وعيدَ الله ووَعْدَه، ونذكرُ رجاءَهُ وخوفه؛ فنَذكُرَ ذلك كلَّهُ حتَّى يزيدَ إيمانُنا ويَقْوَى.

وكان عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ يقول: «اجلسوا بنا نزدد إيمانًا»، وكان يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ زدني إيمانًا وفِقهًا»[(٢)].

(١) أخرجه الخلاَّل في «السُّنَّة» (١٥٨٤).
(٢) أخرجهما البيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٤٥) و(٤٦).

وكان معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «اجلسُوا بنا نؤمن ساعة»[(١)].

وكان عبدالله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يأخذ بيد النَّفَر من أصحابه فيقول: «تعالَوا نؤمن ساعة، تعالوا فلنذكر الله فنزدد إيمانًا بطاعته؛ لعلَّه يُذَكِّرنا بمغفرته»[(٢)].

ويقول أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مِن فِقْهِ العبدِ أن يعلم أَمُزدادٌ هو أم مُنتَقِص، ومن فِقْهِ العبد أن يعلم نزغاتِ الشَّيطان أنَّى تأتيه»[(٣)].

يريد: أنَّ من فقه العبد أن ينظرَ في أمر إيمانه أفي زيادة هو أم في نقصان؟

فكثيرٌ من النَّاس يَنقُصُ إيمانُه ولا ينتبه؛ وهذا من ضعف الفقه والبصيرة.

وكان عُمير بن حبيب الخَطْميُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «الإيمان يزيد وينقص» فقيل: وما زيادته ونقصانه؟ قال: «إذا ذكرنا الله عَزَّوَجَلَّ وحمِدناه وسَبَّحناه فذلك زيادته، وإذا غَفَلنا وضيَّعنا ونَسِينا فذلك نقصانهُ»[(٤)].

وكان علقمة بن قيس النَّخَعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وهو أحد كبار التَّابعين وأجلَّائهم يقول لأصحابه: «امشوا بنا نَزدد إيمانًا»[(٥)].

وسئل عبد الرَّحمن بن عمرو الأوزاعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عن الإيمان: أيزيدُ؟ قال:

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في «السُّنَّة» (٨٢٣)، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٤٤).
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المُصَنَّف» (٣٢٤٤٦).
(٣) أخرجه الخلاَّل في «السُّنَّة» (١٥٨٥).
(٤) أخرجه ابن سعد في «الطَّبقات» (٤/ ٣٨١)، وابن أبي شيبة في «المُصَنَّف» (٣٢٣٣٩).
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في «المُصَنَّف» (٣٢٣٧٦).

«نعم، حتَّى يكون كالجبال»، قيل: أفينقُصُ؟ قال: «نعم، حتَّى لا يبقى منه شيء»[(١)].

وسئل الإمامُ أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الإيمان: يزيد وينقص؟ قال: «يزيد حتَّى يبلغَ أعلى السَّماوات السَّبع، وينقصُ حتَّى يصيرَ إلى أسفل السَّافِلين السَّبع»[(٢)].

والآثار والنُّقول عن الصَّحابة والتَّابعين والأئمَّة في هذا المعنى كثيرة، ومَنْ نظر في سِيَرِ هؤلاء الصَّحابة والتَّابعين والأئمَّة الأجِلَّاء؛ أدرَكَ كيف كانوا يتفقَّدون إيمانَهم، ويسعَون في زيادته وتقويته، ويبتعدون عمَّا يُضعفُه ويُنقِصُه، وهكذا الشَّأنُ في كلِّ مَن اتبعَهُم بإحسان.

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن بن سعديٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فالعبد المؤمنُ الموفَّق لا يزال يسعى في أمرين:**

أحدهما: تحقيق الإيمان وفروعه، والتحقُّق به علمًا وعملًا حالًا.

والثَّاني: السَّعيُ في دفع ما يُنافيها ويَنقُضُها أو يُنقصها من الفتن الظَّاهرة والباطنة، ويداوي ما قصَّر فيه من الأوَّل، وما تجرَّأ عليه من الثَّاني؛ بالتَّوبة النَّصوح وتدارُكِ الأمر قبل فواته»[(٣)].

وفي هذا تنبيهٌ على أهمِّيَّة مراعاة الجانِبَين؛ فيُعنى العبدُ بجانب تجديد

---

(١) أخرجه اللالَكائيُّ في «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة» (١٧٤٠).

(٢) انظر: «طبقات الحنابلة» (٢/ ٢٠٩-٢١٠).

(٣) انظر: التَّوضيح والبيان للسِّعديِّ (ص٨٣).

الإيمان وقوَّتِهِ وزيادته، والسَّعي في تكميله؛ بفعل الطَّاعات، وامتثال أمر الله جَلَّجَلَالُهُ، ويسعى في دفع الأمور الَّتي تُضعِفُ الإيمان وتُنقِصُهُ.

وفي تشبيه النَّبيِّ ﷺ الإيمانَ بأنَّه يَخلَقُ كما يَخلَقُ الثَّوب: تنبيهٌ إلى أهمِّيَّة رعاية الإيمان، وصيانتِهِ كرعاية الثَّوب بل أشدُّ؛ فإذا كان الثَّوب الَّذي يحرص كلٌّ على جِدَّته ونظافته يَخلَق ويصيبُه ما يصيبُه من الأوساخ؛ فيحتاج إلى غسلٍ وتعاهُدٍ وعناية؛ فإنَّ مقام الإيمان أعظمُ، وشأن الدِّين أكبر، وأمرُه أجلُّ، ومَن كان يُعنى بثوبه فلا حرج عليه؛ لكنَّ إيمانه أولى بالعناية، وأجدَرُ بالاهتمام.

وفي قوله: «**لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ**»: تنبيهٌ إلى أنَّ القلب هو الرَّكيزة والأساس الَّذي يُبنى عليه العمل الظَّاهر، وإيمانُ المرء في جوفه يخلَق، فقد يكون في بعض الأزمنة قويًّا، ثمَّ يصيبُه ما يصيبُه؛ فيَخلَق ويَضعُف، ولا سيَّما إذا توالَت عليه الصَّوارفُ والفِتَنُ والصَّوادُّ والمُلهيات.

فلا بدَّ من تفقُّد الإيمان، والعمل على تقويته في القلب، ولا بدَّ من فزعٍ إلى الله، ولجوءٍ صادقٍ إليه؛ لأنَّ الإيمان بيد الله، وهبةٌ منه سبحانه، يتفضَّل به على مَن يشاء، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النُّور: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النِّساء: ٨٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧-٨]، وقد صحَّ في الدُّعاء المأثور عن نبيِّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ**»[1]، ولهذا قال

(١) أخرجه أحمد (١٨٣٢٥)، والنَّسائيُّ (١٣٠٥) واللَّفظ له، وصحَّحه الألبانِيُّ.

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «فَاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ».

ثمَّ مع الدُّعاء يجاهد نفسه، فيجاهد نفسَه على تكميل ما يكون به حفظُ إيمانه، وثباتُ دينه؛ كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»[(١)].

وهذه التَّجديد للإيمان يكون وظيفةً يوميَّةً، يصاحب المسلمَ في كلِّ يومٍ من أيَّامه؛ فيعملُ على التَّجديد لإيمانه؛ من خلال وسائلَ ومجالاتٍ كثيرةٍ هيَّأها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له، جاء تِبيانها في كتاب الله، وسنَّةِ نبيِّه صلوات الله وسلامه عليه.

ومن أهمِّ ما يكون في هذا الباب: أن يكون -يوميًّا- مرتبطًا بالعلم الشَّرعيِّ؛ لأنَّ العلم الشَّرعيَّ يُعَدُّ صِمام أمانٍ لحفظ الإيمان وتقويته؛ ولهذا قال نبيُّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[(٢)]، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**»[(٣)]، والعلم نورٌ لصاحبه، وضياءٌ له في طريقه وفي سَيرِه؛ فبالعلم يميِّز المرء بين الهدى والضَّلال، والحقِّ والباطل، والنُّور والظَّلام، وبدون العلم تَلتَبِس عليه الأمور، وتختلط عليه السُّبل.

ولهذا كان نبيُّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول كلَّ يومٍ إذا أصبح بعد أن يُصَلِّي الصُّبح: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا**»[(٤)]، ففي كلِّ يومٍ يسأل اللهَ العلمَ النَّافعَ؛ لأنَّه مطلوبٌ من المرء في كلِّ يوم من أيَّامه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).
(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).
(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٦٥٢١)، وابن ماجه (٩٢٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

وأعظم ما يكون في العلم الشَّرعيِّ: العناية بالقرآن الكريم؛ فإنَّ أمرَه عَجَبٌ في تقوية الإيمان، وزيادة اليقين، وتمتينه في القلب؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التَّوبة: ١٢٤]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

وكذا العناية بالسُّنَّة النَّبويَّة، وأيضًا سِيَر الصَّحابة الكرام ومَنِ اتَّبعهم بإحسان؛ فهذا بابٌ عظيمٌ من أبواب تقوية الإيمان، وأيضًا كلُّ ما يعين على الصِّلة بالله، والتَّعظيم لله، والإجلال لله، ويأتي في مقدِّمة ذلك: حُسنُ المعرفة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبأسمائِه، وصفاتِه، وأفعالِه، والتَّأمُّل في مخلوقاته الدَّالَّة على عظمته وجلاله؛ فإنَّ هذا يقوي الإيمان في القلب تقويةً عظيمةً، ومَن كان بالله أعرَف؛ كان منه أخوَف، ولعبادته أطْلَب، وعن معصيته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَبعَد.

مع العناية بحفظ الإيمان من الأمور الَّتِي تُنقصُه، وتتسبَّب في ضعفه ووهائه، ورُبَّمَا أيضًا ذهابه.

والمسلم كما أنَّه مطلوبٌ منه أن يعرف أسباب زيادة الإيمان وقوَّته ليعمل بها ويحافظ عليها؛ فإنَّه مطلوبٌ منه في الوقت نفسه أن يَعرِفَ أسباب ضعف الإيمان؛ ليجتنبَّها، وليكون على حَذَرٍ منها.

٢٦
حديث: «ثلاث مَن كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان»

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»[١].

إنَّ الإيمان بالله ورسوله ﷺ هو جِماع السَّعادة، وأصلُها الَّذي عليه تُبنى، وأساسُها الَّذي عليه ترتكز، وأهل الإيمان هم أهل السَّعادة، ومَن فارقَه الإيمانُ فارقَتْهُ السَّعادة، وكان من أهل الشَّقاء في الدُّنيا والآخرة؛ ولهذا: فإنَّ مَن كان من أهل الإيمان تحقيقًا له، وتتميمًا، وقيامًا بمقتضياته وما يستوجبه؛ نال من السَّعادة بحسب ما عنده من الإيمان، وإذا ضَعُف الإيمان ضَعُف حظُّه من السَّعادة، وإذا ذهب الإيمان ذهبت السَّعادة وفارقت الإنسان؛ فبالإيمان يَسعَد، وبالإيمان يَطمئِنُّ، وبالإيمان تقَرُّ العين، وبالإيمان ينشرح الصَّدر، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ [الرَّعد: ٢٨-٢٩].

فالإيمان: هو الطُّمأنينة الحقيقيَّة، هو الرَّاحة، واللَّذَّة، وقرَّة العين؛ فالسَّعادة

(١) أخرجه البخاريُّ (١٦)، ومسلم (٤٣).

مرتبطة بالإيمان، والَّذِي ربطها بالإيمان هو ربُّ العالمين، وخالق الخلق أجمعين سبحانه، فمَن كان من أهل الإيمان سَعِدَ في الدُّنيا والآخرة، ومَن فارقه الإيمان فارَقَ السَّعادة في الدُّنيا والآخرة، ومَن ضَعُف إيمانُه ضَعُف نصيبُه وحظُّه من السَّعادة بحسب ما ضَعُف من إيمانه، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]؛ أي: أنَّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ كتب لمتَّبِع الهدى والإيمان ووحي الرَّحمن سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الهدايةَ والسَّعادة وأعاذه من الضَّلال والشَّقاء.

وهذا الحديث حديثٌ عظيمٌ في بيان الإيمان، وصفاتِ أهله، وبما تُذاق حلاوتُه؛ فإنَّ الإيمان له حلاوة، ومَذَاقٌ جميل، وطَعمٌ حلوٌ لا يجده كلُّ أحد؛ وإنَّما ثَمَّةَ خصالٌ عظيمةٌ مِن خصال الإيمان، وصفاتٌ عظيمةٌ من صفات المؤمنين، إذا تحقَّق المرء بالاتِّصاف بها؛ ذاق حلاوة الإيمان، ووجَدَ بها طعمه؛ كما أخبر بذلك النَّبِيُّ الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قوله: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيْهِ**»؛ أي: ثلاثُ خصالٍ عظيمةٍ، وصفاتٍ جليلةٍ هي من صفات الإيمان وخصالِه العظيمة.

«**مَنْ كُنَّ فِيْهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيْمَانِ**»، أي: إنَّما توجد وتُنَال بتحقيق هذه الصِّفات، فمَن اتَّصفَ بها؛ وجد حلاوة الإيمان ووجد طعمَه؛ لأنَّ وجود الحلاوة بالشَّيء يتبَع المَحبَّة له، فمَن أحبَّ شيئًا أو اشتهاه -إذا حصل له مراده- فإنَّه يجد الحلاوة واللَّذَّة والسُّرور بذلك، واللَّذَّة أمرٌ يحصل عُقَيْب إدراك الملائم الَّذِي هو المَحبوب أو المشتهى.

وذكر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ **أمورًا ثلاثة:** أصلٌ، وفرعٌ، ودفْعُ مضادٍّ، وهذه الثَّلاثة هي الَّتِي يجد بها المرء حلاوة الإيمان.

قال ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فحلاوة الإيمان المتضمِّنة من اللَّذَّة به والفرح ما يجده المؤمن الواجد من حلاوة الإيمان؛ تَبْعُ كمال محبَّة العبد لله، **وذلك بثلاثة أمور؛ تكميل هذه المحبَّة، وتفريعها، ودفع ضدِّها:**

فتكميلها: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما؛ فإنَّ محبَّة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحبِّ، بل لا بدَّ أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما -كما تقدَّم-.

وتفريعها: أن يُحِبَّ المرء لا يُحِبُّه إلَّا لله.

ودفع ضدِّها: أن يكره ضدَّ الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النَّار»(١).

أمَّا الأصل: فقوله: «**أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**» بأن يحبَّ الله عَزَّوَجَلَّ محبَّةً مقدَّمة على كلِّ شيء، ثمَّ يحبُّ رسولَه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ محبَّةً هي تَبَعٌ لمحبَّة الله؛ فإنَّ محبَّة الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هي من محبَّة الله، وطاعة الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من طاعة الله جَلَّ وَعَلَا.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التَّوبة: ٢٤].

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيميَّة (١٠/ ٢٠٦).

وأصل الأعمال الدِّينيَّة، والمُحَرِّك لها: هو حبُّ الله ورسوله ﷺ؛ فكُلَّما قويت هذه المحبَّة قويت لوازمُها ومقتضياتُها، وإذا ضَعُفَت ضَعُفَ ذلك؛ كما أنَّ أصل الأقوال الدِّينيَّة: تصديقُ اللهِ ورسولِه؛ فبحسب ما يقوم في القلب من حُسنِ التَّصديق بالله وبرسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يكونُ السَّداد في الأقوال.

وأمَّا الفرع: فقوله: «**وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ**» بأن يحبَّ المرء لأجل الله، فإذا عُمِر القلب بمحبَّة الله الصَّادقة، ومحبَّة رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فإنَّه يتفرَّع عن ذلك -ولا بدَّ-: أن يحبَّ المرء لا يُحبُّه إلَّا لله، وكذلك يبغِض المرء لا يبغِضه إلَّا لله، وهذا استكمال للإيمان؛ ولهذا: قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في حديثٍ آخر: «**مَنْ أَحَبَّ للهِ، وَأَبْغَضَ للهِ، وَأَعْطَى للهِ، وَمَنَعَ للهِ؛ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيْمَانَ**»(١)، وقال رسول الله ﷺ: «**أَوْثَقُ عُرَى الْإِيْمَانِ: الحُبُّ فِي اللهِ، وَالبُغْضُ فِي اللهِ**»(٢).

وأمَّا دفع المضادِّ: فقوله: «**وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»، فهذا بُغضُ ما يُضادُّ ذلك ودفْعُه، وهو دليل على رسوخ الإيمان في القلب، وتمكُّنه من النَّفس؛ لِعِظَم محبَّة الله ومحبَّة الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في قلبه؛ فأصبح في قلبه كراهية شديدة للكفر، ولكلِّ ما يُضادُّ الإيمان وينافيه، ويكره أن يعود إلى شيءٍ من ذلك كما يكره أن يُقذَف في النَّار، ومن المعلوم أنَّ كراهية المرء لِأَنْ يُقذف في النَّار هي أشدُّ ما يكون كراهةً؛ فهذا فيه قوَّةُ كراهةِ المؤمنِ صادقِ الإيمان لكُلِّ ما يضادُّ الإيمان وينافيه.

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨١)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه وكيع في «الزُّهد» (٣٢٩)، وحسَّنه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (٩٩٨).

فتكون محبَّته دائرةً مع محبَّة الله، وكلَّما قويت فيه محبَّة الله قويت فروعُها المُتَفَرِّعة عنها، فيُحِبُّ المؤمن لا يُحِبُّه إلَّا لله، ويُبغض مَن يبغض؛ لا يبغضه إلَّا لله، فيحِبُّ الله، ويحبُّ مَن يُحِبُّه من الأعمال والأشخاص، وفي الدُّعاء المأثور عن نبيِّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ العَمَلِ الَّذِيْ يُبَلِّغُنِيْ حُبَّكَ**»(١)، فجمَع بين هذه الأمور.

ولمَّا كانت محبَّة الله سبحانه لها لوازم؛ وهي محبَّة ما يُحِبُّه الله من الأشخاص والأعمال، وكراهة ما يكرهه من ذلك؛ **سأل النَّبيُّ** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ **الله تعالى -مع محبَّته- محبَّة شيئين آخرين:**

أحدهما: محبَّة مَن يُحِبُّه الله؛ فإنَّ مَن أحبَّ الله أحبَّ أحبَّاءَه فيه ووالاهم، وأبغض أعداءَه وعاداهم، **وأعظم مَن تجب محبَّتهم في الله**: أنبياؤه ورسُله، **وأعظمهم**: نبيُّه محمَّد ﷺ الَّذِي افترض الله على الخلقِ كلِّهم متابعتَه، وجعل متابعته علامةً لصحَّة محبَّته؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

والثَّاني: محبَّة ما يُحِبُّه الله تعالى من الأعمال، وبها يَبلُغ إلى حبِّه؛ وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ درجة المحبَّة لله تعالى إنَّما تُنال بطاعته وبفعل ما يُحِبُّه؛ فإذا امتثل العبد لأوامر مولاه، وفعَل ما يُحِبُّه؛ أحبَّه الله تعالى، ورقَّاه إلى درجة محبَّته؛ كما في الحديث الإلهيِّ الَّذِي خرَّجه البخاريُّ: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى**

(١) أخرجه أحمد (٢٢١٦٢)، والتِّرمذيُّ (٣٢٣٥) واللَّفظ له.

أُحِبَّهُ»(١).

وقد تنوَّعت الأسباب الجالبة لمحبَّة الله والموجبة لها، وهي في الجملة ترجع لعشرة أسباب ذكرها ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«**أحدها:** قراءة القرآن بالتَّدبُّر والتَّفهُّم لمعانيه وما أريد به؛ كتدبُّر الكتاب الَّذِي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهَّم مراد صاحبه منه.

الثَّاني: التَّقرُّب إلى الله بالنَّوافل بعد الفرائض؛ فإنَّها تُوصِلُه إلى درجة المحبوبيَّة بعد المحبَّة.

الثَّالث: دوام ذكره على كُلِّ حالٍ؛ باللِّسان، والقلب، والعمل، والحال؛ فنصيبه من المحبَّة على قدر نصيبه من هذا الذِّكر.

الرَّابع: إيثار محابِّه على محابِّك عند غلبات الهوى، والتَّسنُّم إلى محابِّه وإن صَعُب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلُّبه في رياض هذه المعرفة وميادينها؛ فمَن عرَفَ الله بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ أحبَّه لا محالة.

السَّادس: مشاهدة بِرِّه، وإحسانه، وآلائه، ونِعَمِه الباطنة والظَّاهرة؛ فإنَّها داعية إلى محبَّته.

السَّابع -**وهو من أعجَبِهَا**-: انكسار القلب بكُلِّيَّته بين يديه.

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٥٠٢).

الثَّامن: الخلوة به وقت النُّزول الإلهيِّ؛ لمناجاته، وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتَّأدُّب بأدب العبوديَّة بين يديه، ثمَّ خَتْم ذلك بالاستغفار والتَّوبة.

التَّاسع: مجالسة المحبِّين الصَّادقين، والْتقاط أطايب ثمرات كلامهم؛ كما تنتقي أطايب الثَّمر، ولا تتكلَّم إلَّا إذا ترجَّحَتْ مصلحةُ الكلام، وعلمتَ أنَّ فيه مزيدًا لحالك، ومنفعةً لغيرك.

العاشر: مباعدة كلِّ سبب يحول بين القلب وبين الله عَزَّوَجَلَّ.

فمن هذه الأسباب العشرة وصلَ المُحِبُّون إلى منازل المحبَّة»[1].

ولهذا يحتاج المسلم دائمًا أن يعمل على تقوية محبَّة الله في قلبه، ومحبَّة رسوله ﷺ، ومحبَّة شرعه، وأن يفعل الأسبابَ الَّتي تُمَكِّن هذه المحبَّة في القلب، وأن يجتهد في أن يُبعِد عن قلبه أمراضَه وأسقامَه الَّتِي تُضعِف هذه المحبَّة وتُوهِيها، ويُكثِرَ من دعاء الله أن يرزقه حبَّه، وحبَّ مَن يحبُّه، وحبَّ العمل المقرِّب إلى حبِّه، ويكرِّرها في حياته، ويبذل الأسبابَ الَّتِي تُقوِّي وتوسِّع مساحةَ المحبَّة لله ولرسوله ولدينه في قلبه.

---

(١) انظر: مدارج السَّالكين (١/ ٣٨١-٣٨٣).

٢٧
حديث: «احفظ الله يحفظك»

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: **«يَا غُلَامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»**(١).

هذا حديثٌ جليلُ الشَّأن، مشتملٌ على وصايا عظام، جَمَعَت خيري الدُّنيا والآخرة، وهو أصلٌ عظيمٌ في مراقبة الله، وحفظ حقوقه، وتفويض الأمور إليه، وحُسن التَّوكُّل عليه، وتحقيق توحيده، ومعرفة تفرُّده بالتَّدبير، وعَجْزِ الخلائق كلِّهم وافتقارهم إليه.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ: «وهذا الحديث يتضمَّن وصايا عظيمة، وقواعد كُلِّيَّة من أهم أمور الدِّين، حتَّى قال بعض العلماء: تدبَّرْتُ هذا الحديث فأدهشني، وكِدتُ أطيش، فوا أسفا من الجهل بهذا الحديث، وقلَّة التَّفهُّم

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٥١٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

لمعناه»[١].

وقد كان ابن عبَّاس حين حدَّثه النَّبِيُّ ﷺ بهذا الحديث صغيراً لم يبلغ الحلم.

وهو حديثٌ جامعٌ ينبغي على كلِّ مسلم أن يُعنى به حفظًا وفهمًا وعملًا؛ ليسعد في دنياه وأُخراه، وكثيرٌ من الأخطاء الَّتِي يقع فيها النَّاس ناشئةٌ عن الجهل بهذا الحديث العظيم ونظائره من الأحاديث الَّتِي تُقرِّر أصول الاعتقاد، وتبيِّن أساس الدِّين، وتَصِلُ النَّاس بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ اعتقادًا، وإقرارًا، وثقةً، وإيمانًا.

وينبغي أن يتعلَّمه الصِّغار والكبار على حدٍّ سواء، وأن يُعنوا بمعرفته، وينبغي على الآباء وأولياء الأمور والمعلِّمين في المدارس، والمعتنين بالتَّربيَّة؛ أن يعنوا بإيصال هذه الوصايا النَّبويَّة إلى النَّاشئة ذكورًا وإناثًا، وأن يغرسوا فيهم هذا الغرس المبارك، وأن يحرصوا على تنشئَتِهم نشأةَ الإيمان وحسن الصِّلة بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قوله: «**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ**» أي: فاحفظهنَّ، واعتنِ بهنَّ، واحرص على فهمهنَّ وتطبيقهنَّ في حياتك تَسعَدْ في دنياك وأخراك.

قوله: «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ**» وهذا عنوان سعادة العبد في هذه الحياة، وأساس فلاحه في الدُّنيا والآخرة؛ أن يكون حافظًا لحدود الله، محافظًا على أوامره، حافظًا لنفسه في طاعة الله؛ فإنَّ مَن حَفِظَ اللهَ حَفِظَهُ الله، ومَن اتَّقى الله وَقَاهُ.

(١) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبليِّ (ص٤٢٠).

وحِفْظُ الله يعني: حِفْظَ حدوده، وحقوقه، وأوامره، ونواهيه، وحِفْظُ ذلك: هو الوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده فلا يتجاوز ما أمر به، وأذِن فيه إلى ما نهى عنه؛ فمَن كان كذلك فهو من الحافظين لحدود الله الَّذِين مدحهم الله في كتابه بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٢-٣٣]، **وقد فُسِّر الحفيظ هنا**: بالحافظ لأوامر الله، وبالحافظ لذنوبه ليتوب منها.

ومن أعظم ما يجب حفظُه من أوامر الله: الصَّلاة؛ فإنَّها عماد الدِّين، وأعظم أركانه بعد الشَّهادتين، وقد أمر الله جَلَّوَعَلَا بالمحافظة عليها، فقال: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، ومَدَح المحافظين عليها بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللهُ عَلَى الْعِبَادِ؛ فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ**»(١)، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كُنَّ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢).

وممَّا أُمِر المسلم بالمحافظة عليه الطَّهارة؛ فإنَّها مفتاح للصَّلاة، قال النَّبيُّ ﷺ: «**لَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ**»(٣).

وممَّا يؤمر بحفظه: الأيْمان؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]؛ فإنَّ الأيمان يتهاون النَّاس فيها كثيرًا.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥)، وابن ماجه (١٤٠١)، والنَّسائِيُّ (٤٦١)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) أخرجه أحمد (٦٥٧٦).
(٣) أخرجه أحمد (٢٢٤٣٣)، وصحَّحه الألبانِيُّ في «الصَّحيحة» (١١٥).

ومن ذلك حفظ الرَّأس والبطن كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**الِاسْتِحْيَاءُ مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى**»(١) خرَّجه الإمام أحمد والتِّرمذيُّ.

و«**حِفظُ الرَّأسِ وَمَا وَعَى**»: يدخل فيه حفظُ السَّمع والبصر واللِّسان من المُحَرَّمات، و«**حِفظُ البَطنِ ومَا حَوَى**»: يتضمَّن حفظَ القلب عن الإصرار على المُحَرَّمات؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقد جمع الله ذلك كلَّه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ويتضمَّن ذلك -أيضًا-: حفظ البطن من إدخال الحرام إليه من المآكل والمشارب.

ويدخل في ذلك كذلك: حفظ اللِّسان والفرج؛ ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ حَفِظَ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَرِجْلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ**» خرَّجه الحاكم(٢).

وخرَّج الإمام أحمد(٣) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ حَفِظَ مَا بَيْنَ فُقْمَيْهِ وَفَرْجَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»، وأمر الله عَزَّوَجَلَّ بحفظ الفروج ومدح الحافظين لها، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ [النُّور: ٣٠]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ

(١) أخرجه أحمد (٣٦٧١)، والتِّرمذيُّ (٢٤٥٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٨٢٦٢)، وأصله عند البخاريِّ (٦٤٧٤) بلفظ: «**مَن يَضْمَنْ لِيْ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ؛ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ**».
(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٩٥٥٩).

ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ إلى أن قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون: ٥-٦].

ومن حَفِظَ حدود الله، وراعى حقوقَه حَفِظَه الله؛ فإنَّ الجزاء من جنس العمل؛ **وحِفْظُ اللهِ للعبد يدخل فيه نوعان:**

أحدهما: حِفظُهُ له في مصالح دنياه؛ كحفظه في بدنه، وولده، وأهله، وماله؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرَّعد: ١١]، قال ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «هم الملائكة يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء القدر خلَّوا عنه»[(١)]، وقال عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إنَّ مع كلِّ رجلٍ ملَكَين يحفظانه ممَّا لم يُقدَّر، فإذا جاء القدر خلَّيا بينه وبينه، وإنَّ الأجل جُنَّةٌ حصينة»[(٢)].

والنَّوع الثَّاني من الحفظ -وهو أشرف النَّوعين-: حفظ الله للعبد في دينه وإيمانه؛ فيحفظه في حياته من الشُّبهات المُضلَّة، ومن الشَّهوات المحرَّمة، ويحفظ عليه دينه عند موته؛ فيتوفَّاه على الإيمان، ومن هذا القبيل: ما ثبت في حديث عمر أنَّ النَّبيَّ ﷺ علَّمه أن يقول: «**اللَّهُمَّ احْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ قَاعِدًا، وَاحْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ قَائِمًا، وَاحْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ رَاقِدًا، وَلَا تُطِعْ فِيَّ عَدُوًّا حَاسِدًا**» خرَّجه ابن حِبَّان في «صحيحه»[(٣)].

(١) أخرجه بنحوه الطَّبريُّ في «جامع البيان» (١٣/ ٤٥٨).
(٢) أخرجه الطَّبريُّ في «جامع البيان» (١٣/ ٤٦٦).
(٣) أخرجه ابن حِبَّان في صحيحه (٩٣٤).

وثبت في «سنن أبي داود»، و«سنن ابن ماجه» وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يكن يدَعُ هؤلاء الدَّعوات حين يمسي وحين يصبح: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**»(١).

«**احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ**» وفي رواية: «**أَمَامَكَ**»(٢)؛ أي تجده معك حيث توجَّهت؛ يحوطُك، وينصرُك، ويحفظُك، ويوفقُك، ويسدِّدُك، ويدلُّك إلى كلِّ خير، ويقرِّبُك إليه، ويهديك إلى صراطه المستقيم، ومن لازم ذلك أن يمنع عنك الشَّرَّ.

قوله: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**» فيه أمرٌ بالإخلاصِ لله تعالى في السُّؤال والاستعانة؛ بأن لا يُسأَلَ إلَّا الله، ولا يُستعانَ إلَّا به، وهذا أمرٌ متعيِّنٌ على كلِّ مسلم؛ لأنَّ السُّؤالَ فيه إظهارُ الذُّلِّ من السَّائل، والمسكنةِ، والحاجةِ، والافتقارِ، وفيه الاعترافُ بقُدرةِ المسؤول على دفع هذا الضررِ، ونيلِ المطلوب، وجلبِ المنافعِ، ودرءِ المضارِّ، ولا يصلحُ الذُّلُّ والافتقارُ إلَّا لله وحده؛ لأنَّه حقيقةُ العبوديَّة.

والجمْع بين السُّؤال والاستعانة: جَمْعٌ بين الغاية والوسيلة؛ كما في قوله

(١) أخرجه أحمد (٤٧٨٥)، وأبو داود (٥٠٧٤)، وابن ماجه (٣٨٧١)، والنَّسائِيُّ (٥٥٣٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ.
(٢) أخرجها أحمد (٢٨٠٣).

تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]؛ **فإيَّاك نعبد**: غاية؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات: ٥٦]، **وإيَّاك نستعين**: وسيلة؛ فلا يمكن أن تتحقَّق الغاية الَّتِي هي العبادة إلَّا بهذه الوسيلة وهي عون الله، وإذا لم يكن عونٌ من الله لم يستطع العبد أداءها.

كان الصَّحابة يقولون: والله لولا الله ما اهتدينا ولا صمنا ولا صلِّينا(١)؛ والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النُّور: ٢١]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٧-٨].

قوله: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**» بعد أنْ ذكر أنَّ السُّؤال لله وحده، والاستعانةَ بالله وحده؛ أخبر أنَّ كلَّ شيء بيده، وأنَّه لا مانعَ لِمَا أعطى، ولا مُعطيَ لما منع، وأنَّ كلَّ شيء لا يَخرُج عن إرادته ومشيئته، وأنَّ العباد لايمكنهم أن ينفعوه بشيء لم يقدِّره الله، ولا أن يضرُّوه بشيء لم يقدِّره الله، وأنَّ كلَّ شيءٍ يقع أو لا يقع سَبَقَ به القضاء والقدر؛ ولهذا قال: «**رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**» أي: أنَّ كلَّ كائنٍ قد فُرِغ منه، وكُتِب؛ لا بدَّ من وقوعه كما كُتِبَ.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٦٢٠)، ومسلم (١٨٠٣).

والمراد برفع الأقلام وجفاف الصُّحف: الانتهاء من كلِّ شيءٍ مقدَّر بكتابته في اللَّوح المحفوظ؛ فلا بدَّ أن يقع وفقًا لما قُدِّر.

قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وهذا يدعو العبدَ إلى أن يكون تعلُّقه وتوكُّله بالله وحدَه، وتفويضه لأموره إلى الله وحده، إيَّاه يسأل، وعليه يتوكَّل، يرجو رحمته، ويخاف عذابه.

٢٨

حديث: «المؤمن للمؤمن كالبنيان»

عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْمؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**»(١).

هذا حديثٌ عظيمٌ في بيان أخوَّة الإيمان ورابطة الدِّين؛ الَّتِي هي أوثقُ الرَّوابط، وأقواها، وأمْتَنُها، وهو يدلُّ على وجوب التَّضامن بين المسلمين، والتَّراحم، والتَّعاطف، والتَّعاون على كلِّ خير، وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ إِنِ اشْتَكَى رَأْسُهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ**» رواه مسلم(٢).

وفي تشبيه المؤمنين بالبناء الواحد والجسد الواحد: ما يدلُّ على أنَّهم بتضامُنِهم وتعاونِهم وتراحُمِهم؛ تجتمع كلمتُهُم، وينتظم صفُّهم، ويَسلَمُون من شرِّ عدوِّهم.

وهذه الأُخوَّة الَّتِي تجمعهم شأنُها ومكانتها أعظمُ من أخوَّة النَّسب؛ لأنَّ الجامعَ فيها دينُ الله، والرَّابطة فيها عبادةُ الله، والغاية منها نيلُ رضا الله جَلَّ وَعَلَا؛

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٤٤٦)، ومسلم (٢٥٨٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٦).

ولهذا كان واجبًا على كُلِّ مسلم أن يرعى لهذه الأُخُوَّة حقَّها، وأن يعرفَ لها مكانتها، وأن يحفظَ حرمتها، وأن يتحاشى كلَّ أمرٍ ينقُضها أو يُنقِصُها؛ فإنَّ الأخوَّة في الله تحتاج من أهل الإيمان ومن المتآخين في الدِّين إلى رعايةٍ وعنايةٍ بها؛ لئلَّا تنخرم، ولئلَّا تنثلم، وبمطالعة الكتاب والسُّنَّة في هذا الباب العظيم؛ نجد آيات وأحاديث عن رسول الله ﷺ تنوِّه بهذه الأخوَّة وتُعلي من شأنها، وتُبَيِّن موجباتها ومقتضياتها، وحقوقها وآدابها.

ومن جوامع ما جاء في هذا الباب: قول الله تعالى في سورة الحجرات في التَّنويه بهذه الأخوَّة الإيمانيَّة، ومكانتها، وذكر شيءٍ من حقوقها وواجباتها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝١١ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٠-١٢].

ومن أجْمَعِ ما ورد في السُّنَّة في هذا الباب المبارك: ما رواه مسلم في «صحيحه»[(١)] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ،**

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

التَّقْوَى هَاهُنَا -وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ-، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»؛ وهذا الحديث من جوامع كلِم نبيِّنا ﷺ في هذا الباب المبارك؛ بابِ الأخوَّة الإيمانيَّة وما تقتضيه وتستوجبه بين أهل الإيمان من حقوقٍ ومقتضياتٍ وواجبات.

ومَن أخلَّ بشيءٍ ممَّا ذُكِرَ في الآيات المُتَقَدِّمة، وما ذكره النَّبِيُّ ﷺ في هذا الحديث وغيره من أحاديثه الشَّريفة ممَّا يتعلَّق بالأخوَّة ومقتضياتها؛ نَقَصَ من إيمانه، وضَعُفَ من دينه؛ بحسب ما أخلَّ به من حقوقٍ للأخوَّة.

والإيمان يُثمر في أهله تآخيًا وتآلفًا وتوادًّا عظيمًا، وصلةً وثيقة لا يمكن أن تتحقَّق بين النَّاس في أيِّ رابطة أخرى أيًّا كانت، وهي رابطة مستمرَّة، غير منقطعة في الدُّنيا والآخرة، أمَّا الصِّلات الأخرى فهي منقطعة مهما كانت قُوَّتها؛ قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزُّخرف: ٦٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]؛ أي: أسباب الأُخوَّة والصِّلة؛ ولهذا: كلُّ علاقةٍ وتآخٍ مآله إلى التَّصرُّم والانقطاع إلَّا التَّآخي في الله.

وقد نوَّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأهل الإيمان لتواصيهم بالمرحمة قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]، **والمراد بالمرحمة**: التَّراحم بين أهل الإيمان، وأن تكون قلوبهم منطوية على الرَّحمة؛ يرحم بعضهم بعضًا، ويعطف بعضهم على بعض؛ كما تقدَّم وصْفُهُم في الحديث: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ**

سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[١]، وقد ضرب أصحاب النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -وهم خير أُمَّته- في هذا الباب أروع الأمثلة، وحقَّقوا فيه رفيع المقامات.

وقد نوَّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذلك في القرآن، قال في سورة الفتح في تمامها: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، أي: يرحم بعضهم بعضًا، ويرأف بعضهم ببعضٍ، ويعطِفُ بعضهم على بعض، آمالُهم واحدة، وآلامُهم واحدة، أفراحُهُم واحدة، وأتراحُهُم واحدة؛ كالجسد الواحد، ومن المعلوم: أنَّ الجسد الواحد يألَمُ لألم بعضِهِ، ويفرح لفرح بعضه، وهكذا ينبغي أن تكون حال أهل الإيمان.

وإذا ضعُف فيهم هذا الخلق؛ فهو من ضَعفِ إيمانهم؛ لأنَّ من مقتضيات أخوَّة الإسلام ولوازمها: التَّراحم بين أهله، وأن يكونوا بهذه المثابة كالجسد الواحد، وأن يكونوا كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا، وقد قال ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[٢]؛ وكلٌّ يُحِبُّ لنفسه من إخوانه أن يرحموه، وأن تكون قلوبهم منطويةً على رحمته، ولا يريد أن تنطوي قلوب إخوانه عليه بحقدٍ، أو حسدٍ، أو غلٍّ، أو كيدٍ، أو مكرٍ أو غير ذلك، وما لا يرضاه لنفسه من الأخلاق؛ فيجب عليه ألَّا يرضاه للآخرين، وما لا يُحِبُّه لنفسه يجب عليه ألَّا يُحِبُّه للآخرين؛ فإنَّه إذا عومل يومًا بغير الرَّحمة؛ سَخِطَ لذلك، ولم يرضَ بذلك؛ لأنَّ النُّفوس تأبى كلَّ خصلةٍ تُجَانِبُ العطفَ والرَّحمة.

ولهذا: كان مُتَأَكِّدًا على المسلم أن يعامل إخوانه بالمعاملة الطَّيِّبة الكريمة

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) واللَّفظ له.
(٢) أخرجه البخاريُّ (١٣)، ومسلم (٤٥).

الفاضلة الَّتِي يُحِبُّ أن يعامَل بها، **وأساس ذلك بين أهل الإيمان**: التَّراحُم، ووجود الرَّحمة في القلوب، فإذا رَحِمَ المسلم إخوانه؛ عاملهم بالمعاملة الحسنة الطَّيِّبة.

ومن أسماء نبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وألقابه المنيفة صلوات الله وسلامه عليه: «نَبِيُّ الرَّحمة»؛ كما جاء في «صحيح مسلم»[(١)] من حديث أبي موسى الأشعريِّ قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً، فَقَالَ: «**أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ**»، وهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نبيُّ الرَّحمة.

أوَّلًا: في خُلُقه هو ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّوبة: ١٢٨]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وثانيًا: في دعوته المُتكَرِّرة، ونصحه المتواصل لأُمَّته أن يكونوا متراحمين، والأحاديث عنه في هذا الباب كثيرة؛ أمرًا بالرَّحمة والتَّراحُم، وحثًّا على ذلك، وأنَّه خُلُقُ أهلِ الإيمان، بل بيَّن عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ انتزاع الرَّحمة من قلب الإنسان دليلٌ على شقائه، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ**»[(٢)] رواه التِّرمذيُّ وحسَّنه، ويؤخذ من قوله: «**أَنَا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ**»: أنَّ من انتُزِعت من قلبه الرَّحمة؛ فهذا من خلل في اتِّباع إمام الرُّحَماء صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٥٥).

(٢) رواه التِّرمذيُّ (١٩٢٣)، وأبو داود (٤٩٤٢)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

وهذه الرَّحمة تجلب للقلب سعادةً وراحةً، وتجعل للمرء في قلوب الآخرين محبَّةً واحترامًا؛ لأنَّ القلوب جُبلت على محبَّة مَن يرحمُها، ويحسِن إليها، ويعطف عليها، وجُبلت على النُّفرة ممَّن كان غليظًا فظًّا، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وروى الطَّبرانِيُّ عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه سمع النَّبِيَّ ﷺ يقول: «**لَنْ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَرَاحَمُوا**»، قالوا: يا رسول الله، كلُّنا رحيم، قال: «**إِنَّهُ لَيْسَ بِرَحْمَةِ أَحَدِكُمْ صَاحِبَهُ، وَلَكِنَّهَا رَحْمَةُ النَّاسِ رَحْمَةُ العَامَّةِ**»(١).

فينبغي على المسلم أن يكون مراعيًا لحقوق إخوانه المسلمين، مُحبًّا الخيرَ لهم، رحيمًا بهم، عَطوفًا عليهم، داعيًا لهم بالتَّوفيق والسَّداد، والخير والفلاح، والصَّلاح والاستقامة؛ لأنَّ حاجةَ الجميعِ إلى ذلك مشتَرَكَةٌ؛ فكما أنَّ المسلمَ بحاجةٍ إلى دعوات إخوانه المسلمين؛ فكذلك إخوانه المسلمون بحاجة إلى ذلك، قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والجميعُ مشتركون في الحاجة -بل في الضَّرورة- إلى مغفرةِ الله وعفوِه ورحمتِه، فكما يُحبُّ [أي: المسلم] أن يَستغفرَ له أخوه المسلمُ؛ كذلك هو أيضًا ينبغي أن يستغفرَ لأخيه المسلم، فيصير هِجِّيرَاهُ: ربِّ اغفر لي ولوالديَّ وللمسلمين والمسلمات وللمؤمنين والمؤمنات»(٢).

(١) أخرجه الطَّبرانِيُّ كما في مجمع الزَّوائد (١٢٧٣١)، والحاكم (٧٤٩٨)، والنَّسائيُّ في «السُّنن الكبرى» (٥٩٢٨)، وقال الألبانِيُّ: «حسن لغيره» كما في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٢٢٥٣).

(٢) انظر: مفتاح دار السَّعادة لابن القيِّم (٢/ ٨٤٤).

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا﴾ [الحشر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمَّد: ١٩].

ومِن الأجور الواردةِ في هذا الدُّعاء العظيم: ما ثبت في «المعجم الكبير» للطَّبرانِيِّ بإسناد حسن عن عُبادة بن الصَّامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً**»(١).

ثمَّ إنَّ هذه الأخوَّة الإيمانيَّة، والرَّابطة الدِّينيَّة العظيمة؛ لا يجوز أن تُهدَر وأن تَضِيع استنادًا إلى بعض الحظوظ الدُّنيويَّة، وكم يقع بين كثيرٍ من النَّاس، بل بين كثير من المُتَحَابِّين أن يدخل عليهم الشَّيطان مِنْ خلال بعض الحظوظ الدُّنيويَّة؛ فيقعوا في قطيعةٍ بينهم، وعداوة، وشحناء، وبغضاء، تبقى والعياذ بالله إلى أن يُدرَج أحدهما في قبره.

وإنَّها لمصيبةٌ عظيمةٌ أن يُخَلَّ بهذه الأُخُوَّة الإيمانيَّة هذا الإخلال، وأن تُضَيَّع بهذه الطَّريقة لأجل بعض الحظوظ الدُّنيويَّة؛ ولهذا جاء في «الصَّحيحين» عن نبيِّنا ﷺ أنَّه قال: «**لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيَصُدُّ هَذَا وَيَصُدُّ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ**»(٢).

وروى مسلم(٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**تُفْتَحُ أَبْوَابُ**

(١) أخرجه الطَّبرانِيُّ في «مسند الشَّاميِّين» (٢١٥٥).
(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٢٣٧) واللَّفظ له، ومسلم (٢٥٦٠).
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٥).

الْجَنَّةِ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا».

٢٩

حديث: «الرَّجل يصوم ويصلِّي ويتصدَّق وهو يخاف أن لا يقبل منه»

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ أَهُوَ الرَّجُلُ يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ؟ قَالَ: «**لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ؛ وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ**»(١).

في هذا الحديث العظيم ذِكْرُ صفةٍ جليلةٍ من صفات أهل الإيمان؛ ألا وهي أنَّهم مع إحسانهم في العَمَلِ والتَّعَبُّدِ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ قد خافوا ووَجِلوا من عذاب الله وسَخطِهِ، يُحسنون في أعمالهم، وفي الوقتِ نفسِهِ يُشفِقُون أن لا تُقبل منهم، وهذه حال المؤمنين الكُمَّل؛ يُقَدِّمون ما يُقدِّمُون من عباداتٍ وطاعاتٍ، وقُلوبُهم خائفةٌ أن تُرَدَّ عليهم أعمالُهم، فيُصيبهم بعد ذلك عذابٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال ابن بطَّة العكبريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمَا تَرَون -رحمكم الله- إلى الرَّجل من المسلمين قد صلَّى الصَّلاة فأتمَّها وأكملَها، ورُبَّمَا كانت في جماعةٍ وفي

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

وقتها، وعلى تمام طهارتها، فيقال له: صلَّيت؟ فيقول: قد صلَّيت إن قبلها الله، وكذلك القوم يصومون شهر رمضان، فيقولون في آخره: صمنا إن كان الله قد تقبَّله منَّا، وكذلك يقول مَن قَدِمَ من حجَّةٍ بعد فراغه من حجِّهِ وعمرته وقضاء جميع مناسكه؛ إذا سُئِلَ عن حجِّه؛ إنَّمَا يقول: قد حجَجنا، ما بقي غير القَبول، وكذلك دعاء النَّاس لأنفسهم، ودعاء بعضهم لبعضٍ: اللَّهُمَّ تقبَّل صومنا وزكاتنا، وبذلك يُلقَى الحاجُّ، فيُقال له: قَبِلَ الله حجَّك، وزَكَّى عملك، وكذا يتلاقى النَّاس عند انقضاء شهر رمضان، فيقول بعضهم لبعضٍ: قَبِلَ الله منَّا ومنك، بهذا مضت سُنَّة المسلمين، وعليه جرت عاداتهم، وأخذَه خَلَفُهم عن سلَفِهِم»[١].

وكان السَّلف يشتدُّ خوفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]؛ أي: ممَّن اتَّقاه في ذلك العمل؛ بأن يكون عملًا صالحًا خالصًا لوجه الله، وأن يكون موافقا للسُّنَّة؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وكان عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ اجعل عملي كلَّه صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئًا»[٢]، ولا يجزم الواحد منهم بقبول أعماله.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا كانت هذه الآية يشتدُّ منها خوف

(١) انظر: «الإبانة الكبرى» لابن بطه (٢/ ٨٧١).
(٢) أخرجه أحمد في «الزُّهد» (٦١٧).

السَّلف على نفوسهم، فخافوا أن لا يكونوا من المُتَّقين الَّذِين يتقبَّل منهم»(١).

عن تَمِيم بن مالك المقري، قال: «سمعت أبا الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: لأن أستيقن أنَّ الله قد تقبَّل منِّي صلاة واحدة أحبُّ إليَّ من الدُّنيا وما فيها؛ إنَّ الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]»(٢).

وعن هشام بن يحيى عن أبيه قال: «دخل سائلٌ إلى ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال لابنه: أعطه دينارًا، فأعطاه، فلمَّا انصرف قال ابنه: تقبَّل الله منك يا أبتاه، فقال: لو علمتُ أنَّ الله تقبَّل منِّي سجدة واحدة أو صدقة درهم؛ لم يكن غائبٌ أحبَّ إليَّ من الموت، تدري ممَّن يتقبَّل الله ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾»(٣).

وعن فضالة بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه كان يقول: «لأن أعلم أنَّ اللهَ تقبَّل منِّي مثقال حبَّة من خردل أحبُّ إليَّ من الدُّنيا وما فيها؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾»(٤).

وكَانَ مُطَرِّف بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ تقبَّل مِنِّي صلاة يوم، اللَّهمَّ تقبَّل منِّي صوم يوم، اللَّهُمَّ اكتب لي حسنة، ثمَّ يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾»(٥).

وهذه الحال العليَّة الَّتِي كانوا عليها رضي الله عنهم ورحمهم: هي الحال

(١) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص٢٣٢).
(٢) ذكره ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٧٢)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم.
(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣١/ ١٤٦).
(٤) أخرجه ابن المبارك في الزُّهد والرَّقائق (ص١٩).
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنَّف (٣٧٨٥٤).

الَّتي نعَت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها المؤمنين الكمَّل في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١]، فذكر من جملة أوصافهم: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾.

وقد تقدَّم سؤال أمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا النَّبيَّ ﷺ عن هذه الآية حيث قالت: يا رسول الله أَهُوَ الرَّجُلُ يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ؟ أي: يعملون ما يعملون من هذه المعاصي وهم يخافون أن يُعَذَّبوا عليها؟ قَالَ: «**لَا يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُ، وَيُصَلِّي ، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُ**»(١)؛ لأنَّ مردَّ العمل في قبوله إلى تحقيق تقوى الله في العمل، فإذا حُقِّقت التَّقوى في العمل حصل القبول؛ كما تقدَّم في الآية: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: يتقبَّل العمل الَّذِي قاموا به إذا اتَّقوا الله فيه؛ إن كان حجًّا: فمَن اتَّقى الله في حجِّه قُبل حجِّه، وإن كان صلاةً: قبلت صلاته، وإن كان صيامًا: قُبِل صيامه، إلى غير ذلك، فكلُّ عبادةٍ إنَّما يتقبَّلها الله من العامل إذا اتَّقى الله فيها.

والضَّابط في تحقيق تقوى الله في العمل:

أن يقع العمل خالصًا لله، موافقًا لسُنَّة رسول الله ﷺ؛ هذه **حقيقة تقوى الله في العمل**: أن يقع خالصًا لله لم يُرَد به إلَّا الله، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيِّنة: ٥].

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وحسَّنه الألبانيُّ.

فهذا أصلٌ وأساسٌ متين، لا يكون قَبول للعمل إلَّا به؛ ولهذا جاء في الحديث القدسيِّ أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقول: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي؛ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[(١)]، ومعنى «**تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**» أي: رددتُ عليه عمله ولم أقبله منه؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يقبل من العمل إلَّا الخالص[(٢)]، أمَّا العمل الَّذِي وقع على وجه المراءاة والسُّمعة وغير ذلك: فهذا مردودٌ على العامل غير مقبول منه؛ فلا يُقبل إلَّا إذا أُريدَ به وجهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأُخلِص به لله، وأُتي به صافيًا نقيًّا لا يُراد به إلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والأمر الثَّاني: المتابعة للرَّسول ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]؛ فلا يَقبَل الله سبحانه من العمل إلَّا الموافقَ لهذا الدِّين الَّذِي رضيَه سبحانه لعباده، ولا يرضى لهم دينًا سواه؛ ولهذا: صحَّ في الحديث أنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[(٣)]. فإذا لم يكن العمل على أمر النَّبِيِّ ووفق سنَّته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فهو خلافُ التَّقوى؛ فيكون مردودًا.

فعلامة العمل المتقبَّل: أن يكون وقع خالصًا لله، موافقًا للسُّنَّة، قال الفضيل ابن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قَالَ: «أَخْلَصُه وأَصْوَبُه... إنَّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) أخرج النَّسائِيُّ (٣١٤٠) بإسناد حسَّنه الألبانِيُّ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ**».

(٣) أخرجه مسلم (١٧١٨).

ولم يكن خالصًا لم يُقبل؛ حتَّى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: ما كان لله، والصَّواب: ما كان على السُّنَّة»[(١)].

فالسَّعيد يخَاف فِي أَعماله أَن لَا يكون صَادِقًا فِي إخلاصه الدِّين لله، أَو أَن لَا تكون مُوَافِقَة لما أَمر الله بِهِ على لِسَان رَسُوله ﷺ.

قال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ المؤمن جمع بين إحسانٍ وشفقة، والفاجر جمع إساءةً وأمنًا»[(٢)]؛ أي: يسيء في العمل، وفي الوقت نفسه آمن، بينما المؤمن يحسن في العمل، ويجتهد في إتقانه وتكميله وتتميمه، وفي الوقت نفسه لا يزال يرى نفسه مُقَصِّرًا؛ فيخاف ألَّا يقبل.

وهذا هو الكمال: أن يجتهد في أداء الفرائض، ويستكثر من النَّوافل، ويرى نفسه مُقَصِّرًا مُفَرِّطًا، **وإذا كان الإنسان بهذه الصِّفة -مجتهدًا في العمل، وفي الوقت نفسه يرى نفسه مُقَصِّرًا مُفَرِّطًا- يحصل بذلك فائدتين عظيمتين:**

اجتهاده في الأعمال؛ ينفي عنه الكسل.

ورؤية تقصيره؛ تنفي عنه العجب الَّذِي يبطل الأعمال ويفسدها.

فَجَمَعَ اللهُ لهم بين مقامين عظيمين: مقام الإحسان في العمل، والإجادة في الطَّاعة، وفي الوقت نفسه: الخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ألَّا تُتقبَّل منهم أعمالهم.

قال اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ [البقرة: ١٢٧]، هذا دعاء مبارك قالاه في حال بنائهما البيت؛ كما جاء عن ابن

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٥).
(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزُّهد» (٩٨٥).

عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «هما يرفعان القواعد من البيت ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]»[(١)]؛ فهما في عملٍ صالحٍ جليلٍ، قاما به بأمر الله، ويسألان ربَّهما أن يتقبَّل منهما ما هما فيه من الطَّاعة العظيمة، والسَّعي المشكور.

فتأمَّل حال إمام الحنفاء، وقدوة الموحِّدين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ يبني بيت الله عَزَّوَجَلَّ وبأمره سبحانه، وهو خائف ألَّا يُقْبَلَ.

وقد قرأ وُهيب بن الورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية وبكى، قال: «يا خليل الرَّحمن! ترفع قوائم بيت الرَّحمن وأنت مشفِقٌ أن لا يقبل منك!»[(٢)].

وهذا فيه عبرةٌ وعِظَةٌ في أنَّ العبدَ مهما كانت مكانته؛ لا بدَّ أن يكون طامعًا في القَبول، راجيًا أن يتقبَّل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منه عمله؛ فهذا خليل الرَّحمن، وهو مَن هو في المكانة والفضل، وفي عملٍ هو أشرف الأعمال، وأفضلها، ويرجو القبول، ويسأل الله سبحانه أن يتقبَّل منه ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وهذه حال كُلِّ عبدٍ اتَّقى الله عَزَّوَجَلَّ، وحَسُنَ إقبالُه على الله، وحَسُنَ إيمانه بالله، وحَسُنَ تعظيمُه لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فإنَّه يتمِّم العمل ويكمِّله، ويخاف أن لا يُقبَل منه العمل.

روى التِّرمذيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو يَقُولُ: «**رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ،**

(١) أخرجه الطَّبريُّ في «جامع البيان» (٢/ ٥٥٧).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «التَّفسير» (١٢٤٠)، وابن أبي شيبة (٣٣٨٣٦).

وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الهُدَى لِي، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، لَكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي»(١).

والتَّوبة من أعظم الأعمال الصَّالحة الحبيبة لله، والتَّائب إلى الله عليه أن يجتهد في تكميل توبته، والصِّدق مع الله فيها، ورجاء أن تكون صحيحةً بشرائطها، واستجماع آدابها، ثمَّ يرجو القَبول؛ قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشُّورى: ٢٥].

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٥٥١)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

٣٠
حديث: «اللَّهمَّ بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق»

عن عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: صَلَّى بِنَا عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ صَلَاةً، فَأَوْجَزَ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْقَوْمِ: لَقَدْ خَفَّفْتَ -أَوْ أَوْجَزْتَ- الصَّلَاةَ، فَقَالَ: أَمَّا عَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ دَعَوْتُ فِيهَا بِدَعَوَاتٍ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا قَامَ تَبِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ -هُوَ أُبَيٌّ، غَيْرَ أَنَّهُ كَنَى عَنْ نَفْسِهِ- فَسَأَلَهُ عَنِ الدُّعَاءِ، ثُمَّ جَاءَ فَأَخْبَرَ بِهِ الْقَوْمَ: «**اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ**»(١).

أفاد هذا الدُّعاء العظيم: أنَّ الإيمان زينةٌ عظيمةٌ، وحِليَةٌ بهيَّة، وحُلَّةٌ

(١) أخرجه أحمد (١٨٣٢٥)، والنَّسائِيُّ (١٣٠٥) واللَّفظ له، وصحَّحه الألبانِيُّ.

جميلةٌ؛ مَنْ وُفِّق للتَّحلِّي بها والتَّجمُّل والتَّزيُّن؛ فقد وُفِّق لأعظم الزِّينة، وسَعِد في دنياه وأخراه؛ إذ هو الزِّينة الحقيقيَّةُ، والحِليةُ الَّتي لا نَظيرَ لها ولا مثيلَ، ومَن عَرِيَ عن هذه الزِّينة، فإنَّه فاقدٌ للجمال -وإن كان مُتَحلِّيًا بأبهى الحُلل وأحسَن الثِّياب-، ولمَّا ذَكَرَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في سورة الأعراف نعمةَ اللِّباس وإنزاله للنَّاس؛ ليكون لهم زينةً وسترًا وجمالًا؛ قال عَزَّوَجَلَّ في ذلك السِّياق الكريم: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]؛ إذْ إنَّ لباسَ التَّقوى وحِليَةَ الإيمان: هو الحليةُ الحقيقيَّةُ، والزِّينة التَّامَّةُ الكاملةُ؛ الَّتي مَنْ فقدَها؛ فقَدَ الخيرَ، والفضيلةَ، وفَقَدَ الحُسنَ والجمالَ؛ فأيُّ جمالٍ يُتَصوَّر بدون إيمان؟ وأيُّ حلاوةٍ وحُسْنٍ تتصوَّر بدون تقوى الرَّحمن سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟

نعَم! قَد تكون هناكَ مظاهرُ زائفةٌ، وأمورٌ يُفتَنُ بها النَّاس، ويظنُّون أنَّهم بها على أكملِ زينةٍ، وأحسنِ حِلْيَةٍ؛ إلَّا أنَّ الفاقد لزينة الإيمان وحلاوته يكون فاقدًا للزِّينةِ الحقيقيَّة، والجمال الحقيقيِّ.

ولقد امتنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على أهل الإيمان بأنْ أكرَمَهُم بهذه الزِّينة، وجمَّلهم بهذه الحِليَةِ، وأصبحوا -لمخالطة الإيمان قلوبَهم، ولِتَذَوُّقِهم طعمَه وحلاوَته، ولمعرفتهم بقدره ومكانته- يحسُّون بمكانة هذه الزِّينةِ، ويجدونها في قلوبهم، قال الله تعالى في سورة الحجرات: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧-٨]، والشَّاهد قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾ أي: الإيمان ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾؛ فأصبحَ قلبُ المؤمن الَّذي منَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليه

بذوقِ هذه الحلاوة، وشهودِ هذا الطَّعم والهناءة بهذه اللَّذَّة؛ يجد هذه الزِّينة في قلبه، ويحسُّ أنَّ هذه الزِّينة الَّتي منَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه بها، وأكرمه بأنْ جعله من أهلها؛ هي الزِّينةُ الحقيقيَّة، والجمال الحقيقيُّ؛ فلَا يغترُّ بالمظاهر الزَّائفة الَّتي تكون لأناسٍ مُعوِّقًا وصارفًا عن تحقيق الإيمان وتتميمه وتكميله؛ بل لقد آلَ الأمر ببعض النَّاس إلى أن أصبحوا في البحث عن الزِّينة الموهومة يخالفون شرعَ الله، ويعصُون رسولَه ﷺ، ويخالفون الفطرة السَّليمة الَّتي خلقهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليها، وهُم في توهُّمِهم الخاطئ يظنُّون أنَّهم بذلك يحقِّقون الزِّينَةَ والحِليةَ لأنفسهم، وأنَّهم يكتَسبون بذلك حُسنًا وجمالًا، وهيهات أن يُكتَسب الجمالُ بعصيان الرَّحمن، وأن تُنَالَ الحِليةُ بمخالفة الرَّسول الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

والحقُّ: أنَّ هؤلاء يعيشون أوهامًا زائفةً، وظنونًا فاسدةً، وتحوُّلاتٍ في الفِطَر القويمة والعقول المستقيمة.

والعاقل يبني حِليَتَهُ وزِينَتَهُ في ضوء ما حُدَّ له في شرع الله المُطَهَّر، وسُنَّة نبيِّه الكريم صلواتُ الله وسلامُه وبركاتُه عليه؛ كما في الدُّعاء المتقدِّم: «**اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ**»[1]، فسأل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ربَّه هذا السُّؤال العظيم، والمطلب الجليل، والمقصد النَّبيل؛ وهو التَّزيُّن بزينة الإيمان، والتَّجمُّل بجمال التَّقوى ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

وهذا التَّزيُّن والتَّجمُّل بحِليةِ الإيمان وزينته: يتطلَّب من العبد الموفَّق

(١) أخرجه أحمد (١٨٣٢٥)، والنَّسائِيُّ (١٣٠٥) واللَّفظ له، وصحَّحه الألبانِيُّ.

مجاهدةً للنَّفس، واستعانةً بالرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ؛ كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»[(١)]؛ فيجاهد نفسَه على التَّحقُّق بحقائق الإيمان وشرائع الإسلام؛ ساعيًا في تكميل زينة نفسِه، وتتميم جماله الظَّاهر والباطن بتحقيق ذلك، وهو في كلِّ ذلك يطلب من الله مدَّه وعونَه.

وزينةُ الإيمان: هي زينةٌ تتناول ظاهرَ العبد وباطنَه؛ فهي زينةٌ للقلب بحقائق الإيمان وأصول الدِّين، وأعظمُ ذلك: أصول الإيمان الَّتي يقومُ عليها دينُ الله، وتقوم عليها هذه الزِّينة، «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ؛ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[(٢)]؛ وهي أصولٌ وأسسٌ يقوم عليها هذا الجمال العظيم والزِّينة العظيمة؛ زينة الإيمان.

قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النِّساء: ١٣٦].

فهذه أسسٌ يُبْنَى عليها هذا الجمالُ العظيمُ، وتقومُ عليها شجرةُ الإيمان الَّتي لا أَزْيَنَ منها ولا أحسنَ؛ فقِيامُها على أصلٍ ثابتٍ، منه تتفرَّع الفروع

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجميلةُ البَهيَّة الحسنة فروعَ الإيمان، وهي أنواع الطَّاعات، وصنوف القُرُبات الَّتي يتقرَّبُ بها المسلم لربِّه جَلَّ وَعَلَا، ثمَّ بعد ذلك تأتي الثِّمار الجميلة الحسنة البَهيَّة الَّتي يجنيها المؤمن ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥]، فلا يزال المؤمن يجني من ثمار هذه الشَّجرة الجميلة البهيَّة في كلِّ وقتٍ وحينٍ في دنياه وأخراه؛ من سعادةٍ، وراحة قلبٍ، وقُرَّة عينٍ، وهناءة نفسٍ، وسَعَةِ رزقٍ، وذهاب همٍّ، وزوال غمٍّ إلى غير ذلك من الثِّمار في هذه الحياة الدُّنيا، وثواب الآخرة خيرٌ وأبقى.

وأمَّا الظَّاهر: فإنَّ تزيُّنَه وتجمُّلَه بزينة الإيمان إنَّما يكون بلزوم فرائض الدِّين، وواجبات الإسلام، والشَّرائع الَّتي أُمر بها العبدُ، وفي مقدِّمةِ ذلك: مباني الإسلام الخمسة الَّتي قال عنها النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في حديث ابن عمر: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، وإِقَامِ الصَّلَاةِ، وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وحَجِّ البَيْتِ، وصَوْمِ رَمَضَانَ**»[1]؛ فإنَّ هذه الأعمال المباركة والطَّاعات العَظيمة؛ هي في الحقيقَة زينةٌ للمسلم وجمالٌ، إضافةً إلى كونها سبب فلاحه وسعادته في دنياه وأخراه؛ فالصَّلاة نورٌ لصاحبها وبهاءٌ وحُسنٌ، وكذلكَ عموم الطَّاعات؛ لا يزال العَبد يزداد بها حسنًا وبهاءً، بخلاف المعرِض عن دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإنَّ الخطيئةَ والمعصيةَ والبعدَ عن طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ظلمةٌ في الوجه، ووحشةٌ في الصَّدر، وكذلك النُّكوص عن شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بممارسة البدع المُحدَثَات؛ يسبِّبُ هذه الوحشة والظُّلمة.

ومن زينة الإيمان وحليته: زينة اللِّسان بذكر الله، وتلاوة القرآن، وتعلُّمه

(١) أخرجه البخاريُّ (٨)، ومسلم (١٦).

وتعليمه؛ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ الله! إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ**»(١).

وعَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»(٢)، وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟**» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «**ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى**»(٣).

وكذلك من الجمال العظيم: عنايةُ المسلم بآداب الشَّريعة، وأخلاقِ الإسلام؛ فإذا أكرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عبده بالتَّحلِّي بالآداب الفاضلة، والأخلاق الكاملة، والمعاملات الرَّفيعة؛ فإنَّ كلَّ مَن يخالطه يحسُّ بهذا الجمال، ويلمس هذا الحُسن الَّذي يكسو مَن كان مُتحلِّيًا مُتجمِّلًا مُتزيِّنًا بأخلاق الإسلام الفاضلة، وقد أتى نبيُّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالآداب الكاملة، والأخلاق الرَّفيعة الفاضلة، الَّتي تسمو بصاحبها في عالي الدَّرجات، ورفيع الرُّتب؛ إضافةً إلى ما أعدَّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لذوي الأخلاق الرَّفيعة من أجرٍ وثوابٍ، حتَّى إنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئِلَ عن أكثر ما يُدخِلُ النَّاس الجنَّةَ فقال: «**تَقْوَى الله وحُسْنُ الخُلُقِ**»(٤)،

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٣٧٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٠٢٧).
(٣) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٣٧٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.
(٤) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، وحسَّنه الألبانيُّ.

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ**»(١)، وقال: «**أَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ؛ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا**»(٢)، والأحاديث في هذا الباب كثيرةٌ.

ثمَّ إنَّ ممَّا هو داخلٌ في هذه الزِّينة -زينة الإيمان وجمال هذا الدِّين-: بُعْد العبد عن المنكرات، وبُعده عن المحرَّمات؛ فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يحرِّم على عبادِه شيئًا إلَّا لما فيه من المَضرَّة عليهم في العاجل والآجل؛ فالمعصية وإن مالَت إليها النَّفس، وتطلَّعت في بعض الأوقات لفعلها، وتشوَّفت للوقوع فيها؛ هي في الحقيقة هَلَكَة للإنسان في دنياه وأخراه، وإذهابٌ لبهائه وحُسنه، وإذا خطا في المعصية خطواتٍ؛ كان بكلِّ خطوةٍ يخطوها في المعصية يفقِدُ حظًّا ونصيبًا من زينة الإيمان وجماله بحسب ذلك.

وكما أنَّ الإيمان هو الزِّينة الحقيقيَّة؛ فهو الجالب للزِّينات في الدُّنيا والآخرة؛ قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النَّحل: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٩-١٠]، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وقال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المُطفِّفين: ٢٤-٢٦].

(١) أخرجه أحمد (٢٩٥٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٢٣٤٩).
(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٠١٨)، وصحَّحه الالبانِيُّ، وأصله عند البخاريِّ (٣٧٥٩).

فهرس المحتويات